روائع الأدب العالمي

اسماعيل كاداريه

ترجمة
أنطوان أبو زيد

قصر الأحلام

قصر الأحلام



اسماعيل كاداريه

قصر الأحلام

ترجمة
انطوان أبو زيد



سلسلة روايات من العالم / ٨

الرواية	قصر الأحلام
التاليف	اسماعيل كادرايه
الترجمة	انطوان أبو زيد
الناشر	دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان ص.ب: ١١/٣١٨١ ـ ت: ٣٠٥٥٢٠
الطبعة	الأولى ١٩٩٢
تصميم الغلاف	نجاح طاهر

روائي الشخص الألباني،
جامع التاريخ والحلم واللحظة المعاصرة

قد يبدو منَ النافل الكلام على روائي (إسماعيل كادارِه)، بعد أن يكون حازَ صيته (كلاسيكيته)، على مدى الثلاثين سنة الأخيرة، منذ أن ترجمت روايته الأولى «جنرال الجيوش الميتة» إلى الفرنسية، وأعدَّت فيلماً ناجحاً، وتوالت ترجمات رواياته ناقلةً عوالم ألبانية حميمة ولكن في حبكات مختلفة كُلّ مرة.

ولعل طاقة كادارِه تكمن في اختياراته ووجهات نظره البالغة التنوّع والفرادة في آن، تلك التي يقارب بها موضوعات رواياته الواحد تلو الآخر. وكأنما هي المنافذ التي ينبغي له إحداثها، كلما أراد الإطلالة على نفس المادّة الألبانية، ذاتِ الملاحم التائهة، والأساطير المغمورة والشخصية الإثنية التي استحقت هويتها بالقتال الملحمي المتواصل من أجلها، حيناً بعد حين وعلى مرّ العصور، ضد الرومان والعرب والأتراك والإيطاليين والألمان والروس والصينيين. حتى ليصير التاريخ، في كتابته الروائية تلك اللحظة التي تتقاطع بالضرورة مع اللحظة الآنية المعاصرة، تقاطع الصوت مع صداه العتيق. بل الأحرى، يجعل الكاتب كاداره من الماضي تلك الشمس التي لا تني ترسل أشعتها الباهتة، ولكن الأكيدة، على كل الشخوص والروايات

والأفعال. حسبه أن الفعل الألباني، إذا صح التعبير (على غرار الحزن الألباني، «قصر الأحلام») موصول بحافزه وجذره القديم، وهو لا يتم إلّا إذا انوصل بالذاكرة الجماعية الأم، وبكل الهواجس والمعتقدات التي تؤثرها. حتى يمكن القول إن روايات اسماعيل كاداره في مجملها بحث دؤوب عن الروح الألبانية في تمثلاتها ومراحل انكسارها وانتصارها، ووقوعها في أسر امبراطوريات، وصراعها مع دول حديثة وتوتاليتاريات نازعة إلى الغلبة والضم.

ولكن لا يظنّن المرء اسماعيل كاداره روائياً تاريخياً فحسب، لا تجوز كتابته برَّ الوقائع والأيام، ولا تتعدى رؤيته مشارف الماضي السحيق. بل قل هي الحساسية الألبانية المحلية التي أمكن الروائي نقلها إلى الغرب ما صنع ألقَه الأول والخاص، يعينه في ذلك لغة دفاقة يزاوج فيها الشعريّ بالمتخيَّل، والواقعيّ بالدراميّ، والآنيّ بالغابر والمستقبل على حد سواء. وهذا شأنه في أول كتاب له «جنرال الجيوش الميتة» حيث يروي قصة جنرال إيطالي يقصد ألبانيا باحثاً عن رفات جنوده القتلى في معارك خاضها هؤلاء على أرضٍ صارخة في عدائيتها للمحتل والغريب.

وقُلْ كذلك عن كتابه «نيسان مقصوف» الذي يخط فيه لوحةً آسرةً في وحشيتها وقساوتها، عن تقاليد الثأر الألبانية، فيبلغ في تصويرها حدّ اعتبارها أشبه برحىً لا تزال تطحن القتيل والمنتقِم والمنتقَم له على التوالي، وسط قَدَرية الثورات التي لا رحمة فيها.

في حين يحكي، في روايته «طبول المطر» عن غلظة الاحتلال العثماني للسهوب الألبانية، في مشاهد متناهية، تتراصف فيها المشانقُ والقتلى، إلى العواصفِ والثلوج ودخانِ الحرائق، جنباً إلى جنب مع

آثار العجلاتَ في الوَحْلِ، وهي تنقُلُ آخر ناجٍ منَ السهوب.

أما كتاباه «الجسر ذو الثلاثة أركان» و«من أعاد دورونتين؟» فمن النوع التاريخي الحقّ الذي يسوِّغ له بناء حبكة روائية من داخل النسيج الأسطوري المرتبط بمعتقدات العامة الألبانية وتراثها البعيد الجذور، الرواية الأولى «الجسر ذو الثلاثة أركان» بحث شيِّق عن دوافع الجريمة - قتل أحد المشتغلين في الطرق وغمره تحت ردم الجسر استبراكاً - التي لولاها لما كانت أسطورة «كوپريلي» (نسبة إلى «كوپري» الجسر) ولَمَا اندغمت في التراث الألباني بالصميم، إذ تكاد لا تخلو أغنية أو نشيد ألباني قديم من الإشارة إلى «الجسر ذي الثلاثة أركان»، بينما تقص الرواية الثانية «مَنْ أعاد دورنتَين؟» حكاية عن زفاف شابة وحيدة، بين إخوة لها تسعة، برجل ساكن في أصقاع أوروبية نائية. ولما كانت الأم غير راضية عن بعاد ابنتها عنها هذا القَدْر، أقسم لها ابنها قسطنطين بشرفه (البيسًا) بأن يعيد لها ابنتها كلما حنت إليها. ويموت الإخوة التسعة في إثر معارك ضارية ضد جيوش المحتلين المغول، لا بحد السيف بل بالطاعون الذي كان الأعداء يحملونه في أبدانهم المتهافتة تحت ضربات المقاتلين الألبان. غير أن قسطنطين الشهيد يأبى أن يحنث بوعده، فيقوم من قبره ويسير على مطيته أياماً وليالي حتى يبلغ أخته، فيردفها وراءه ويأتي بها إلى أهلها. وحالما تراها الأم وتسمع منها أن أخاها قسطنطين الميت هو من أعادها، يغمى عليها وتتلوها ابنتها دورونتين وتغرقان كلتاهما في غيبوبة تنتهي بهما إلى الموت.

وفي هذا السياق التاريخي الأسطوري أيضاً، حيث لا يفقد الروائي البتة عنصر التشويق الدرامي، نابشاً إياه من صلب البنيانِ

الميثولوجي، تندرج رواية «موكب العرس المتجمد في الثلج». حتى لكأن كلّ رواية من هذه الروايات التاريخية، إذ تبين عن ملمح أسطوري من ملامح التراث الألباني الثري، تنبري نشيداً غاية في الصفاء والعذوبة والألم في آن، رغم بعض ثِقل التعليمية (من أعاد دورونتين؟) الذي يشوب الخواتم الدرامية لقدر من رواياته تلك.

على أن جزءاً من نتاج كاداره الروائي كان يتخذ سمة الواقع ليتسنى له أن يعقده بنفحته الشعرية. ذلك أن رؤيته للعالم غالباً ما تحثّه على خلق الرابط بين التفصيل وصورته الغرائبية، وبين المشهد وأساسه اللوني - النفسي البعيد. ومن هذا القبيل مثلاً روايته «يوميات مدينة الحجر»، وهي سيرة ذاتية تتلاحق فيها مشاهد البيوتِ والأحياء والشخوصِ والعائلات في مدينة الحجر، مدينة الطفولة والفتوة، إذ تعصف بها الحروب الصغرى إثر الكبرى وتحوّلها ساحة للمنازعات ومكمناً للهواجس ومرقىً إلى المثل والشِعر. فيها (يوميات مدينة الحجر) تتكوّن في ذاكرة الفتى صُوَر البيوت الهائة بحجرها النافر، وفيها أيضاً يختبر أولى لحظات الرعب، منَ القصفِ ومن العتمِ في تلك القلعة الضخمة التي يلجأ إليها سكانُ المدينة هرباً من غاراتِ الطيران الألماني والإيطالي على التوالي.

ولئن كانت رواية «الملف هـ.» تنزع نفس المنزع الواقعي، في أجوائها وحبكتها البوليسية وشخوصها، فهي تعود طينة طيِّعة، يختلج فيها ماضي الملاحم الألبانية بحاضر منشديها والباحثين عنها؛ إيرلنديان من سكان نيويورك، يقصدان دسكرة ألبانية بحثاً عن صانع الإلياذة أو الإنياذة الألباني المجهول، غير أن المنشدين الألبان الجبليين الذين يأتيان بهم لتسجيل أغانيهم يتلفون شرائط التسجيل، في نهاية

المطاف، ويمضون تاركين الأسرار في منابتها ومخابئها الأولى، عصيةً على الانتهاك.

في مقابلة هذين التوجهين الروائيين، اللذين يتراوحان بين الرواية التاريخيّة الميثولوجية الطابع، وبين الرواية الواقعية ذات الخيط التاريخي الضروري الوجود، شاءَ الروائي أن يبتدع وجهة أدبية أخرى يختلط فيها المعاصرُ بالتاريخي وبالحلمي اختلاطَ اندغامٍ كلّي، حتى يغدو الشخص النموذج (الألباني) في الرواية على هذه الصورة من اتحاد الحلم بالواقع السياسي الجماعي والفردي في آن، اتحاداً لا انفصام معه ولا تجزئة. ولربما تكون هذه الصورة على يد اسماعيل كاداره أبلغ تعبير عن الميل إلى الغرابة الكامن في أسّ النفسية الألبانية، الوارثة تقاليد الشرف وحداءَ الغرب ولغته وأساطيره، إلى درجة يُحتمل معها (أدبياً) تحويل الحلم إلى مؤسسة حاكمة (قصر الأحلام) تستشرف التحوّل السياسي، وترتئي، على هدي أحلام العامة والخاصة توجيه ضربات وقائية لِمَنْ يشكلون تهديداً لأمن الامبراطورية العثمانية، حيث كان الألبانيون خونةً ومقاتلين بواسل.

تمثّل رواية «قصر الأحلام» التي نحن بصددها، أوجاً آخر لمسعى كاداره في تنمية المنحى الدرامي المعاصر، حيث التاريخ والتغريب سيّدان، لهما مطلق الصلاحية؛ في أواخر القرن التاسع عشر، حين كانت الامبراطورية العثمانية قيد احتضارها يتفق أن شخصاً يُدعى مارك - عالم (إسم نموذجي خليط، غربي - شرقي) يختار الانخراط في سلك التبير سرّاي، أي قصر الأحلام حيث تجمع أحلام العامة والخاصة من أقطار الامبراطورية العثمانية، لتحلَّل بقصد استخراج ما ينبيء عن مؤامرات أو انتقامات، والتربّص لها وضرب المزمعين على

القيام بها. وتشاء الصدفة (الدرامية أن يكون مارك ـ عالم يمتّ بصلة قربى، من جهة والدته، بعائلة كوپريلي الألبانية العريقة، ذات الفضل على الامبراطورية العثمانية، للقادة العسكريين والوزراء والحكام الذين خرجوا من صلبها. بمثل ما كانت تشكو البين والاضطهاد منّ الامبراطورية العتيدة، بسبب من المنافسة ونزعة الاستقلال، ومن الإباء الصارخ لدى هؤلاء الحكام الألبانيين.

وراح مارك ـ عالم يتدرّج سريعاً في مراتب قصر الأحلام، فرقّي من شعبة الاستقبال، حيث يتلقى العاملون الأحلام الواردة من كل أنحاء الامبراطورية ويصنفونها، إلى شعبة الانتقاء، حيث يختار الموظفون الأحلام الجديرة بالتحليل، إلى شعبة التأويل، حيث يعمل الموظفون على إرفاقِ الشروح بالأحلام التي تتلاءم ورموزها ومضامينها، حتّى بلغ شعبة الحلم الأقصى حيث يختار الموظفون الحلم المفرد الذي يجمعون على أنه الأجدر بأن يُحمل إلى السلطان، الذي يقرِّر على ضوئه اتخاذ القرار الاجرائي الذي يراه مناسباً، إزاءَ من سوَّلت له نفسه التآمر على سلطته ونفوذه وسيادة الدولة العلية.

ولا يدرك مارك ـ عالم إلاَّ متأخراً، أن السبب في ترقياته السريعة والغريبة، لا يعود إلى كونه سليل عائلة الكوپريلي فحسب، بل أيضاً إلى اكتشافه الحلم الأقصى (جسر، وآلة اللاهوتا الموسيقية، وثور هائج) وتأويله إياه بالطريقة التي توحي بأن عائلة الكوپريلي (في الألبانية كوپري تعني الجسر) ذات النشيد الخاص (الآلة الموسيقية) بين شعوب الامبراطورية، تعدّ مؤامرة ضد الدولة (الثور الهائج منقضاً على أعمدة الجسر). وبالفعل تقتحم شرطة السلطان دار خاله الوزير، أثناء دعوة إلى العشاء تقليديَّة، وتجهز على المنشدين البوسنيين

الثلاثة الذين كان خاله الآخر كورت قد استقدمهم إلى العاصمة للاستماع إلى نشيد التعظيم المخصوص بعائلة الكويريلي، والذي يتلوه البوسنيّون لديهم دونَ الألبان، وتعتقل الشرطة كورت، أمام ناظري مارك ـ عالم، ولا تلبث السلطات أن تصدر حكم الإعدام به وتدق عنقه.

على أي حال، ربّما بدت هذه التوطئة العامة مفيدة لقرّاء العربية الذين تعرفوا نتاج الكاتب الألباني اسماعيل كاداره في إحدى رواياته المترجمة إلى العربية على الأقل. غير أن هذه الكلمة، إذ تعرِّف تعريفاً عاماً بنتاج الروائي، لا يسعها سوى أن تحيل هؤلاء القراء إلى مجموع نتاجه، بالأجنبية والعربية على السواء، كي تكتمل صورة كتابته الروائية في أذهانهم. وإلى أن ينبري لنا مترجم عربيّ منَ الألبانية مباشرة، نكتفي بمحضِ الإشارةِ والتعريف، لا النقل الكاملِ والتوصيف.

المترجم

الفصل الأول

الصباح

كانت الستائر تشفّ عن ضوء طلوع الشمس الكَدِر وأرجع الغطاء على عادته ليتناعس قليلاً بعد، ولكنه سرعان ما أدرك أنه لن يسعه ذلك. فخاطرة أنّ الفجر الذي يبزغ يبشر بيوم استثنائي باتت تكفي لتصدَّ منه أي رغبة في النوم.

وفي هنيهة، خطر له، وهو يبحث عن خفَّيْه عند موطىء السرير أنّ بسمة تهكم باتت ترتسم على وجهه الذي كان لا يزال مخدراً. وكان يقتلع نفسه اقتلاعاً من النوم بغاية أن يتسلّم مهامه في التبير سرّاي، وهو المكتب الشهير الذي يهتم بشكل خاص بالمنام والأحلام، ما يكفي لأن يثير لدى أيّ كان تكشيرةً بالغة الخصوصية. إلاّ أنه اعتراه قلق شديد من كونه قادراً على الابتسام ابتساماً صريحاً.

كانت تبلغه من الطابق السفلي نكهة الشاي والمقالي العطرة. وكان يعرف أن والدته ومربيته العجوز تنتظرانه على عجلٍ من أمرهما فجهد في تحيتهما بأحرِّ ما يمكن.

ـ صباح الخير ماما، صباح الخير لوك.
ـ صباح الخير مارك ـ عالم، نمت جيداً؟.

كانت ترتسم في عيونهما على السواء تلك الإثارة الطفيفة التي ترتبط نوعاً ما بتعيينه في منصبه الجديد. ولربّما قالتا في سرهما كما قال هو نفسه قبيل ذلك، إنَّ الليلة المنصرمة كانت الأخيرة التي يذوق فيها طعم الرقاد العادي على جري عامة الناس. ومن الآن فصاعداً لن يراوده أدنى شك بأنَّ تبدُّلاً ما سوف يصيب حياته.

تناول فطوره دون أن يسعه التفكير في شيء، في حين راح قلقه يتعاظم. عاود الصعود إلى الدور لارتداء ثيابه، ولكنه بدل أن يتوجه ناحية غرفته توغل في البهو الكبير. وبدا له أنَّ السجاد ذا الزركشات الزرقاء الباهتة افتقد إلى تأثير المهدِّىء. فاتَّجه صوب المكتبة وظل تماماً كما فعل البارحة أمام واجهة الصيدلية، مركوزاً أمامها زمناً طويلاً يمعن في التأمل بعناوين الكتب المطبوعة على ظهرها. ثم مدَّ يده اليمنى لينتزع له مصنَّفاً ثقيلاً وقد أُحكم تغليفه بجلد بني غامق، مائل إلى السواد. وقد انقضت سنوات طويلة لم يفتح مارك ـ عالم خلالها هذا المصنَّف الذي يحتوي على تاريخ عائلته تحت عنوان «الكوپريلي أبناءً عن الآباء» خطته يدٌ لا يعرفها سوى الله وانطوى على كلمة بالفرنسية Chroniques أي يوميات.

وإذ راح يقلِّب الصفحات آلم نظره أن يركِّز على الأسطر المخطوطة التي كانت تتبدل في فواصل متفاوتة بحسب الأشخاص الذين تواتروا على نسخها. ومما لا شكَّ فيه أنَّ غالبية الأيدي الناسخة كانت أيدي عجزة أو أقله أيدي أشخاص ذوي بقية حياة أَوْ هُمْ على عتبة مصاب كبير وقد أَلحَّت عليهم الحاجة إلحاحاً مفاجئاً إلى أَنْ يتركوا بعدهم أثراً وشاهداً.

«أما أول كبير في عائلتنا يعين في منصب كبير في الامبراطورية

فكان ميث كوپريلي المولود منذ ثلاثمئة سنة في دسكرة من أعمال البانيا الوسطى».

تنفس مارك ـ عالم الصعداء وعادت يده إلى تقليب صفحات الكتاب النصفي ولكنَّ عينيه ما كانتا تثبتان سوى على أسماء الوزراء والقادة: يا إلهي، كلهم من آل كوپريلي، قال في نفسه. مما يجعل دهشته من هذا التعيين ضرباً من الحماقة؛ وخطر له أنّ على المرء أن يكون أحمق بل وأنْ يكون أحمق الحمقى!

ولما وقعت عيناه على كلمات قصر الأحلام أدرك أنه طالما سعى في أثرها وتجنبها في آن ولكن هيهات أن يتجاوز الصفحة.

«لطالما كانت علاقات عائلتنا مع قصر الأحلام في غاية التعقيد، ففي البدء وفي عهد يلديز سراي حين كان يُكتفَى بالتنجيم كان كل شيء بسيطاً. ولم تبلغ الأمور درجة من التدهور والسوء إلاّ بعد حينٍ يوم تحوَّل الأخير إلى تبير سراي».

ولئن بدّدت جمهرة الأسماء والعناوين قلقه للحظات خلت، فإنَّ القلق عاود حلقه تشنُّجاً.

وراح يقلب الوقائع ولكن بتسرع وعشوائية كما لو أنَّ ريحاً عاصفاً أَطلق لها العنان من أطراف أصابعه.

«وما لقبنا سوى ترجمة للكلمة الألبانية «أورا» (QYPRIJA أو KURPIJA) والكلمة تُحيلُ إلى جسر ذي ثلاثة عقود مما في البانيا الوسطى (وقد أُنشيء في العصر الذي كان لا يزال الألبانيون فيه مسيحيين، وكان طُمِر في أساساته رُفات رجل مقتول بعد أن اشتغل في بناء هذا الجسر. وما أنْ تمَّ بناؤه حتى أطلق أحد أجدادنا المدعو

غجون على غرار كثيرين قبله اسم أُورا على ذلك الجسر. وهـو اسم يرتبط ارتباطاً مباشراً بفعل الجريمة ويدل عليها في الآن نفسه».

أغلق مارك ـ عالم المصنف بضربة خاطفة وغادر البهـو بغتة. ومـا هي إلاَّ لحـظات حتى كان في الشـارع. كانت صبيحـة رطبـة. وكـان رذاذ يتسـاقط مصحوبـاً ببعض ثلج. والأبنيـة الضخمـة، التي بـاتت تشرف من علٍ على نشاط الشارع بأبوابهـا الثقيلة ومصاريعهـا المغلقة بعدُ، أخذت تلقي بقتامها على بداية هذا النهار.

ارتدى مارك ـ عالم معطفه عاقداً حتى آخر زرٍّ فيه يشدُّ على عنقه. أجال نظره ناحية المناور من الحديد المشغول حولها كانت تتطايـر ندف الثلج متناثرةً رقيقة، فانتابت فقار ظهره قشعريرة خاطفة.

كـانت الجادة في مثـل تلك السـاعـة تغصّ بمستخـدمي الـوزارات الذين راحوا يحثُّون الخطى كي يبلغـوا مكاتبهم في أوان العمـل. وهو لمّا يزل في طريقه إلى السراي ألحَّ عليه تساؤل لمرتين أو ثلاث، عما إذا كان يحسن به أن يوقف عربة خيل. فقد بدت له المسافـة التي تفصله عن التبير سراي أطول مما خيل إليه، ومما يزيد الطين بلّة أنَّ طبقة من الثلج غـير المذاب كليـاً قد غـطت الـرصيف، وجعلت المـرور عليـه محفوفاً بخطر الإنزلاق.

ها هو يدلف باتجاه المصرف المركزي. وعلى مـدىً أبعد قليـلاً كان صف من عربات الخيل مغطى بالملاّح وقـد تراصفت أمـام مبنىً آخر ذي مهـابة فتسـاءل أيّ من الـوزارات يمكن أن يشغـل هـذا البنـاء. تزحلق أحد المارة أمامه على الـرصيف. ولما كـان يحدّق بـه رآه ينخلع وركاه هنيهة قبل أن يجنح إلى الأرض وينتصب، ثم ينظر حوله شاتماً،

بين أسنانِه، وشاحَه المطبخ والمكانَ حيث انزلق، إلى أنْ يواصل سيره بإيقاع المنذهل. تنبّه! قالها مارك ـ عالم على حدة دون إدراك منه بـأنَّ هذا القول هو لتنبيه ذلك الرجل المجهول، أم لتنبيهه هو نفسه.

الحق يقال، لم يكن ثمة ما يثير الهم. وإذْ لم يحدِّدوا له ساعة بعينها للحضور إلى ذلك المكتب وحتى أنّـه لم يكن أكيداً واجب الحضـور في الصبيحة. وفجأة، تنبـه إلى أنّه لم تكن لـديه أدنى فكـرة عن دوامات التبير سراي.

وفي مكان ما إلى يساره هناك في الضباب، تناهى إليه طنين سـاعة الجدار البرونزي، كما لو أنّها تطن لنفسها فحسب. حثّ الخطى حتى أنه لم يقم بأيـة حركـة آلية لكي يـرفع طـوق معطفـه الفرو، بعـد أن ارتداه. والواقـع أنـه مـا كان ليستشعـر البرد في عنقـه، بل في نقـطة محددة من صدره. أوغل يده في جيب سترته الـداخلية ليتـأكد من أنَّ رسالة التوصية ما زالت فيها بعد. ولبرهـة ساوره الانـطباع بـأن المارة بـاتوا نـادرين. وخطر لـه بنـوع من القلق، أن الموظفـين قـد بلغـوا مكاتبهم في هذه السـاعة، ولكنـه سرعان مـا هدأ: ففي العمق كـان وضعه مختلفاً تماماً عن وضعهم. وهو لم يصرْ بعد موظفاً.

من بعيد خيل إليه أنه يلمـح جناحـاً من التبير سراي. ومـا أنْ دنا منه حتى ثَبُت له ظنه. كان ذلـك هو القصر حقيقـة مع قببـه المبللة، وبتلوينة بدت مطعَّمةً بـالأزرق فيما مضى، أو أقلّه مـائلة إلى الزرقـة، كان يصعب على المـرء أن يتميزهمـا وسط المطر المختلط بـالثلج. كان البناء أحد جوانب القصر. أما واجهته فتطل على الشارع المجاور.

اجتاز فناء قصيـراً يكاد يكـون مقفراً حيث يقـوم جامـع ذو مئذنـة

غريبة في ضمورها. في الواقع كان مدخل القصر من هذا الجانب. وبدا جناحاه يتيهان في الرذاذ، في حين أن البنيان المركزي من الأبنية قائم على مبعدة قليلاً، كما لو أنّه تراجع لتوّه ازاء تهديد. وتعاظم القلق في نفس مارك ـ عالم. وكان ثمة سلسلة طويلة من المداخل المتشابهة كلياً والتي تتوالى مدخلاً إثر مدخل، ولكنه ما أن اقترب منها حتى أدرك أنّ هذه البوابات الكبرى ذات المصاريع المتقطّرة كانت مغلقة على الدوام وأنها لم تفتح منذ أمد بعيد.

جال في المكان؛ متفحصاً سلسلة البوابات المحكوم عليها هذه وإذا برجل يضع قلنسوة على رأسه يطل عليه، مفاجئاً إياه من مكان مجهول.

فسأله مارك ـ عالم: أترى من أين ندخل؟

فمد الرجل ذراعه باتجاه اليمين، وقد بدا كمُّ ردائه في غاية الاتّساع بحيث لم تحرّك اشارة الذراع فيه ساكناً، وقال مارك ـ عالم في سره: يا إلهي أي رداء هذا، وهو يسير في الاتّجاه الذي أشارت إليه اليد الصغيرة التي بدت ضائعة في متاهة هذا الكم الوسيع. وبعد مضي برهة تناهت إليه من جديد أصوات خطوٍ قربه. كان ذلك الرجل ذو القلنسوة.

ـ من هنا، قال، مدخل الموظفين من هذه الناحية؟

سرّ مارك ـ عالم بأن اعتُبر موظفاً. وانتهى به المسير إلى أن بلغ المدخل. وبدت له المصاريع غاية في الثقل. كان ثمة أربعة منها وفي كل المواضع المماثلة، وقد جهّزت بمقابض ثقيلة من برونز. ودفع إحداها فراق له أن تكون أخفّ مما ظن. وتوغل في رواق جليدي ذي

سقف بالغ العلو. بحيث خُيِّل إليه أنه في عمق هوّة. إلى الجانبين كانت تتراصف سلسلة طويلة من الأبواب فأخذ يدير مقابضها، الواحد تلو الآخر، إلى أن انفتح له أحدها فألقى نفسه في رواق آخر، أقل برودة، وأخيراً لمح أناساً من خلال حاجز زجاجي: قد يكون هؤلاء حجّاباً، أو أقله مستخدمين مولجين بالاستقبال، إذ كانوا يرتدون نوعاً من الخلعة الفاتحة الزرقة، من التلوينة ذاتها التي تقبّب القصر، وظن للوهلة الأولى أنه تميز حتى في أزيائهم بقعاً مماثلة لما كان لمحه من بعيد على القبب والتي يحتمل أن تكون ظهرت بفعل الرطوبة. ولكن لم يتسنَّ له أن يديم النظر، إذ كفَّ هؤلاء عن ثرثرتهم ورفعوا نحوه نظرات مستفسرة. وكان يفتح فاه ليوجه لهم تحية، إلاّ أنّ انزعاجهم الظاهر من قطع ثرثرتهم على هذا النحو، جعله يصرف النظر عن تحيتهم مكتفياً بلفظ اسم الموظف الذي يجدر أن يتقدم إليه.

ـ آه إنه بشأن وظيفة؟ قال أحدهم، الطابق الأول إلى اليمين، الباب الحادي عشر!

وعلى نحو ما يفعل أيّ امرىءٍ يعبر للمرة الأولى عتبة ادارة هامة، ولما كان قدم إلى هنا بقلب يجمّده الشك، ودَّ لو أنّه يتبادل كلمتين مع أحدهم قبل الذهاب بعيداً، ولكن هؤلاء بدوا نافذي الصبر لاستئناف ثرثرتهم اللعينة، كما لو أنهم يدفعونه دفعاً إلى الممر الداخلي.

سمع صوتاً وراءه يقول: إنه هنالك، إلى اليمين: دون أن يلتفت، مشى في الوجهة التي عينت له وكان الانفعال والرعشات التي ظلت تنتاب جسمه وحدها تحول دون أن يشعر بالغيظ.

كان الممر طويلاً ومعتماً وقد تفرعت منه عشرات الأبواب، العالية

وغير المرقّمة. عدَّ حتى العشرة وتوقف لدى الباب الحادي عشر. وقبل أن يدقّ على الباب شاء أن يتأكد من أن هذا هو حقاً مكتب الموظف الذي يبحث عنه ولكنَّ الممشى كان مقفراً، تنفس الصعداء ودقّ دقاً خفيفاً ولم يبلغه من الداخل أيّ صوت. نظر إلى يمينه ثم إلى يساره، ودقّ ثانية أقوى هذه المرة، لا جواب أبداً. دقَّ للمرة الثالثة وإذْ لم يسمع جواباً دفع الباب. ولشدّة دهشته انفتح الباب دون كد وجهد. ولما بدا مرتعباً باشر حركة غلقه، ومد ذراعه حتى يمسك بالباب الصّفاق الذي ظل يدور حول مفاصله محدثاً صريراً، ولكنه انتبه آنئذ أن الغرفة كانت فارغة. فتردد، هل يقدم على الدخول؟ لم يكن أي قانون أو عادة ملائمة لهذا الموقف المماثل لتخطران له. وتوقف الباب عن النواح أخيراً وظل يحدق بعينين جاحظتين، في المقاعد المصفوفة بلصق جدران هذا المكتب الفارغ. توقف لحظة عند عتبته، ثم مدّ يده إلى رسالة التوصية. نفحته هذه الحركة بعض الشجاعة، دخل. إنه حقاً أمر مدهش قال في سره. وجعل يستحضر في ذاته بيته الكبير في الشارع الملكي، وأهله المتنفّذين الذين غالباً ما يجتمعون حول العشاء في حجرة واسعة ذات مدفأة عالية، وبحركة أكثر تطلقاً، أخذ مكانه على أحد المقاعد. ولسوء الحظ سرعان ما غادرته صورة منزله وأقربائه وعاد القلق الأول يتملّكه. وتناهى إلى سمعه ضجة مخنوقة، أشبه بتمتمة لم ينجح في معرفة مصدرها. أجال نظره في الغرفة وتوقف لدى باب آخر ينفتح هو الآخر جانبياً فبدا أن أصواتاً تصدر من خلفه. لم يحرك ساكناً للحظة، وجعل يصيخ سمعه، ولكن التمتمة ظلت غامضة وكان قد ركّز إلى الآن كل انتباهه على هذا الباب الخلفي الذي ظن أن الحرارة تدب في ما وراءه، دون أن يملك تعليلاً لذلك.

وضع يديه على ركبتيه وظل هكذا وقتاً طويلاً. على أيّ حال فقد أمكنه الدخول إلى هذا البناء دون كبير عناء في حين ينجح القلائل في بلوغه. والتفت مرتين أو ثلاثاً باتجاه الباب من حيث تأتي ضجة الأصوات ولكنه آنس في نفسه القوة على البقاء، هنا ساعات، بله أياماً بكاملها دون أن يقوم إلى الباب ليدفعه. ولسوف ينتظر جالساً على ذاك المقعد، مباركاً المصير الذي أفضى به إلى غرفة الانتظار هذه. ولم يكن ليتوقع أن تحدث الأمور بالبساطة المتناهية. والحق يقال لم يتم كل شيء بالبساطة المعهودة. ولكن بلى، ما لبث أن عاتب نفسه: اجتياز الطريق في وسط الرذاذ، بعض الأبواب المغلقة، وحُجَّابٌ في خلعاتهم التي من لون الزنجار وغرفة الانتظار المقفرة هذه، كل هذه الأمور لم تكن في العمق بالغة التعقيد.

.ورغم ذلك، فقد أطلق زفرة دون أن يدرك السبب في ذلك.

وفي هذه اللحظة انفتح الباب فقام. تطاول أحدهم برأسه، نظر إليه وتوارى ثانية تاركاً الباب مشقوقاً وسمعه يقول في الجانب الآخر:

ـ ثمة أحد في غرفة الانتظار.

ما كان ليتنبّه إلى زمن انتظاره. وكان الباب لا يزال مشقوقاً، وما يتميزه في هذه الأثناء لم تكن أصواتاً بشرية بل طرطقة غريبة، والرجل الذي انتهى إلى الظهور كان قصير القامة وقد أمسك في يده حزمة من أوراق بدا لمارك ـ عالم أنها تحوز جلّ انتباهه. ورغم ذلك فقد رمقه بنظرة متفحصة وهمّ مارك ـ عالم أن يعتذر له بأيّ شكل عن اضطراره إيّاه إلى الخروج من مكتبه، الذي كان مدفّأ تامّ الدفء بالتأكيد، إلّا أنَّ عيني القصير القامة اسكتتاه.

وحدها يده جعلت تستأصل ببطءٍ رسالة التوصية من جيبه لتقديمها له. مدَّ الآخر ذراعه لينتزعها منه، ولكنه سرعان ما أرجعها، كما لو أنه خشي من أن تحترق بها، بل دنا برأسه فقط من الورقة، وجازها بنظرها، سحابة ثانيتين أو ثلاث، ثم تراجع. وخُيِّل لمارك ـ عالم أنه لمح في عينيه بريق استهزاء.

ـ اتبعني! قال الآخر متوجهاً إلى الباب المؤدِّي إلى الممشى.

خرج الرجل أول الأمر وراح مارك ـ عالم يتعقَّب خطواته، وفي البداية جهد في أن يرسّخ في ذهنه الدرب الذي يسلكانه لتوّهما لكي يتذكر الممرات التي يجدر أن يعود إلى عبورها في إيابه، ولكنه ما لبث أن اقتنع بأنَّ جهد التذكر هذا قد يكون عبثاً. فالممشى كان أبعد بكثير مما بدا له بلمحة واحدة. نور ضعيف كان يصدر من مماشٍ أخرى جانبية.

انعطفا في نهاية الأمر في اتجاه أحدها، وللحظة توقف الرجل أمام باب ودخل، تاركاً المصراع مشقوقاً للزائر. تردَّد هذا الأخير لحظة وما لبث أن دخل بدوره بعد أن أومأ إليه الرجل.

لفحته رائحة الفحم الوهّاج تفوح من مدفأة نحاس موضوعة في وسطها، أسطع من دفء الغرفة نفسها. كان رجل ذو وجه متطاول جالساً إلى طاولة خشب وقد بدا عابساً وحدس مارك ـ عالم أن هذا الرجل كان قد طرف عينيه إلى الباب حتى قبل أن يطأ العتبة كما لو كان ينتظرهما.

تقدم الآخر قصير القامة، الذي قدّر مارك ـ عالم أنه تودَّد إليه، باتجاه الرجل الجالس وأسَرَّ إليه بأمر. في حين لم يرفع الأخير ناظريه

عن الباب كما لو أنه لا يزال يُطرَق. وأصاخ سمعه بعض الوقت إلى وشوشة الموظف في أذنه، ثم تمتم ذاته بعض الكلمات دون أن تتحرك له طوية في وجهه. وقال مارك ـ عالم في سرِّه إن مسعاه بات قيد الإحباط، وإن رسالة التوصية لديه، وكل الوساطات تصير غير ذات وزن إزاء هاتين العينين اللتين لا تبديان تودداً البتة سوى مع الباب!

بغتة تناهت إليه كلمات كانت موجهة له فتحركت يده حافَّةً بطانة معطفه بعصبية وسحب رسالة التوصية، ولكنه شعر أن إيماءاته ألقت بقتامها على الجو. وخلص بلمح البصر إلى أنه ربما لم يحسن السمع فباشر حركة إعادة الرسالة إلى جيبه. غير أنَّ يد القصير القامة امتدت في هذا الوقت بالذات إلى المغلف. وإذ اطمأن مارك ـ عالم أدنى الرسالةَ منه، غير أن ارتياحه بدا مبكراً، ذلك أن الأخير لم يمسسها كما فعل في المرة الأولى. بل راح يرسم بيده خطاً متخيلاً كما لو أنه يحدد له المسار الذي يجدر بالرسالة أن تخوض فيه حتى يبلغ إلى غايته. وأخيراً أدرك مارك ـ عالم رغم بعض ذهوله أنه يجب أن يودع الرسالة بنفسه، الموظف الآخر الذي ينبغي له أن يكون دون شك أعلى درجة من مرافقه. وأخذ الموظف الأعلى الرسالة مدفوعاً بحشرية ورافعاً هذه المرة نظرَهُ عن الباب (إذ لم يكن مارك ـ عالم ليأمل بانتزاع ناظريه عنه). فضَّ ختمها وجهد في معرفة محتواها ولم يبارحه مارك ـ عالم بناظريه في أثناء قراءته أملاً في أن يلتقط أيّ إشارة من خلال قسماته. ولكن حدث آنئذٍ ما بدا له مرعباً بالضبط. وشعر يصّاعد في ذاته هلع بهيم، شبيه بما تحدثه الزلازل عامة. والواقع أن ما شعر به كان قد أثاره بالتحديد تهيؤ ظاهر: إذ راح الموظف ذو الوجه العبوس يقوم عن كرسيه بتأنٍ وهو لا يزال يتابع قراءته. وكانت حركته

المصعَّدة بطيئة للغاية، ومنتظمة إلى حدٍّ كبير حتى تولى الرعب مارك ـ عالم من جراء هذا البطء وذلك الانتظام، إذ خيل إليه فجأة أن هذه الحركة لن تبلغ منتهاها أبداً وأن هذا الموظف الرهيب الذي يؤول إليه مصيره سوف يتحول تحت ناظريه إلى مسخ. حتى صار على وشك أن يصرخ قائلاً: كفى، لم أعد أرغب بهذه الوظيفة، ردوا لي رسالتي، لا أتحمّل رؤيتك تقوم هكذا! ولكن الموظف بات واقفاً تماماً تلك اللحظة.

أذهل مارك ـ عالم أن يلاحظ أن قامة هذا الأخير أقرب إلى الوسطى. فتنفس الصعداء ولكن سرعان ما تكشّف له الارتياح مبكراً. فما أن وطئت قدم الموظف الأرض حتى أخذ يبتعد بحركة منتظمة عن مكتبه. وها هو الآن يتجه نحو المركز الوسط من الغرفة.

المستخدم الذي كان يرافق مارك ـ عالم قد بدا كأنه توقع أن يبادر الموظف إلى هذا الانتقال، إذْ تنحّى جانباً مفسحاً في المجال أمام رئيسه؛ في هذه اللحظة أدرك مارك ـ عالم شعور عارم بالاطمئنان وكأن ذلك بمثابة بسطٍ لجسدٍ خَدِرٍ بسبب قعوده زمناً طويلاً، أو من جرّاء معاناته النزيف أم لتعرضه للوقوع في النقطة(*) والقول على ما ساورته نفسه إنني أوشكُ على إطلاق الصياح رعباً! بلى أعصابي تالفة حقاً في الآونة الأخيرة.

وللمرة الأولى هذا الصباح استعاد نظره صفاءه المعتاد كي يسعه أن يجابه نظر الآخر. وكان الموظف لا يزال يحتفظ برسالة التوصية في يدهِ. وتوقع مارك ـ عالم أن يقول له: أنا على علم بهذا، ولسوف

(*) النقطة goutte أو مرض النقرس.

تعين. . . أو أن يهبه بعض الأمل مانحاً إيّاه وعْداً لأسابيع أو لفصول لاحقة. ولن يعقل أن يكون أبناء خاله العديدون قد سعوا عبثاً على مدى أكثر من شهرين لتدبير هذا الموعد. ثم إن هذا الموظف الكبير الذي طالما استشعر مارك ـ عالم ازاءه برعب دونما سبب لربّما يجدُ أنَّ من صالحه الإبقاء على صلات وديّة مع عائلته النافذة التي لن يقوى ذاته على التخلّي عن نعمها.

وإذ راح يرقبه هدأ روعه للحال. واطمأن واعترت جلدة وجهه علائم الارتياح حتى بات من الممكن أن تتثنّى وترسم أمائر ابتسامة، وكان يمكن أن يباشر ذلك بالتأكيد لو لم يصعقه أمر آخر غير متوقع بتاتاً. إذ عمد الموظف الواقف أمامه إلى طيّ رسالة التوصية بعناية، وفي اللحظة التي انتظر فيها مارك ـ عالم أن يبادره بكلام طيب من جهته، جعل يمزقها إلى أربعة. أرجف مارك ـ عالم وانطوت شفتاه على حركة كأنها تحاول سؤالاً أو تستنشق ببساطة بعض هواء، بيد أنَّ الموظف تقدم خطوة باتجاه المدفأة ورمى بالقطع الأربع فيها، وكأنما لم تشفِهِ حركة التمزيق الأولى. فانبعثت سريعاً شعلة شيطانية من الجمر الخامد، وقد شابته طبقة الرماد، ثم انطفأت أخيراً تاركة تحتها اطراف الورقة المحترقة.

ـ في التبير سراي لا تقبل الوصايات، قال له الموظف بصوت يذكره بطرطقات ساعة جدار ضائعة في الليل. كان مذهولاً. ولم يعرف ما يتوجب عليه أن يفعل: أن يظل هنا بعد أو يخلي الساحة للحال، يعترض أو يتقدم باعتذاراته. وفي هذه الأثناء خرج المستخدم الذي رافق مارك ـ عالم تاركاً إياه وحده في صحبة الموظف وكأنه يقرأ له أفكاره. وباتا في ذلك الحين وجهاً لوجه، تفصلهما المدفأة. ولكن

هذا الوضع لم يدم طويلاً إذ راح الموظف في حركات بطيئة يستعيد مكانه خلف طاولة العمل، وفي زمن بدا لمارك ـ عالم وكأنه لن ينتهي. غير أنه لم يجلس بل اكتفى بأن سعل قليلاً كأنما ليتهيأ أن يلفظ تعبيراً، ثم قال متطلعاً إلى الباب، وإلى مارك ـ عالم على التوالي:

ـ في التبير سراي، لا نقبل التوصيات، إنه مخالف تماماً روح هذه المؤسسة.

لم يدرك مارك ـ عالم شيئاً مما تحمله هذه الكلمات.

ـ وأساس التبير سراي ليس الانفتاح مطلقاً، بل الانغلاق إزاء التأثيرات الخارجية، ليس الانفتاح، بل الانعزال والانطلاق بالتالي، بعكس التوصية بالتحديد، وليس بحسبها. ورغم كل شيء، فأنت معين في هذا القصر، منذ اليوم.

فقال مارك ـ عالم في نفسه ما الذي يحدث لي؟ وحدقت عيناه في بقايا الورقة المحترقة فوق الجمر العتيق الراقد، علّهما تطمئنان مرة أخرى.

ـ نعم، منذ هذه اللحظة، أنت معين هنا، ردّد له الموظف الذي كان لاحظ نظر مارك ـ عالم المذهول فتنفّس الصعداء. وبعد أن كان أسند راحته إلى الطاولة (وفي تلك اللحظة بالذات أدرك مارك ـ عالم أن أعلى هذه الطاولة كان مغموراً بالملفات) وراح يتكلم.

ـ التبير سراي أو قصر الأحلام، كما يسمّى بلغة العصر، هو أحد أهمّ انشاءات دولتنا الامبراطورية الكبرى. . . .

صمت لحظة متفحصاً مارك ـ عالم كأنما ليخمّن المدى الذي بلغه

الوافد حديثاً في فهم كلماته، ثم أضاف:

ـ منذ زمن قديم اعترف العالم بأهمية الأحلام وبدورها في استباق مصائر البلاد وحكامها. أنت سمعت بالتأكيد بوسيط الوحي دلفي في أثينا العتيقة وبقراءة الطالع للرومانيين والآشوريين والفرس والمغول وغيرهم، وتشير الكتب القديمة هذه حيناً إلى الدواعي السارة لتكهناتهم إذ يسمحون باتقاء المصائب وحيناً آخر يبينون الثمن الذي قد يدفعه ناكرها (هذه التكهنات) لكونه لم يمحضها إيمانه أو لكونه فعل ذلك متأخراً جداً. وخلاصة الأمر أن كل الأحداث المعلنة مسبقاً تذكرها هذه التكهنات، أكان مجراها قد بدّل له إطلاق إشارات مماثلة، أم لا.

ومما لا ريب فيه أن هذا التقليد العريق كانت له أهميته، غير أنه يظهر بمثابة مزاح باهت بالمقارنة مع نشاط التبير سراي. والواقع أن دولتنا الامبراطورية هي الأولى في التاريخ الكوني التي رفعت إلى أعلى المراقي تفسير الأحلام، بأن جعلته في مؤسسة.

وكان مارك ـ عالم يصغي منذهلاً إلى كلام كبير الموظفين. ولم يكن بعد قد استعاد روعه من انفعالات هذا الصباح، على أن كل هذه الجمل أتت بدهية وبالغة التعقيد في الآن نفسه، وهذا هو الأدهى!

ـ إن دَوْر قصر الأحلام لدينا الذي أُنشيء مباشرة بمساعي السلطان زمن حكمه، يقضي بتصنيف الأحلام وتفحص التبير الجامع، أي بمعنى آخر جماع أحلام المواطنين دون استثناء، وليس النظر في الأحلام المتفرقة لبعض الأفراد، من أمثال أولئك الذين أغرّهم امتياز التكهن بالغيب وأنسوا إلى احتكارهم قراءة العلامات

الالهيـة. إنه لمشروع عـظيم يبـدو ازاءه عـرّافـوا «دلفي»(*) وطبقـات المتنبئـين وسحرة الأمس الغـابر مـدعاة للهـزء. فالفكـرة التي راودت العاهل بإنشاء التبير سراي ترتكز أساساً على واقع أن الله يرمي بحلم نذير على سطح الكرة الأرضية، بالوقاحة نفسها التي يطلق بها برقاً أو يرسم قوس قزح أو يقرّب منّا بغتة أحد النيازك الـذي كان قـد أطلقه من أعـماق هذا الكـون المجهـولـة. إنـه يـطلق إذن، إشـارة في هـذه الأرض دون أن يهتم بالمكان حيث يمكن أن يقع، إذْ لكونـه بعيداً إلى هذه الدرجة، لا يمكنه أن يهتم بهذا النوع من التفاصيل.

ويعود الأمر لنا في أن نكتشف الموضـع حيث حل هـذا الحلم وأن نخرجه من بين ملايين ومليارات من الأحلام الأخرى، كما لو أن المرء يبحث عن لؤلؤة ضـائعـة في صحـراء رمـل؛ إذْ أن شرح هـذا الحلم الهابط هبوط شرارة تائهة في دمـاغ واحد من مـلايين البشر النـائمين، يسعه أن يتدارك كارثة قـد تحل بـالبلاد وبحـاكمها، كـما يمكنه تجنيب الناس الحرب أو الـطاعون أو يحـدث أفكاراً جـديدة. لـذا فإن قصر الأحلام هذا ليس فيه شيء مما هو نزوة أو تخيل بل يشكل أحد دعائم الدولة.

في هذا المكان بالذات تُقدَّرُ حالة الامبراطورية الحقيقيـة أفضل ممـا يخلص إليــه المحلّلون عـبر دراســاتهم المختلفـة، وأحسن ممــا تفعله الـدعاوى وتقـارير المفتشـين ورجال الشرطـة أو حكام الـولايات. إذْ يكمن في ظلمة مملكة الرقاد، نور البشرية وعتـاتها، عسلهـا وسمّها، عظمتها وضيقها في آن معاً. وكل ما يغدو مضطربـاً وشؤمـاً وكـل ما سوف يكونه في السنوات الآتية أو في العصور المقبلة يظهر بادىء الأمر

(*) معبد دلفي عند اليونانيين القدماء. (المحرر)

في أحلام الناس بل إن كل هوى أو فكرة شريرة وكل مصيبة أو جريمة، وكل تمرد أو كارثة، لا بدّ من أن تعكس ظلها قبل أن تظهر إلى الوجود، في الحياة الواقعية، بزمن بعيد. وعلى هذا أصدر السلطان العثماني أمراً يقضي بأن يخضع كل حلم لفحص التبير سراي، أيّاً كان المكان الذي شهد هذا الحلم. حتى ولو تم في أقاصي البلاد النائية وحتى لو جرى في أكثر الأيام عادية وحتى ولو ساور أكثر خلق الله إغفالاً. كما أصدر السلطان توصية أكثر حيوية من تلك، وتقضي بأن يظل الجدول، الذي يُنشأ على أثر تجميع وتصنيف الأحلام ودراستها يومياً، وكل أسبُوع أو شهر، في غاية الدقة وبعيداً عن كل تشويه. ولهذا تعاظمت أهمية العمل الضخم الذي يجدر إنجازه لتحليل المواد وبالقدر نفسه، عزل التبير سراي عن أي تأثير خارجي. فنحن ندرك أن خارج التبير سراي قوىً لها مصلحة في أنْ تُدخل عملاء لها مؤثّرين إلى هنا ولأسباب مختلفة من أجل أن تحقّق غاياتها وأفكارها، وأن تحتجّ بأحكام تقدمها بالتالي على أنها إشارات إلهية بثّها الله على حدِّ زعمها، في العقول البشرية النائمة. ومن أجل هذا لا يُقبل رسائل التوصية في التبير سراي.

انعطفت عينا مارك ـ عالم بصورة آلية ناحية الوريقة المحترقة التي راحت رغم تقوقعها تتمايل هذه الأثناء مثل عفريت فوق الجمر.

ـ سوف تعمل في شعبة الانتقاء، أضاف الموظف بالنبرة ذاتها. كان يمكن لك أن تباشر في شُعب أقل أهمية كما يفعل الوافدون الجدد عامة أما أنت فسوف تبدأ في شعبة الانتقاء لأنك تناسبنا.

ولامس مارك ـ عالم بطرف عينيه خطفاً ارتعاش الورقة المسودة كأنما شاء أن يخاطبها: ألم تختفي بعد؟ وقال الآخر: ثم تذكّرْ أنَّ أهم

ما قد يطلب منك هو الاحترام المطلق للسر. ولا تنسَ أبداً أن التبير سراي هو مؤسسة منغلقة بالكامل ازاء العالم الخارجي.

تخلّصت إحدى يديه من الطاولة، ورفع سبابته راسماً في الهواء علامة تهديد.

ـ عديدون هم الأفراد والزمر التي سعت إلى التغلغل إلى هذا الموضع إلاّ أنَّ التبير سراي لم يقع قط في الفخ. ولما كان مفرداً، عزل نفسه عن الضوضاء البشرية، خارج صراعات الميول والنزعات على السلطة، منغلقاً أمام الجميع ودون صلة مع أيٍّ كان. يمكنك أن تنسى كل ما أتيت لك على ذكره، ولكنَّ أمراً يا بُنيَّ أكرِّر لك القول، عليك أن تحتفظ به في نفسك دوماً، عدم البوح بالسر. وليس هذا نصحاً بل إنه القرار الأعظم الذي أصدره التبير سراي . . . والآن، هيَّا إلى العمل، عليك أن تسأل عن شعبة الانتقاء في الممشى. وحتى قبل أن تبلغها، يكون أولئك الذين سوف يستقبلونك قد أحيطوا علماً بكل ما يتعلق بك. حظاً سعيداً.

كان لا يزال مارك ـ عالم منذهلاً، حين نفذ إلى الممشى. ولم يرَ أحداً يمر ليسأله عن الوجهة التي ينبغي له اتخاذها للوصول إلى شعبة الانتقاء. وراح يسير كيفما اتفق. وكانت لا تزال تتردد أصداء من أقوال كبير الموظفين في مسمعه. ما الذي يحدث لي؟ قال في سرّه، وراح يهز رأسه كأن ليطرد الأصداء منه. ولكن بدل أن تنفصل الكلمات عنه، أخذت تلاحقه بعناد أكبر. وخيّل إليه، أنه في وسط قفر المماشي هذا تُصادِمُ الكلماتُ الجدرانَ والأعمدةَ، ويتضاعف صداها حتى يتخذ سمة الكارثة «سوف تبدأ في شعبة الانتقاء، لأنك تناسبنا».

وحثّ مـارك ـ عـالم الخـطى، دون أن يـدرك السبب في ذلـك. إنْ ـ تِ ـ قا ـ ء ـ وراح يردِّد في ذهنـه هذه الكلمات التي بـدت له، هذه الأثناء وقد اكتست وحـدها بـالنبرة الأغـرب. ولمح طيفـاً في أعماق الممشى ولكن دون أن يسعه تقدير مـا إذا كان يـدنو أم يبتعـد. وأوشك أن يناديه أو يومىء له على الأقل، ولكن الشكل البشري كان لا يزال في غايـة البعد. فحث الخـطى وكاد يـركض ويصرخ ليتوقف بأيّ ثمن هذا الرجل الذي بدا له في الحال يمثّل خلاصـاً له من هـذا الممشى الخالي من الأمل. ولما راح يمشي سريعاً وبخطىً متلاحقة أشبه بخطى العدَّاء إذ به يسمع وطء أقدام مثقل، في موضع ما إلى يساره. أبطأ مشيته وأصاخ سمعه إلى هـذه الخطوات تصدر عن رواق جانبي يفضي إلى الممشى وراحت تتردد أصداؤها منتظمة ومتوعدة.

التفت فإذا به يكشف جمعاً من الناس يمشون دون أن ينبسوا ببنت شفـة، حاملين في أيـديهم ملفـات ضخمـة أمـا أغلفـة هـذه الأخـيرة فكـانت من نفس اللون ـ الأزرق البـاهت المـائـل إلى الاخضرار ـ الذي اصطبغت به قبب المبنى وزي الحجّاب الرسمي.

وما أن التقى مارك ـ عالم الجمع حتى استخبرهم بصوت فزع:

ـ أيمكنكم أن تقـولوا لي، إذا سمحتم، من أين الـطريق إلى شعبة الانتقاء؟

ـ عـد على عقبيـك، أجابـه أحدهم بصـوت أجش. يـبـدو أنـك جديد هنا؟

وكان على مارك ـ عالم أن ينتظر حتى ينتهي الآخر من نوبة سعـال انتابته ليحـددوا له مكـان الشعبة الـذي يفرض عليـه أن يسلك الممر

الرابع ويتجه يميناً ليبلغ الدرج الذي يقوده إلى الطابق الثاني حيث ينبغي له أن يستعلم ثانية.

ـ شكراً سيدي، قال مارك ـ عالم.

ـ العفو، قال له الرجل المجهول.

ولما ابتعد قليلاً سمعه وقد شارف على الاختناق سعالاً وخلص إلى الكلام:

ـ أعتقد جازماً أن البرد أصابني بزكام.

واستغرق منه الوصول إلى مكاتب الانتقاء أكثر من ربع ساعة. كانوا ينتظرونه هناك.

ـ أهذا أنت؟ مارك ـ عالم؟ قال له أول مستخدم لقيه هناك، حتى قبل أن يتسنى له التفوّه بكلمة.

فأومأ له برأسه، إيجاباً.

وأضاف الآخر: تعال معي، القائد ينتظرك.

تبعه بطواعية. اجتاز بعض القاعات المتلاحقة، حيث يجلس عشرات المستخدمين وراء طاولات مديدة وهم منكبّون على ملفات مفتوحة، ولم يُبدِ أحدهم ازاءه أقل حشرية كما لم يلقوا اهتماماً بمرافقه الذي كانت خطواته تفرقع فرقعة على أرضية القاعة.

كان القائد جالساً وراء طاولة أبداً مثل الآخرين وملفان اثنان تحت ناظريه. عندئذ دنا الرجل الذي قاد مارك ـ عالم من مرؤوسه وأسرّ له بشيء في مسمعه. ولكن خيّل إلى مارك ـ عالم أن ذاك لم يكن قد سمع شيئاً إذْ تابعت عيناه التهام صفحة مسوّدة من أحد الملفين،

وساور مارك ـ عالم انطباع خاطف تـلامسه بـدقة نظرة القائـد الأشبه بموجة مائتة، بـان فيها حـدّاً غامضـاً لأمر مـريع، لا يمكن أن يكـون مركزه السطحيّ إلّا نائياً للغاية.

وأمِلَ مارك ـ عالم أن ينحني مرافقه من جديد على القـائد ليهمس لـه في أذنـه بنفس الكلمات ولكنَّ هـذا الأخـير لم يُبـدِ استعـداداً لأن يُهمس له في الظاهر. بل انتظر بهدوءٍ بالغ حتى أشاح قائده بنظره عن الملف الذي يستقصيه.

وطال ذلك الانتـظار. حتى ظن مارك ـ عـالم أنّ القائـد لن يرفـع نحوهما رأسه أبداً وأنّه سوف يـظل مركـوزاً هكذا سـاعات بكـاملها، وربما حتى ختام دوام العمل، أو حتى أبعد من ذلك.

وكـان صمت مطبق قـد خيّم مرة أخـرى. فلم يعد يُسمـع سوى حفيف طفيف صـادر عن الأوراق التي راح القـائــد يقلبهـا. وتبــين لمـارك ـ عالم في تلك الأثنـاء أنّ القـائـد كفّ عن القـراءة وأنّ نـظره انعطف عن الملف دون أن يحدّق في نقطة معينة. في/ظاهر الأمـر يبدو أنـه يتمعن في ما يقـرؤه. وامتدّ هـذا الوضـع حتىَ وازى الفترة التي استغرقها في القراءة. وأخيراً فرك عينيه كأنما شـاء أنْ يبعدَ عنهـما آخر حجاب ورفعهما نحو مارك ـ عالم.

وكانت الموجة الراعبة التي انحلّت بمجملها للتوّ، قد تلاشت نهائياً من عينيه.

ـ أهذا أنت الجديد؟

أومأ مارك ـ عـالم بحركـة من رأسه إيجـاباً، فقـام القائـد دون أن يضيف شيئـاً وتقدم بـين الطاولات الـطويلة فتبعه الاثنـان. واجتازوا

حجرات عديدة كان يخيل إلى مارك ـ عالم حيناً أنـه اجتازهـا، وحيناً آخر أنّه لم يرها من قبل.

ما ان لمح من بعيد، طاولة وراءها كرسي فارغة، وقد وضـع ملف مغلق على الطاولة، أدرك مارك ـ عالم أنّ هذا سوف يكون موضعه.

توقف القائـد في ذلك المكـان بالتحـديد وأشـار بإصبعـه إلى نقطة محدّدة ما بين الطاولة والكرسي الفارغة وقال له:

ـ ها هنا سوف تعمل.

تفحص مارك ـ عالم الملف المغلق ذا الغلاف المائل إلى الزرقة.

ـ لـدوائر الانتقـاء قاعـات كثيرة مثـل هذه، قـال له القـائد راسـماً بذراعه اليمين حركة فسيحة. إنّه أحد أهم الـدوائر في التبـير سراي. يظنّ البعض أن الدائرة الأساسية للتبير هي دائـرة التأويـل. ولكن لا شيء من هـذا القبيـل. رغم ذلـك يتبـاهى المؤوّلـون بـأنهم يشكلون ارستقراطية مؤسستنا. أما نحن المنتقين، فينظرون إلينا من علٍ، حتى لا نقول باحتقـار. ولكن عليك أن تـدرك أنّ ذلك محض غـرور مـن جـانبهم. أيّ امرىءٍ يملك درهمي فهـم يدرك جيـداً أنّه دوننـا، دون الانتقاء، يغدو التأويل جعجعة دون كلام حق. فنحن من يهبهـا كل مادتها الأولية اللازمة، ونحن من شكّل لها عامود الركن، وعلينا نحن يرتكز نجاحها.

ورسم حركة بيده وأضاف:

ـ أخيـراً. سوف تعمـل هنا ولسـوف تدرك ذلـك بنفسك. أظن أنهم زوّدوك بالتعليمات الأساسية. ولن أعدّد لك اليـوم، كل مهـامك

خشية ارهاقك منذ النهار الأول. لن أسرد عليك ما ينبغي لك أن تعرفه دفعة واحدة. فأنت سوف تتعلم الباقي شيئاً فشيئاً. هذه القاعة هي أولى قاعات دائرة الانتقاء.

وخطّ له القائد بيده حركة جديدة، نصف دائرة، وقال:

ـ ليكن معلوماً بيننا أننا ندعو هذه القاعة بقاعة العدسات، إذْ يتم ها هنا أول فرز للأحلام. وباختصار من هنا يبدأ كل شيء. هنا بالذات...

وطرف بعينيه كأنما ليستعيد خيط كلامه. وقال بعد مضي ثانية:

ـ أخيراً لمزيد من الدقة، يتوجب عليّ القول أنّ أول فرز يتمّ في شعب الدوائر الريفية. وثمة حوالى ألف وتسعمائه شعبة في أرجاء الامبراطورية كلها. ولكل منها فروعها الخاصة بها وتنظيمها حيث تترابط خلايا الفروع هذه، وقبل أن تُرسل الأحلام إلى المركز تُخضعها لفرزٍ أوليٍّ يكون غير كافٍ. أما الانتقاء الحقيقي فيبدأ هنا. وكما تُفصَل حبة الحنطة عن الزؤان هكذا تفصل الأحلام التي تمثّل قدراً من الأهمية عن تلك التي تشكل أهمية مطلقة. إنّه هذا الفرز، هذا التنظيف ما يكون جوهر انتقائنا مفهوم؟

وبات نظر القائد ينتعش أكثر فأكثر. فالكلمات كانت تأتيه في البدء، بصعوبة، ثم راحت تنساب بغزارة ويسر من شفتيه حتى لم يكن ضرورياً له أن يصوغ أفكاره، وأخذ يضاعف دفق كلماته بثبات كأنما ليسعه استخدامها جميعاً.

وتابع قائلاً: «في هذا جوهر عملنا بالتحديد: تخليص كل الملفات من الأحلام الخالية من الأهمية. إذْ تستبعد في البدء الأحلام ذات

الطابع الخاص، دون أيّ صلة مع الدولة. ومن ثم الأحلام التي يحدثها الجوع أو الشبع، البرد أو الحرارة، والأمراض إلخ... باختصار، كل الأحلام التي لها صلة بالجسد. وأخيراً الأحلام المصطنعة أو بمعنى آخر تلك التي لم يُحلم بها حقاً. إنما ابتدعها بعضهم أملاً في مركز أو حرفة أو قام بها مهووسو مغامرات أم محرّضون. وهذه الفئات الثلاث يجب أن تستبعد من ملفاتنا. ولكننا تسرعنا في قول هذا: إذْ أنّه ليس سهلاً أن تخرج هذه الأحلام بالذات من مكامنها.

يمكن أن يبدو الحلم ذا طبيعة حميمة محضة، أو تثيره دواعٍ مبتذلة، كالجوع أو داء المفاصل وخلافه، في حين أنّه يدل مباشرة على مسائل في الدولة، بل أصرح مما يتضمنّه خطاب سياسي أدلى به للتوّ عضو الحكومة هذا أو ذاك. ولكن يلزم للكشف عن هذا النضوجُ والخبرةُ. إذْ يكفي خطأ واحد في الحكم حتى يسير كل شيء في الوجهة المعاكسة. أتفهم؟ أكان الخطأ في كلمة أم في مئة، بعكس ما قد يتراءى لكثيرين، فإنّ نشاطنا عمل يعتمد على النوعية.

وما أن انصرف عن نبرة التهكم اللاّذع حتى راح يتحدث بصفاء شارحاً لمارك ـ عالم المهمة الملموسة التي سوف تكون مهمته. وكانت لا تزال في عينيه بعض آثار توتره السابق. ثم تابع قائلاً:

ـ خارجاً من هذه القاعة ثمة قاعات أخرى، كما وسعك أن تلاحظ بنفسك. وحتى تلم جيداً بالعمل الذي سوف يناط بك عليك أن تمضي يوماً أو يومين في كل منها. وبعدئذ حين تكوِّن فكرة اجمالية عما هو الانتقاء، تعود إلى هنا، حيث قاعة العدسات. ولسوف يتبيّن لك عملك في غاية السهولة قياساً إلى المهام السابقة، ولكن لن يتسنّى

لك ذلك قبل الأسبوع القادم أما اليوم، فسوف تباشر عملك هنا.

وانحنى فوق الطاولة ودفع الملف نحوه ثم فتح غلافه المزرق.

ـ إليك بملفك الأول إنّه يحوي مجموعة من الأحلام التي بلغتنا في التاسع عشر من تشرين الأول، تمعَّن في قراءتها، وحاذر أن تتسرع في ذلك. وحين ترى أن هذا الحلم أو ذاك يمكن ألّا يكون مختلقاً، دعه في الكدسة نفسها، ولا تستعجل استخراجه منها. إذْ يليك فارزٌ آخر أو مراقب ثان إنْ شئنا أن نعطيه تسمية راهنة؛ وتقضي مهمته بأن يصلح إهمالك ويأتي بعده دور المراقب التالي وهكذا دواليك. والحق يقال إنّ كل من تراهم في القاعة لا عمل لهم سوى هذا. إذاً، حظاً سعيداً.

وظل دقائق معدودة بعد محدِّقاً في مارك ـ عالم ثم التفت ومضى. وظل هذا الأخير للحظة جامداً في مكانه، بعدئذٍ جهد في أن ينقل بطيئاً، ودون أن يحدث أيّ ضجّة الكرسيَّ قليلاً وانسل بين الكرسي والطاولة، وجلس بالتأني المبالغ نفسه.

صار لديه الآن هذا الملف المفتوح أمامه. وتلك كانت أمنيته وأمنية عائلته وقد تحققت على خير وجه. فقد عُينِّ في التبير سراي وها هو جالس حتى على كرسي وراء مكتبه، موظفاً حقيقياً في القصر الغامض. انثنى قليلاً على الملف، حتى أمكن عينيه أن تتميزا الحروف وراح يقرأ بتمهل. وكان قد دُوِّن على الورقة السميكة رقم الملف والتاريخ. وقد ذُيِّل بهذه الملاحظة: «مباح إلى «سركرله» ويتضمن ثلاثة وستين حلماً».

وبإصبع مخدرة قلب الورقة. وبخلاف الأولى كانت الورقة الثانية

قد ملأها نص كثيف. وقد خُطَّ تحت الأسطر الثلاثة الأولى بالحبر الأخضر ومنفصلة قليلاً عن سابقتها، وقرأ: «حُلْم، حَلِم به المستخدم يوسوف، من مكتب البريد في «الأدجيهيسار» في المقاطعة الفرعية «كيركيلي»، من أعمال ولاية «كوستانديل»، في الثالث من أيلول المنصرم، قرابة الفجر».

رفع عينيه عن النص المشار إليه. وفكر في ٣ أيلول، ذاهلاً قليلاً. أمن الممكن أن يكون ذلك قد تم حقاً، وأن يصير اليوم موظفاً في التبير سراي، متبوّئاً عمله، يقرأ حلم يوسوف، من مكتب البريد في «الادجيهيسار»، في المقاطعة الفرعية «كيركيلي»، من أعمال ولاية «كوستانديل» مقرراً مصيرهُ ويفصل في ما إذا كان الحلم قد يرمى بسلة المهملات أو يدخل في عداد الأحلام الفريدة حتى يتمّ تحليله، في آلية التبير العظيمة؟

وشعر بارتعاش فرح يجوز صلبه. وأخفض ناظريه وراح يقرأ: «ثلاثة ثعالب بيضاء على مئذنة الجامع الخاص في مقاطعة...»

وبغتة راح يرتجف. كان ثمة جريسة أخذت تطن. رفع رأسه كأنما رُبت على كتفه. نظر إلى يساره، ثم إلى يمينه وظل مذهولاً.

كل هؤلاء الناس الذين بدوا إلى حينه متّحدينْ بكراسيهم اتّحاداً ناجزاً، كأنّما الملفات المفلوشة أمامهم تمغنطهم، انتُزعوا بغتة من هذه الفتنة. وجعلوا يقومون ويتكلمون، ويُحرِّكون كراسيَّهم بضجة لافتة، في حين واصل طنين الجريسة يسري على امتداد القاعات.

ـ ما هذا؟ سأل مارك ـ عالم. ما الذي يحدث؟

ـ إنها استراحة الصباح، أجابه جاره (ولكن أين كان هذا الجار

مختبأ؟) وكرر له القول إنها استراحة الصباح. أما مارك ـ عالم فكان يريد أن يتابع قراءته. غير أنّ ذلك كان مستحيلاً له. إذْ تدافعه المستخدمون وجرّوا كرسيه قليلاً. ورغم كل شيء ومسوقاً بعناده، انحنى ثانية باتجاه هذا الملف الذي بات يجذبه كالمغنطيس. ثلاثة ثعالب بيضاء. . . . إلاّ أنّه في هذه الأثناء سمع صوتاً في أذنه يقول له:

ـ إلى الأسفل، ثمة قهوة، وسحلب. تعال، قد تجد شيئاً يروق لك.

لم يتسنَّ لمارك ـ عالم قطّ أن يتميز وجه محدِّثه. فقرر مع ذلك أن يقوم عن كرسِّيه، وأطبق غلاف ملفّه وتوجّه مثل الآخرين ناحية المدخل.

في الممشى لم يحتج أن يستفهم عن الاتجاه الذي يجب سلوكه. كلهم كانوا يسيرون في اتجاه واحد. وراحت تتدفّق جموع الناس من الممرات الجانبية، بحيث غصّ بهم الممر الرئيسي، واختلطت بهذا المدّ البشري. وهم يتقدمون كتفاً إلى جنب كتف. وهالته جموع المستخدمين المحتشدة في التبير سراي. كانوا هنا مئات وربّما آلافاً حتى.

تعاظمت ضجة الخطى، وبالأخص على الدرج. وبعد أن هبطوا طابقاً، اجتازوا ممشى مستقيماً، ثم عاودوا النزول، وسجّل أنّه لدى كل مقطع درجات تصير النوافذ أضيق فأضيق. وخيِّل إليه أنهم ينحدرون باتجاه طابق سفلي ما. وفي هذه الأثناء كانت لا تزال الجموع متراصة بعضها إلى بعض. وقبل أن يبلغ إلى المشرب بكثير، وسعه أن يلتقط نكهتي القهوة والسحلب المميزتين. وهذا ما يذكره

بالفطور في منزله الفسيح. وشعر بأن نفحة من الفرح جديدة تجتاحه. ورأى من بعيد المباسط الطويلة وخلفها عشرات من الخدم يمدّون طاسات القهوة وقصعات السحلب وهي تدخن. وترك نفسه يتدافع باتجاه هذه المباسط. وفي الضوضاء، كان يمكن المرء أن يتميّز الوضع الطفيف لأولئك الذين يرشفون قهوتهم أو نقيعهم، كما تسعيلات، وطنين العملة المعدنية. خطر له أن عدداً كبيراً من هؤلاء كان مزكوماً أو ربما كانوا بحاجة بعد عدة ساعات من الصمت أن ينقّوا حناجرهم قبل أن يتكلموا.

مدفوعاً بقوة إلى رتلٍ، وجد نفسه محجوزاً في جدار أحد المباسط دون أن يقوى على التقدم أو التراجع. وشعر أن آخرين يمرّون قبله، مادين أيديهم فوق رأسه ليمسكوا بطاسة أو ليدفعوا، ولكنه أصرّ على أن لا يتخلّ عن هدوئه. والواقع أنّه لم يكن جائعاً ولا عطشاناً. بل لبث ها هنا كأنما حَجَر عليه الحشد، لا يهمه من هذا سوى أن يفعل مثل الآخرين. وارتفع صوت من خلفه يقول:

ـ إن لم تتحرك لن يكون لك شيء تشربه. دعني أمرّ على الأقل!

وسرعان ما تنحّى جانباً. إنما الآخر الذي بدا مأخوذاً في الظاهر بإلحاحه في ما يريد، التفت نحو مارك ـ عالم بحشرية، فظهر ذا وجه متطاول، مائلٍ إلى الاحمرار ووجنتين كبيرتين كوجنتي الولد السمين وراح يحدق فيه متأملاً لبعض الوقت.

ـ عيّنت لتوك؟

فأومأ له مارك ـ عالم برأسه أن نعم.

ـ هذا بادٍ عليك.

وتقدم خطوتين باتجاه المبسط ثم التفت نحوه قائلاً:

ـ ماذا تأخذ، ؟ قهوة أو سحلب؟

أوشك أن يقول لا شيء، شكراً ولكن هذا بدا له غير لائق بتاتـاً. فهـو لم يبقَ هنا ليفعـل ما يفعله النـاس جميعاً ولا يسعى ليلفت انتبـاه أحد.

فهمس لـه: «قهوة» بيـد أنّه لم يتـوصل إلى إبـلاغه بـطلبـه سـوى بمحض تحريك الشفتين.

وأجـال يده في غـور جيبه بحثـاً عن قطعـة نقد صغـيرة، ولكن في غضون ذلك، حثّـه صديقـه الجديـد على الالتفـات نحوه متعقبـاً إيّاه وكان قد بلغ المبسط. ولما كان مركوزاً هنا ينتظره أخذت تتناهى إليـه رغـماً عنه مقتـطفات من أحـاديث راح يتبادلهـا أولئك المحيـطون به. وكانت أشبه بقطع قيد الطحـن تحت رحى كبيرة. مع ذلـك أمكنه أن يلتقط وسط الضوضاء بعض كلمات، أو بـالأحرى جمـلاً كاملة كـانت أفلتت من الجعجعة إلى حين، ذلك أنَّ الرحى لن تلبث أن تطحنها في دورتها التالية. أرهف السمع فأذهله ما يتبادلون. إذْ لم يكن مـوضوع أحاديثهم ليمُتَّ بصلة تُذكَر إلى شؤون التبير سراي. بـل كانت مجـرد أقوال حول مواضيع غير ذات قيمة، وفي غاية الابتذال، عن الطقس البـارد الذي يخيم في الخـارج، وعن نوعيـة القهوة، وسبـاق الخيـل، واليانصيب الوطني ومـرض الوافـدة الذي يجتـاح العاصمـة. إلاّ أنهم كانو يلزمون صمتاً مطبقاً حول ما يحـدث في هذا المبنى. حتّى لـيرتاب المـرء في أمر هؤلاء فيُخيَّـل إليـه أنهم يعملون في سجـل للمسـاحـة، أو يقومون بأعمال مكتبية في إحدى وزارات الـدولة غـافلين عن كونهم

موظفين في قصر الأحلام الشهير، المؤسسة الأشد غموضاً في الامبراطورية.

ولمح مارك ـ عالم صديقه الجديد وهو يحاول أن يتخلص من الجمهرة المحتشدة، ممسكاً بعناية طاسة قهوة في كل يد.

ـ أيّ ضجر هذا، قال، أنْ تجبر على البقاء هنا في الصف.

ودون أن يمدّ إحدى الطاستين إلى مارك ـ عالم، راح يتنقل بنفس الحركات الحذرة، باحثاً عن طاولة شاغرة بين العشرات أو المئات التي كانت مجهّزة في الطابق تحت الأرض. عاريةً وبغير كراسٍ، ما كانت هذه الطاولات لتفيد المستهلكين سوى في اتكائهم عليها، وبالأخص في وضع طاساتهم الفارغة عليها.

ولمّا كان لا يزال ماسكاً بكل يد طاسة قهوة لمح الرجل أخيراً طاولة شاغرة فوضع عليها الطاستين.

حينئذٍ مدّ مارك ـ عالم نحوه، خجلاً، قطع النقود الصغيرة التي طال احتفاظه بها في قبضته المشدودة. فبادره الآخر بإيماءة رافضة قائلاً:

ـ أوه، إنه لأمر تافه.

ـ شكراً!

أمسك مارك ـ عالم طاسة القهوة بيد، ممسكاً باليد الأخرى قطعة النقد النحاسية الصغيرة.

وسأله رفيقه:

ـ منذ متى عيّنت؟

ـ اليوم بالذات.

ـ حقاً؟ تهانينا! إذن، أنت محق في. . . وجعل ينهي كيفما اتّفق ثم رفع طاسته إلى شفتيه.

وبعد قليل سأله:

ـ وفي أي شعبة؟

ـ في الانتقاء

فردد الأخير بنبرة المدهوش «في الانتقاء؟» وتطلق وجهه وقال:

ـ عجباً! لقد بدأتَ جيداً، عادة يبدأ كل امرىء في هذه الحرفة من شعبة الاستقبال، وأحياناً يبدأ أوطأ في مكاتب النسّاخ.

ألحّت على مارك ـ عالم رغبة مفاجئة في معرفة المزيد حول التبير سراي. وكان قد أصاب تحفظه نوع من الصَّدع فسأل الآخر:

ـ شعبة الانتقاء هي شعبة هامة. أليس كذلك؟

تفحصه الآخر بانتباه.

ـ نعم، هام جداً. وبالأخص بالنسبة لشاب. . . .

ـ كيف هذا؟

ـ أعني بقولي؟ إنّه هام بالأخص لموظف معيّن لتوه، أفهمت؟

ـ وبشكل عام؟ ليس فقط بالنسبة لشاب، ولكن بعامة؟

ـ نعم طبعاً. . . وبعامة أيضاً ينظر إليها الموظفون على أنّها شعبة مصيرية. حتى أنني يسعني القول بأنّها تقع في المقام الأول.

وها هو مارك ـ عالم بدوره حالياً يطرف عينيه نحوه.

ـ من الطبيعي أن يكون ثمة شُعَب أهم بعد. . .
ـ التأويل مثلاً؟

فما كان أنْ أبْعَدَ الآخر طاسته عن شفتيه، منذهلاً.

ـ عجباً، ما تبديه لا يدل على أنك مبتدىء، قال ذلك مبتسماً، في يومك الأول، عرفت أُموراً لا بأْس بها!

أوشك مارك ـ عالم أن يبادله الابتسام، وسرعان ما أدرك أنّ ذلك خفة لن يجيزها لنفسه بعد. فقوقعة الملاّح التي غطت وجهه هذا الصباح العجيب لم تكن قد ذابت.

ـ طبعاً، التأويل هو أساس التبير سراي، أضاف الآخر. إنه بمثابة المركز العصبي من جسم التبير، بل دماغه إذا صحّ التعبير، إذْ به يتخذ كل نشاط الشُعَب الأخرى معناه: عملهم في التحضير، وجهودهم. . .

ظلّ مارك ـ عالم مصغياً إلى كلامه وكأنما تولته الحمى.

ـ أيكونون هم من يدعونهم بأرستقراطيّي التبير؟

غضّن الآخر شفتيه متفكراً وقال:

ـ نعم، تماماً. أو إن لم يكونوا هم أرستقراطيي التبير فأدنى إلى هذا القبيل. . . حتى أنه مع ذلك. . .
ـ ماذا أيضاً؟
ـ لا يذهب بك الظن أنّه ليس ثمة آخرون أعلى منهم.
ـ ومن هم هؤلاء الآخرون؟ سأله مارك ـ عالم مندهشاً من جرأته نفسه.

تفحصه رفيقه ملياً وقال:

ـ التبير سراي هو أكبر مما يبدو، على الدوام.

وكان مارك عالم شاء أن يسأله عما يقصد بهذا، ولكن خشيته من أن يمضي بعيداً جداً نهته عن ذلك. وأضاف الآخر:

ـ إلى التبير العادي، ثمة التبير سراي، الذي يهتم بتحليل الأحلام التي لا يبعث بها الناس بأنفسهم، بل تتكفل الدولة بنقلها عبر وسائلها الخاصة وأساليبها المعتمدة ولا يُخفاكَ أن تلك شعبة لا تقل أهمية عن التأويل.

ـ طبعاً، قال مارك ـ عالم، مع أنّ...

ـ ماذا؟

ـ كل الأحلام تلك التي ترسل عفوياً وتلك التي يجمعها التبير سراي على حد سواء، ألا تنتهي كلها إلى التأويل؟

ـ الواقع أنّ كل الشعب مضاعفة، أي أنَّ لها استعلامات في التبير العادي وفي التبير سراي في آن معاً، وحدها شعبة التأويل فريدة بالنسبة لمجموع التبير سراي. رغم كل شيء فإنّ هذا لا يعني أنّ الشعبة الآنفة تتخذ لها المقام الأعلى في تراتبية التبير السرّي، بوضعه الحالي.

ـ ولكن ربما ليس أدنى منه مقاماً بالمطلق؟

ـ ربما، قال الآخر، في الحقيقة، يوجد بينهما نوع من المنافسة.

ـ حاصل الكلام، هاتان الشعبتان تشكلان ارستقراطية التبير.

تبسّم الآخر.

ـ طالما أنت متمسك بهذه الصيغة، فلنقل إنه هذا تقريباً.

واستفظ قـاع طاسـه مرة أخـرى، رغم أنها فرغت من أيّ سـائـل وأضاف:

ـ ولكن لا تـظنّن أن هؤلاء يشكلون القمة، بـل ثمة آخـرون بعد أعلى منهم.

حدّق به مارك ـ عالم ليتأكد إنْ كان يمازحه أو يتكلم جدياً.

ـ ومن هم هؤلاء؟

ـ المأمورون لدى الحلم الأقصى.

ـ ماذا؟

ـ المـأمـورون لـدى الحلم الأقصى. شعبـة الحلم الأقصى أو الحلم النموذجي كما يدعى منذ بعض الوقت.

ـ أيّ شيء هذا؟

خفض الآخر صوته.

ـ ربما لا نحسن صنعاً إن تحدثنا بشأن هذه الأمور، ولكن على أيّ حال، أنت صرت أحد رجال التبير. زد على ذلك أن هذه المسائل لا تخص في العمق، سوى التنظيم، والإدارة، ولا أظن أن في هـذا سرّاً نُفشيه.

فوافقه مارك ـ عالم وقال:

ـ وهذا بالضبط ما أعتقده أنا أيضاً.

ولما كان عجز عن كبت رغبته في معرفة المزيد، سأله بليونة لافتة:

ـ أرجوك حدثني بعد عن هذا. فأنا بتُّ من البيت تقريباً. ووالدتي من آل الكوپريلي.

ـ من آل الكوپريلي؟

أما الدهشة التي ارتسمت على قسمات محدثه فلم تفاجئه. بل كانت ردَّة فعل اعتادها كلما تعرَّف أحد أُصول عائلته.

ـ منذ أن قلت لي بأنك عُيِّنت مباشرة في شُعبة الانتقاء حزرت بأنك يجب أن تكون من عائلة مقربة من الدولة، ولكنني أصارحك بأنني لم أفكر في مرتبة بهذا السموّ.

ـ إنها والدتي التي ولدت على اسم كوپريلي، قال مارك ـ عالم مجدداً، أما أنا فأحمل اسماً آخر.

ـ لا يهم. فالأمر سيَّان.

وجعل مارك ـ عالم يتفحصه.

ـ حدثني بعد عن الحلم الأقصى. . .

فتنشق الآخر عميقاً، ولكنه، كما لو أنَّه حسب أن كمية الهواء التي ابتلعها كانت في غاية الضخامة نسبة لحجم الصوت الضعيف الذي قد يصدره، لَفَظ جزءاً منه قبل أن يباشر الكلام.

ـ تعرف، ربما يحدث أن في كل جمعة، نختار من بين الآلاف والآلاف مُن الأحلام التي تبلغنا والتي حسبناها الأهم بكثير، حتى يصار إلى تقديمها للسلطان أثناء احتفال دون بهرجة، بحسب تقليد في غاية القِدَم. إنَّه الحلم الأقصى أو ما يسمى أيضاً النموذجي الرئيس.

ـ لقد سمعت بذلك النوع من الأحلام، ولكن بصورة غامضة للغاية، كما لو أنه حكاية.

ـ وبعد، ليس هذا حكاية، بل هو الواقع بعينه، إذْ يشتغل فيه مئات المأمورين من أجل الحلم الأقصى. . .

تمهل نظره عليه طويلاً وتمتم بعد برهة:

ـ أيسعنا أن نتخيَّل أن حلماً كهذا، مع علاماته المنذرة ذات الأهمية القصوى، يكون أحياناً لدن العاهل أثمن بكثير من جيش بعساكره، ومن جمهرته الدبلوماسية قاطبة؟

وراح مارك ـ عالم يصغي فاغراً فمه وتابع الآخر:

ـ هلاّ أدركت الآن السبب الذي يجعل وضع مأموري الحلم الأقصى أعلى مرتبة من وضعنا جميعاً؟

فقال مارك ـ عالم في سره:

ـ أيّ آلية هائلة هذه! نعم، لقد كان التبير سراي حقاً شيئاً أكبر مما يسع المرء تخيله.

وتابع الآخر قائلاً:

ـ لا يراهم الناس أنّى كان. إنما يتناولون قهوتهم حتى أو سحلبهم في موضع ما جانباً.

ـ جانباً... ردّد مارك ـ عالم.

وما أن فتح الآخر فمه بعضَ الشيء متابعاً شروحه حتى فاجأهما طنين الجرس الذي أعلن انتهاء استراحة الصباح. فانبتّ بغتة كل حديث حولهما.

لم يتسن لمارك ـ عالم أن يسأله عما يعني هذا الجرس، إذ ساد الهدوء التام مباشرة بعد ذلك. ولم يكن طنين الجرس قد توقف بعد، حتى أخذت جموع الناس المحتشدة تتدافع باتجاه المداخل. أولئك

الذين لم يكونوا أتمّوا بعد شراب ما وُضِع لهم راحوا يكرعون طاساتهم وكؤوسهم دفعة واحدة، وآخرون كان صُبَّ لهم للتوّ على المبسط، ولم يتمكنوا من شربْ قهوتهم التي بدا يصّاعد البخار منها، بل تركوها على الطاولات وانسحبوا إلى الفوضى. وكان رفيق مارك ـ عالم قد صمت بغتة وحيّاه بإيماءة من رأسه وأدار له ظهره ومضى. وفي هذه اللحظة الأخيرة أشار إليه مارك ـ عالم بأن يتوقف، ليطرح عليه سؤالاً في غاية الأهمية، غير أنه ألفى نفسه في تلك البرهة، عرضة للتقاذف يمنة ويسرةً، فتَاهَ عن بصره. وفي أثناء خروجه، تابعاً بصورة آلية تيار الجموع تنبّه إلى أنه نسي أن يسأل رفيقه عن اسمه. وقال في سره نادماً: لو أنني سألته عن الشعبة حيث يعمل على الأقل. ثم طفق يتعزّى متفكراً في أنه ربما وجده غداً، أثناء استراحة الصباح، وأنه سوف يتاح لهما فرصة التحدّث ثانية.

بعد أن تقلّصت حشود الموظفين، حاول أن يتعرف أحد الوجوه التي التقاها في شعبة الانتقاء، ولكن عبثاً. وكان عليه أن يسأل مرتين عن الطريق التي ينبغي سلوكها للوصول إلى مكتبه. ودخل أخيراً إلى المكتب بخطى صامتة، جاهداً في أن لا يلحظه أحد. وكانت آخر ضجة تصدر عن كراسٍ منقلةٍ، هي الضجة من حوله. فالمستخدمون كانوا قد حلوا كلّهم تقريباً خلف الطاولات الطويلة، وبلغ موضعه على أصابع رجليه، جذب نحوه كرسيه وجلس عليها. وظلّ هكذا جامداً للحظات، ثم أخفض ناظريه إلى ملفه وراح يقرأ: ثلاثة ثعالب بيضاء على قبة مسجد (النيابة ـ الإدارة)....

ولكنه رفع رأسه فجأةً وكان خيل إليه أن أحداً يناديه من بعيد جداً، وعبر اشارة غريبة، وضعيفة للغاية ونائحةٍ حتى، شبيهة بنداء

استغاثة أو بنشيج. ما هذا؟ سأل نفسه وما لبث هذا التساؤل ان اجتاح كيانه كله. ودون أن يدرك سبباً لذلك مالت عيناه ناحية النوافذ الكبرى، كانت تلك المرة الأولى التي يتأملها فيها. وخلف مربعات النوافذ التي كانت بمثابة العنصر الأليف له والبعيد عنه في آن، إذ يهطل المطر، مختلطاً بندائف ثلج رقيقة. كانت الندائف تهوِّم زائغةً في هذه الصبيحة النائية، بدورها أيضاً، كأنما تنتمي إلى حياة أخرى من حيث أرسلت له ربما إشارة في غاية الأهمية.

أمال عينيه مع شعور غامض بالذَنْب، وغَاص تفكُّره في الملف، ولكنه قبل أن يباشر قراءته تنفس الصعداء وقال: آه، يا إلهي!

الفصل الثاني

الانتقاء

كان ذلك بعد ظهر ثلثاء. والمكاتب توشك أن تـوقف العمل بعـد ساعة. أمـال مارك ـ عـالم نظره عن أوراقـه وفرك عينيـه. كان مضى أسبـوع على بـداية عمله ولكنـه لمّا يتـوصّلْ بعـد إلى احتـمال القـراءة المتواصلة. إلى يمينه حرّك جاره كرسّيه، دون أن يحيد عن القراءة قيـد أنملة. ولبث يُسمـع على الـطاولـة الممتـدَّة حفيف الأوراق التي لا تني تُقلَّب بانتظام. أما المستخدمـون فكانـوا بأجمعهم مشـدودة عيونهم إلى ملفاتهم. كان الشهـر تشرين الثاني والملفـات ما بـرحت تتكثّف يومـاً بعد يوم، إذ أن دفق الأحلام في هذه المرحلة من السنة غالباً ما يميل إلى التضخم، وكـانت تلك إحـدى المعـاينـات التي أمكن مـارك ـ عـالم استخلاصها في غضون الأسبوع الأول. فـالناس لا يـزالون يحلمـون ويبعثون بأحـلامهم. ولسوف يـظل الأمر هكـذا إلى المنتهى، على أن أعدادها تتفاوت من فصل إلى آخر. وقد بـدت هذه الأحـلام في فترة صـاعـدة بحيث تـدفقت عشرات الآلاف من الـرسـائـل من جهـات الامبراطورية قاطبـة. وربّما استمـر هذا الإيقـاع على حـاله حتى آخـر السنة، إلى أن تنتفخ الملفّات، وتنتفخ بلا هوادة في حـين يروح الـبرد يشتـد قسـاوةً. ثمَّ، مـا أن يمضي رأس السنـة حتى تشهـد الأحـلام ارتداداً حتى الربيع.

رمى مارك ـ عالم جارَهُ اليمين ثم جاره اليسار بنظرة خاطفة، أكانا يقرآن حقاً أم يتظاهران بذلك؟ أطبق يده اليمنى على صدغه وأخفض عينيه على الورقة الموضوعة أمامه، ولكنه بدل أن يرى حروفاً خيّل إليه أنه يرى محض ذبابات تائهة وسط رسم رمادي. كلّا، كان يستحيل عليه أن يتابع القراءة. أما أولئك الذين أبقوا رؤوسهم حانية على ملفاتهم، فعلى الأرجح أنهم لا يقرأون جميعهم، بل إن كثيراً منهم يتظاهرون بالقراءة. كان ذلك حقاً عملاً جهنمياً.

وإذ تغضن جبينه في راحة يده، جهد في تذكر ما كان سمعه خلال هذا الاسبوع من أفواه موظفي الانتقاء القدامى، بشأن مدّ الأحلام وجزرها، وبشأن التبدّلات التي تطرأ على عددها بحسب الفصول والهواطل والحرارة والضغط الجوّي ورطوبة الهواء. وهذا ما يلمّ به جيداً محنّكو شعبة الانتقاء. فهم يعرفون الكثير عن تأثير الثلج والرياح أو الصواعق على كميّات الأحلام، كما لا يجهلون البتة دور الهزّات الأرضية وخسوف القمر، أو ظهور المذنّبات. ومن الأكيد أن شعبة الانتقاء تضمّ إلى صفوفها أساتذة مدهشين في تحليلهم الأحلام، وعلماء ثقة يجيدون الكشف عن معاني لا يقل إيغالها في الغرابة عن قدر احتجابها وراء الرؤى، إذ لا تلتقط العين المجرّدة سوى خربشات الدماغ المتهافتة. مع ذلك لا يجدنّ المرء في أيّ شعبة من شُعب التبير سراي الأخرى، من بين المستخدمين جميعاً مجرّبين عتاقاً كمثل قدامى شعبة الانتقاء قادرين على التكهن بخصب الأحلام أو قحطها بأسهل مما يحدس به عجائز العامة، إبّان آلام مفاصلهم، بأن الزمن صائر إلى فساده.

فجأة، فكر مارك ـ عالم بهذا الرجل الذي كان تعرّفه أول يوم

عمل له. أين يمكن أن يكـون؟ ومنذ أيـام عديـدة، أثناء الاسـتراحة الصباحية، كان جهد في البحث عنه بعينيه بـين جمهور المستخـدمين، ولكنه لم يلمحه أنّى كان. لربّما كان يعاني مرضاً ما؟ يتسـاءل في سره. ويمكن أن يكون أُرسِل أيضاً في مهمة إلى مقاطعة بعيـدة، ولربمـا كان أحـد مفتشي التبـير سراي من أولئـك الـذين يقضـون نهارهم كله في تنقلات رسمية بين جهـات الامبراطوريـة الأربع. إلى ذلـك يمكن أن يكون مجرَّد ساعٍ.

وذهب بـه الفكـر إلى تخيـل آلاف شُعَب التبـير سراي المنتشرة في أرجـاء البلاد كلهـا، وفي الأبنية الجـامعة، وأحيـاناً الأكـواخ المتبذلـة تـأويهم إلى جانب اثنـين أو ثلاثـة من مستخدميهـم الأكثر تواضعـاً منهم، والأشد عوزاً، وغير المعوَّض عن أتعابهم، الذين ينحنون حتى الأرض لـدى رؤيتهم أحقـر رسـولٍ من قبـل التبـير سراي وهـو آت ليحمل معه الأحلام المجموعـة، زاحفين أمـامه ومتلجلجـين لا لشيء إلّا أنه المبعوث الرسمي من المركز. وفي بعض المناطق النـائية، يشرع سكان المقاطعات الفرعية في السير قبيـل الفجر، في الأصبـاح الماطـرة وعلى الطرقـات الموحلة، بـاتجاه الشُعَب الكئيبـة في سبيل أن يبصرهم مـوظفوهـا بأحـلامهم. ودون أن يتجشموا طَـرق البـاب، ينـادون من الخارج: «حاجِّي هلاّ فتحتَ؟».

ولما كانت غالبيتهم لا تعرف القراءة والا الكتابة، ولما كانوا يخشون أن ينسوا أحلامهم، كانوا يأتـون إلى هنـا في وقت مبكر جـداً، وحتى قبل أن يرشفوا قدحـاً صغيراً في الحـانة المجـاورة. ويروحـون يروون شفـاهةً، في حـين يمضي الناسـخ ذو العينـين النـاعستـين في تسجيـل أقوالهم، ولا يني يشتم الحلم وصباحه. «آه، لقد شاء الله أن يسعدنا

هذه المرة!» ويـروح يتنفس بعضهم الصعداء، آن ينتهي النـاسخُ من تدوين حلمهم كتابةً. ذلك أنه شاعت منذ زمن بعيد حكـاية مفـادها أنّ صعلوكـاً من إحدى المقـاطعات الفـرعية المنسيـة، كـان قـد انقـذ الدولة من كارثة مـريعة، بفضـل حلم له رواه لأحـد العمّال. فـدعاهُ العاهِل إلى العاصمة من أجـل أن يكافئـه، وأقامـه في قصره ثم رجاه أن يختار ما يحلو لَهُ من الكنوز الموفورة أمامه، حتى أنـه أهداه إحـدى بنات أخيه زوجةً له إلخ. . . «عسى الله أن. . .» ويستمرون بالدعاء والابتهال قبل أن يقفلوا عائدين في الطريق الموحلة، قـاصدين الحـانة بالتأكيد، بينما يلبث النـاسخ يـلاحقهم بنظرتـه الهازئـة، ثم يعمد إلى تسجيـل ملحوظـة «غير ذي قيمـة» حتى قبل أن يبلغ هؤلاء منعـطف الطريق.

رغم الأوامر الصارمـة بإغفـال أيّ رأي مسبق وأيّ اعتبار شخصي في تقـدير الأحـلام، فقد ظلّت الـطريقـة إيّـاهـا التي يعتمـدهـا المستخدمون، إذْ يباشرون فرز المواد المطروحة عليهم فرزاً أولياً. فهم أدرى النـاس بسكان المقـاطعـات الفـرعيـة. حتى أنـه بمقـدورهم أن يـدركوا طبيعـة الوافـد إليهم حديثـاً حتى قبل أن يـطأ عتبة مكتبهم، فيتميزونه معربداً، أو سكيـراً، أو عالـةً أو ذا قرحـة. ولطالمـا أحدث هـذا الأمر شقـاقاً وخـلافات، إلى أن تَقَـرَّر لسنوات خلت أن تحـرم الشُعَب المحليـة من كفايـة هذا الفـرز الأولي. غير أن كميـة الأحلام المرسلة مباشرة إلى الانتقاء كانت من الكـثرة بحيث تأجـل اتخاذ هـذا التدبيـر، برغم العواقب التي قد تنجم عن هذا الفرز الذي تقـوم به الشُعَبُ المذكورة ذاتها. بل عـادت الشُعَبُ هذه إلى الاستئثـار بالفـرز الأولي، بعد أن عجز المعنيون عن حلّ المسألة.

وبالطبع، فإن صانعي الأحلام يجهلون كلّ هذه الخفايا. إذْ هم يتردّدون بين الفينة والأخرى، على منازل موظّفي الشُعَب، فيسألونهم من عتبة الباب: «إيه حاجّي، ألم يأتك خبر عن حلمي؟» فيجيب حاجّي: «لا، ليس بعد. أنت فاقد الصبر، يا عبد القادر! ثم إن الامبراطورية باتساع الدنيا، والإدارة المركزية لا تقوى على تفحص جموع الأحلام التي تُرسل إليها، رغم اشتغال موظفيها بها ليلاً نهاراً». فيجيبه الآخر منقلاً بصره في الأفق، بالاتجاه الذي تقع فيه الإدارة المركزية، على حدّ ظنه: «نعم، أكيد، صدقت. فنحن ما عسلنا أن نفهم شيئاً من أمور الدولة؟» ثم يمضي جارّاً قبقابه الخشبي في الطريق التي تؤدي إلى الحانة.

كان مارك ـ عالم قد ألمّ بكل هذه الأمور بالأمس، إذْ رواها له أحد مفتشي التبير سراي الذي كان دعاه إلى شرب قهوة الصباح. والمفتش الأخير كان عادَ لتوه من ولاية آسيوية نائية وهو يتهيأ للإنطلاق هذه المرة إلى الجزء الأوروبي من الامبراطورية. وقد أذهلت روايتُه مارك ـ عالم. أيُعقل أن يبدأ كل شيء بهذه الطريقة المتبذلة؟ غير أن المتفش الذي حزر مقدار الخيبة التي قد تصيب مارك ـ عالم جهد في أن يفسر له أن الأمور لم تكن لتحدث أنّى كان بالطريقة نفسها، وأنه غالباً ما اتخذت شُعَب التبير سراي مراكز لها أبنيةً صلبةً في أكثر المدن الآسيوية والأوروبية نفوذاً وحضوراً، وأن أولئك الذين قدموا حاملين أحلامهم لم يكونوا جميعاً من بائسي الولايات ليّني العريكة، بل شخصيات من أعلى المراتب من حاملي الألقاب والدرجات والشهادات الجامعية، من ذوي فكر نافذ وطموحات واسعة. وراح المفتش يفصّل له الكلام على هذا المظهر، حتى انتاب

مارك ـ عالم شعور بأن التبير سراي آخذ في استعادة موقعه الجليل الذي طالما احتله في نفسه. ثم طفق المفتش يروي له فصولاً أخرى من رحلاته، ولكن طنين الجرس قطع عليه حديثه، تاركاً مارك ـ عالم وهو يجهد في تخيل خاتمة لها. فتفكر في الشعوب التي تعيش إلى الجانب الأيسر من الامبراطورية وفي الشعوب التي تقطن جانبها الأيمن، وفي الشعوب التي تصنع كثيراً من الأحلام وفي تلك التي تصنع أقل، وفي الشعوب التي تروي أحلامها عفو الخاطر، كما في الشعوب التي تتحفظ إزاءها مثل الألبانيين (ذلك ان ذهن مارك ـ عالم المتعلق بجذوره الألبانية ماونيَ يسجل بصورة آلية كل ما يقال حول هذا البلد). وأخذ يتفكر في أحلام الشعوب أوان الانتفاضة وفي الشعوب التي غدت ضحية مجازر رهيبة، وبالأحرى في الشعوب التي تجتاز مراحل من الأرق متواصلة، هذه الشعوب الأخيرة بالأخص تمثّل للدولة مصدر قلاقل خطيرة بسبب ما يتوقع من هذه الشعوب بعد فترات أرقها الطويلة هذه أن تجدد نشاطها فجأة. وهذا مما يستدعي أن تتخذ الدولة إجراءات طارئة تجنباً للشر. ولكم أبدى مارك ـ عالم دهشته حين ذكر له محدثه أمر أرق الشعوب، إذْ قال له الآخر:

ـ أعرف أن هذا مما تستغربه، ولكن ينبغي لنا أن ندرك الأمر من وجهة نظر نسبية. وأن شَعْباً ينخفض مقدار رقاده الاجمالي إلى درجة ملموسة بالقياس إلى الوضع الطبيعي لهو شعب معتد بنفسه. ومَنْ أقدر من التبير سراي على تحديد النسبة هذه بدقة؟

ـ في الواقع هذا صحيح . . . ، يوافقه مارك ـ عالم. وإذْ راح يتذكر لياليه البيضاء الحديثة العهد، كان يقول في سره: إن أرَق

شعب بأسره لا بدّ من أن يكون أمراً غاية في الاختلاف عن أرَق فرد.

ثم أخذ ينظر خطفاً يمنة ويسرة فيبدون كلهم غائصين في ملفاتهم، مفتونين كأنّما اهتمامهم لم يعد منوطاً بأوراق ملئت كتابة، بل بدفاءات صغيرة حيث يُستهلك فحم يبلبل المعاني والأفكار، فحدثته نفسه: ربما استسلمت أنا شيئاً فشيئاً لهذه الفتنة وانتهيت إلى أن أنسى العالم والنوع البشري.

وهكذا أمضى مارك ـ عالم هذا الاسبوع. نصف نهار في كل قاعة من قاعات الانتقاء برفقة مستخدم عجوز عملا بتوجيهات قائده بغية أن يتدرب على كل أوجه عمله وأنْ يُغْني تجربته. ولما انتهى من هذا الإعداد كان تبقى له يومان، ولأنه قام بمختلف العمليات مداورة عاد إلى طاولته إلى حيث سير به يوم تعيينه بالذات.

أثناء تجواله من قاعة إلى قاعة، كان مارك ـ عالم قد أَلَمَّ بالخطوط الكبرى التي تعمل على أساسها شعبة الانتقاء. وبعد أن تفحص الأحلام التي تعتبر معدومة القيمة في قاعة العدسات، تُحزم حزماً كبيرة وترسل إلى الوثائق، في حين أن ما يحتفظ به من الأحلام يُصنّف في طرود مختلفة بحسب نماذج المسائل المتعلقة بها: أمن الامبراطورية والعاهل (مؤامرات، خيانات، فتن) سياسة داخلية (وحدة كيان الامبراطورية فوق أي اعتبار) سياسة خارجية (تحالفات، حروب): حياة مدنية (اضطهادات، استغلال، حالات فساد) قرائن على الحلم الأقصى المتوقع: وأمور أخرى.

أما إعادة تقسيم الأحلام إلى فروع وتفريعات فلم يكن بالأمر

اليسير. حتى أنه استغرق من الموظفين نقاشات طويلة حول معرفة ما إذا وجب توكيل هذه المهمة إلى شعبة الانتقاء أو إلى شعبة التأويل باعتبار الجوهري في الأمر. وبالفعل كان يمكن أن تؤول هذه المهمة إلى التأويل لو لم تكن هذه الشعبة مزحمة للغاية. وأخيراً توصّل القيمون إلى حلّ بالتوافق: يترك أمر تصنيف الأحلام لشعبة الانتقاء، على أن يعتبر عملها بمثابة عملية تمهيدية ذات قيمة دالة بالدرجة الأولى. وهكذا بات يُدوَّن على رأس كل ملف يحتوي المواد المُسَلَّمة، «أحلام يمكن أن تتعلق بمسألة كذا»، بدل أن يدوّن «أحلام تتعلق بمسألة كذا». إلى ذلك فإنّ الانتقاء التي أخذت على عاتقها كامل المسؤولية في تفريع الأحلام إلى عديمة القيمة وذات قيمة لم يُنَطْ بها أيّ مسؤولية بشأن تصنيفها بالتفصيل. بحيث اقتصرت مهمة الانتقاء الأساسية، في الواقع على الفرز وقد كان الفرز قاعدة الانتقاء بقدر ما كان التأويل قاعدة التبير سراي.

ولربما أدركت الآن، أننا نحن مَنْ يتولّى أمر المنافذ من حيث ترد كل المواد. هذا ما قاله قائد الشعبة لمارك ـ عالم في اليوم الذي عاد فيه الأخير إلى وظيفته الأولى. «من المؤكد أنك قلت في سرك بادئ الأمر: طالما يبدأ عمل الانتقاء بعملية فرز محضة، كنا أوقفناك على مقتضاها، فإنه قد يكون الأقل أهمية من الوجهة المنطقية السليمة. إخالك الآن أدركت أنَّ هذا أساس العمل كله، وأننا لن نكلف مبتدئين بهذا أبداً: ولئن استثنيناك فلأنك تناسبنا».

تناسبنا. . . هذه الجملة ما وَنِيَ مارك ـ عالم يردِّدها في ذهنه عشرات المرات، كأنما الترداد كان ليعينه على النفاذ إلى معناها. والحالة هذه، فقد كانت (الجملة) هكذا، مغلقة من جميع نواحيها،

ملغّزة، ومجلّدة مثل جانب أملس لا يمكن للمرء أن يستمسك به محاولاً تجاوزه.

فرك عينيه ثانية، وشاء أن يعاود قراءته غير أنه ألفى نفسه عاجزاً عن ذلك إذ قد بدت له الحروف حمراوات كأنما أضاءها انعكاس من نار أو دم.

كان قد وضع جانباً أربعين من الأحلام التي اعتبرها مجرّدة من القيمة، لما بدت له غالبيتها صادرة عن مسائل يومية، في حين بدت له أخرى مُتَكلّفة بالكامل، ولكن دون أن يرتاح تماماً إلى هذا الاختيار: ولهذا حَسُنَ به أن يعيد قراءتها. وفي الحقيقة كان قد قرأ كل حلم على حدة مرتين أو ثلاث مرات على التوالي، ولكنه رغم كل شيء لم يكن مطمئناً إلى حكمه. ولطالما كان قائده أوصاه بأن يترك للفارز التالي كل حلم لا يزال يعتريه شك بشأنه قارناً به علامة استفهام كبيرة. ولما كان عالج بهذه الطريقة عدداً كبيراً من الأحلام رأى أن النادر منها كان معدوم القيمة. ولو لم يضع هذه الأربعين حلماً جانباً لكان قائده سوّغ لنفسه عدم المخاطرة في تفحصها وتخفّف من مؤونتها جميعاً للفارزين الآخرين. والحال فإنه مارس هو نفسه هذه الوظيفة إذ أوجبت عليه وظيفته الرئيسية بالتحديد أن ينتقي، لا أن يتخلص من نافل الأحلام إلى الآخرين. في الواقع كيف يكون عليه الوضع إذا راح كل الفارزين يحيلون معظم الأحلام إلى شعبة التأويل، تهرباً من مسؤولياتهم؟ وقد تخلص شعبة الانتقاء إلى الكف عن قبول المزيد من الأحلام أو تشكو ذلك الأمر إلى الادارة. وتبحث الادارة عندئذ عن أسباب الخلل في الأشغال الآنفة. آه ها أناذا في ورطة حقاً، قال ذلك متأوهاً. ولكن مهما حدث فليكن ما يكون:

ومضى، وقد تولاه غيظ عظيم، وكأنما خشي أن يبدل رأياً، وسجل في أعلى أربع وريقات أو خمس عبارة «لا قيمة» ذيّلها بتوقيعه. وهو حين ظل يخط العبارة نفسها على الوريقات التالية، أدركه فرح الانتقام بخلاف هؤلاء التعساء المجهولين المصابين بالإسهال والبواسير الذين أرّقوه طوال يومين بأحلامهم المحالة التي لم يكونوا صنعوها مطلقاً بل تناهت إلى أسماعهم من آخرين أغبياء، حمقى، دجالين: وراح يجمجم بازائهم، وهو يسجل صيغة الإدانة، ولكن يده أخذت تجول أبطأفأبطأ وانتهت إلىأنْ ظلّت معلقة فوق الأوراق. وقال في سرّه: مهلاً لحظة ولِمَ يأخذ بك الغضب مأخذاً مماثلاً؟ ولكن سرعان ما لجم الشك غضبه العارم.

في الواقع، لم يكن هذا العمل سهلاً، فلطالما أمكن هؤلاء البائسين أن يسببوا لك متاعب شتّى، إذْ يُرجف مستخدمي كل الشُعَب مجرد التفكير في ما يدعونه التدقيق. فقد روى له أحدهم أن صانع أحلام ما، كان بعث برسالة إلى التبير سراي مدّعياً فيها أنه تنبأ بحصول حادثة فلانية وذلك بُعَيْد الإعلان عنها، وفي هذه الحالة يبحثون عن حلمه فيجدونه بفضل رقم التسجيل الذي به يُدوَّن لدن شعبة الاستقبال، كما يُستدعى المستخدمون المذنبون لكونهم لم يأخذوا بعين الاعتبار مؤدّى الحلم الآنف. أما المخطئون فيمكن أن يكونوا المؤوِّلين وبالدرجة نفسها المنتقين الذين كانوا حكموا على الحلم بانعدام قيمته. لذا يعتبر خطؤهم أكثر جسامة لأن غلط مؤوِّل غير أهلٍ لترجمة العلامة المنذرة لهو أسْوَغُ من غلط المنتقي الذي لم يقع على واحدة منها.

أيّ عمل ملعون هذا، قال مارك ـ عالم في سرّه، مندهشاً من

بـوادر ضميره إزاء هـذا الأمر. وأضـاف: ولكن أيّاً كـان الأمـر فـإلى الجحيم بكلّ هذا: ودوّن عبارة «لا قيمة» على إحدى الـوريقات، إلاّ أنه تردّد ثانية لدى الورقة التالية. ولما كان محتاراً في ما يفعل بـالورقـة التي بـين يديـه، انساق عفـو الخاطـر إلى قراءة النص ثـانيـة: «أرض مـتروكـة عنـد أصـل جسر، صنف من الأرض غـامض حيث تُـرمى البقايا. وبين النفايات والغبار ونثار المغاسـل المحطمـة، آلة مـوسيقى عتيقة ذات شكل شاذ، وهي تؤدي لحنها وحيدة في هذا القفر الممتد، وثور مذعور على مـا يبدو من هـذه الأصوات، راح يخـور عند أسفـل الجسر..».

إنها ولا شك لوثة فنّان، قال مارك ـ عالم مستنتجاً: حلم موسيقي ساخط، لبقائه دون عمل. ولم يكن قد خطّ الحرف الأول حـين امتد نظره إلى السطور الأولى، التي كان تجاوزها وحيث يُذكر اسم الرجـل الذي صنع الحلم، ومهنته وزمن صنعه الحلم. ولغرابة الأمـر لم يكن صانع الحلم موسيقياً، بـل بائـع خضرة جوالاً، تبـاً له! قـال مارك ـ عالم دون أن يسعه إمالة نظره عن الورقة. بائـع خضرة ملعون يخـرج من جُحْـرِهِ ويجعلك تتخبّط في حيرتـك. ومما يـزيـد الـطين بلة، أنـه يسكن في العاصمة، وأنه أسهلُ عليه بالتالي أن يتقدم بشكوى ضده. فمحا بعناية الحرف الذي خطه لتـوه على ورقـة الدفـتر وصنف الحلم بين ذوات القيمة وتمتم في سره: أحمق! ورمى نـظرة شزرةً أخيرة عـلى الورقة كما إلى امرىءٍ أُبينَ له عن فضل لا يستحقـه: غمس ريشته في المحبرة وراح يسجل عبـارة «لا قيمة» عـلى الأوراق الأخرى حتى دون أن يطالعها. وحالما تلاشت سورة غضبه، تمالك نفسه وكان بقي عليه أن يتفحص ثـمانية أحـلام من تلك الأحـلام التي حكم للوهلة الأولى

بكونها مجرّدةً من المعنى. وأمعن النظر في كل منها وترك الغالبية حيث كانت ما عدا واحداً صنفه بين ذوات الأهمية. إذ لم يكن بحاجة أن يكون في عداد رجال الدين حتى يخمّن أن هذه الأحلام تُنمى بجذورها إلى خلافات عائلية عابرة وإلى إمساك في المعدة أو إلى عفّة مغصّبة.

بدت له ساعات المكتب لامتناهية. ورغم شعور الاحتراق الذي راح يعتريه في عينيه، فقد سحب بعض الأوراق الأخرى من ملف الأحلام غير المفحوصة ووضعها أمامه. وخيل إليه أنه قد يتعجب أكثر إن هو تظاهر بقراءتها مما لو يقرأها فعلاً. فاختار الوريقات التي تحمل نصوصاً في غاية الاختصار، ودون أن ينظر إلى اسم صاحب الحلم، قرأ ما كان دُوِّن على احداها: هرّ أسود يمسك بين أسنانه قمراً ويرقص، ويتبعه حشد من الناس تاركاً خلفه آثار دم الكوكب الجريح....

نعم هذا الحلم كان يستحق أن يتريث في بت أمره. وقبل أن يولجه فئة ذوات القيمة، قرأ مارك ـ عالم مرّة أخرى.

كان ذلك حقاً حلماً جدياً، والذي يحلو للمرء تحليله. واستخلص أن عمل المؤوّلين، أيّاً كانت صعوبته ودقته يجب أن يكون بالغ الفائدة، وبالأخص إذا كان الأمر يتعلق بأحلام كهذه. هو ذاته، من أرهقه التعب اعترته رغبة عارمة في تأويله مع ذلك لم يبدُ له نشاطه عملاً مضنياً إلى هذا الحد. فمنذ أن صار الهلال رمز الدولة والدين صار من الحتمي أن يعني الهر الأسود كل قوة معادية تعترض طريقهما. وقال في سرّه إنّ لهذا الحلم كل الحظوظ لأن يُعلن الحلم الأقصى. ونظر إلى عنوان صاحبه وأدرك أن الحلم قادم من مدينة

قائمة على المسالك الأوروبية من الامبراطورية. وأردف مستنتجاً: من هناك تفد أحلى الأحلام. ولم يفعل تكرار قراءته ثلاث مرات، سوى أن أبانه لناظريه شيقاً، وأغنى في دلالاته. وبدا له عنصر في الحلم يمثل أهمية كبرى وكأن هذه الجمهرة التي سعت في أثر الهر أمكنها بالتأكيد انتزاع القمر من بين أسنانه. وردّد مارك ـ عالم في سرّه، نعم، هذا الحلم سوف يكرّس الحلم الأقصى، وراح يتأمل ورقة الدفتر العادي حيث كان كتب الحلم والابتسام يعلو ثغره، مثلما ينظر المرء إلى فتاة متواضعة إلى حينٍ، إنما يعلم أنّ لها قَدَرَ أميرة.

وبغرابة انتاب مارك ـ عالم شعور بالراحة وفكر أول الأمر أن يقرأ وريقتين أو ثلاثاً إضافية، ولكنه عدل عن فكرته إذ لم يقوَ على تبديد شعوره بالرضى الذي كان أثاره فيه هذا الحلم الغريب. التفت ناحية الخلجان الكبيرة التي يهبط وراءها الغسق. لن يتفحص حلماً آخر هذا النهار. بل سوف يكتفي بانتظار أن يدق الجرس معلناً نهاية يوم عمل. ومع أن الضوء أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً، فقد ظلت هامات المستخدمين منحنية إلى ملفاتهم. ولم يكن أدنى شك في أن هذه الرؤوس ما كانت لترتفع حتى لو هبط الليل، ولو حلّت الظلمات الأبدية، قبيل أن يطن الجرس وتتردد أصداؤه (في المكان).

دق الجرس في نهاية المطاف. فلملم مارك ـ عالم أوراقه على عجل. وسمع ضجة الجوارير، التي تفتح لترتب فيها الملفات، تتصاعد من الطاولات جميعها. أغلق جراره بالمفتاح، ورغم كونه أول المنصرفين من القاعة فقد لزمه ربع ساعة من الزمن حتى يبلغ إلى الخارج.

كان البرد يسود الشارع، وما أن ينفذ المستخدمون من البوابات

جماعات محتشدة، حتى يتفرقوا في جهات مختلفة. ومثل كل مساء كان الغوغاء من المتسكعين يرقبون خروج موظفي قصر الأحلام، وهم على الرصيف المقابل. فمن بين كبريات مؤسسات الدولة، ومن بينها قصر شيخ الإسلام، ومكاتب الوزير الكبير، كان التبير سراي وحده الذي يثير حشرية العامة. بحيث لا يكاد يمر يوم، لا يلاحظ فيه وجود مئات من المارّة مسمّرين في انتظار خروج الموظفين. ويحدق الناس المرفوعة ياقاتهم بسبب البرد ملياً وبصمت بهؤلاء الموظفين الغامضين الذين أُوكل إليهم أكثر أشغال الدولة إلغازاً، ويروحون يلاحقونهم بعيون زائغة كأنما تسعى إلى أن تجد في قسماتهم آثار الأحلام التي كانوا كُلِّفوا بتحليلها، ولا يبتعدون إلاّ حين تنغلق بوابات القصر الكبير الثقيلة، وهي تصر صريراً.

حثّ مارك ـ عالم الخطى. لم تكن الفوانيس قد أضيئت بعد. في الواقع كان ذلك شارعاً رئيسياً هادئاً ونصف مبانيه كانت محاطة بأسياج ثقيلة من الحديد الصبّ. وتهيّأ باعة الكستناء للرحيل. بعضهم كان قد دس كستناءه، وقماعه الورقية الفارغة وفحمه في أكياس، وبدوا ينتظرون حتى تخمد دفاءاتهم بعض الشيء وكانوا وضعوا مناخل من صفيح أعلاها. عميل الشرطة الواقف هناك حيّاه باحترام: ولمح مارك ـ عالم جارهم «بيتش بي»، وملازم قديم في الجيش، خارجاً من قهوة المفرق، بصحبة صديقين. ولدى رؤيته مارك ـ عالم همس لهما ببعض الكلمات. ولما التقاهم، شعر بأنهم يتفحصونه بعيونهم الملأى بحشرية خائفة؟ أسرع في خطاه. من بعيد أمكنه أن يتثبت من أن الطابق الأرضي والطابق الأول من بيته كانا مضاءين. وقال في سرّه: ينبغي أنْ يكون ثمة زوار، ولكنه لم يقوَ على

كبت ارتعاشه. وما ان اقترب قليلاً حتى رأى عربة متوقفة أمام الباب رافعة علامة الكوپريلي، بالحرف ك محفوراً على خشب بوابتي العربة ولكن بدل أن يطمئنه ما رأى، ضاعف القلق في نفسه.

لوك، خادمة المنزل القديمة، أتت لملاقاته وفتحت الباب.

ـ ما الذي يجري؟ قال ذلك وأومأ إلى النوافذ المضاءة في الطابق الأول.

ـ قدِم أخوالك ليروك.

ـ وهل حدث شيء؟

ـ كلا، لا شيء. بل أتوا لمجرد الزيارة.

تنفس مارك ـ عالم الصعداء. وتساءل في سرّه: ما بي إذن؟ وهو يجوز الحوش ليبلغ باب المدخل. وكان حدث له في الغالب، أنه عندما يدخل في ساعة متأخرة جداً يساوره القلق لرؤية كل النوافذ منيرة. ولكنه لم يكن مضطرباً قطّ في حياته، شأنه هذا المساء. وقال في سرّه: ينبغي أن يكون ذلك بتأثير من عملي الجديد.

وأعلمته لوك وهي تقتفي أثره: اثنان من أصدقائك أتيا بعد هذا الظهر باحثين عنك. قالا لي بأن تذهب لملاقاتهما غداً أو بعد غد في، في... كلاب أو كلوب، كيف بحق الشيطان تسمية هذا؟

ـ إلى النادي «كلوب».

ـ نعم، إنه لهذا. في «الكلوب».

ـ قولي لهما، إن عادا، إنه منشغل وإنه لن يتمكن من الذهاب إلى هناك.

ـ طيّب! ردّت الخادمة.

في الرواق تنشّق مارك ـ عالم رائحة طيبة من المطبخ. ولما بلغ باب الدار، راوح مكانه فترة، دون أن يعرف سبباً لذلك.

وأخيراً فتح الباب ودخل. فإذا بروائح الخشب الأليفة تملأ الغرفة الكبرى التي فرشت كل أرضها بالسجّاد. كان ها هنا اثنان من أخواله: البكر مع امرأته، والأصغر، كما قدم لزيارته اثنان من أبناء خاله، وكلٌ منهما نائب وزير. صافحهم واحداً واحداً.

قال له بكر أخواله: إنك لتبدو متعباً.

هزّ مارك ـ عالم كتفيه كأنما ليقول: ليس بمقدوري أن أعمل شيئاً إنه نتيجة العمل... وسرعان ما حزر أنهم تحدّثوا عنه لتوّهم وذكروا تعيينه. وتفحص والدته التي كانت جالسة، وقد طوت ساقيها جانباً قرب إحدى الدفاءات الكبيرة التي من نحاس. فأرسلت له ابتساماً طفيفاً، أحسّ بعده فقط بأن شعور القلق بارحه. واتخذ مكاناً في زاوية الديوان، منتظراً أن يُغضّ الانتباه عن شخصه أخيراً. وبالفعل لم يلبث الحاضرون أن أهملوه.

واستعاد بكر أخواله طرف الحديث الذي انقطع بوصول مارك ـ عالم. كان حاكم إحدى المقاطعات القصيّة في الامبراطورية، وكان كلما عاد إلى العاصمة لقضاء شؤونه فيها، حمل معه من هناك طائفة من الأخبار الفريدة في شراستها، والتي وجدها مارك ـ عالم مطابقة في نقاط عديدة مع تلك التي سبق ورواها خاله إبّان زيارته السابقة. أما زوجته التي بدت هزيلة وسحنتها قاتمة، فراحت تصغي إلى زوجها رامية بين الحين والآخر، نظرة إلى السامعين كأن لتقول: أرأيتم أين نعيش نحن! فهي لم تكفّ عن التشكي من طقس تلك الأصقاع،

ومن عمل زوجها المضني، وكان يستشفّ من كلامها حقد خبيء ومتأصل، إزاء سلفها ثاني الأخوة الثلاثة، الوزير كما يدعونه اليوم.

والواقع إنه بات أعلى آل الكوپريلي مكانة بحكم منصبه كوزير للشؤون الخارجية، ولطالما تمنّت في قرارة نفسها ألاّ يهتم بما يكفي من أجل إعادة أخيه إلى العاصمة.

أما الخال الأصغر فراح يصغي إلي أخيه البكر مبتسماً ابتسامة غافلة. ولئن بدا مارك ـ عالم أكبر سناً من أخواله، أشبه بتمثال برونز وقد غطّاه البلاتين المصنوع من كل شظف حياة الريف وتعصبّها، فإنه شعر بالمقابل بميل مطرد يوماً إثر يوم إلى الخال الأصغر. أشقر ذو عينين فاتحتيْ الزرقة، وشارباه أصهبان واسمه الألماني ـ الألباني كورت، يجعله ينتمي إلى الوردة البرية من عشيرة الكوپريلي. وبخلاف أخوته لم يكن ليثبت أبداً في مركز هام: ولطالما أولع باهتمامات غريبة سرعان ما كان يتخلّى عنها: حيناً يقف نفسه على علم المحيطات، وحيناً آخر على الهندسة، وهذه الأيام على الموسيقى ـ عازب قاسي القلب يركب الخيل برفقة ابن قنصل النمسا، ويقيم صلات عاطفية مع عدد من النساء الغامضات: باختصار إنه يعيش عيشة راغدة وعابثة على حد سواء وبالضد من عيشة أخوته. وكم حلم مارك ـ عالم بتقليده: إلاّ أنه أدرك عجزه جيداً عن ذلك. الآن وقد بات في غاية الاطمئنان، ومستمعاً إلى أحاديث خالَيْه المازحة، راح يستعيد منظر العربة المتوقفة أمام بيته. تلك العربة التي كلما بانت له، أوحت إليه بفرح ممزوج بخشية، لكونها حاملة البشائر أبداً كما هي حاملة النذائر.

والقصر كما يدعوه أفراد العائلة فيما بينهم يعتبرون بأنه المسكن

الأعـظم من بين مسـاكن آل الكوپـريلي وقـد خُصِّصَت لـه عـربـات عديدة، ولكنها كلها متشابهة بحيث لم تعد تمثل بنظر مارك ـ عالم غير أمـر واحد: العـربة، التي تتخـذ دور النذيـر والبشـير عـلى التـوالي، وحـرف الـ «ك» محفـور في خشب البـوابتين، تتجـه من البيت الأم، متجـاوزة في طريقهـا إلى منازل العـائلة الكبيرة، أقـواس قزح حينـاً، وحيناً آخر غيوماً قاتمة. وكـاد يطرح أكـثر من مرة، مـوضوع إحـلال الحـرف (ق) محـل الـ (ك) انسجـامـاً مـع الخط العثـماني الـرسمي Köprülü ـ ولكن العائلة لبثت ترفض ذلك على الدوام، وحافـظت على الحرف «ك» كما على حـروف لقبها الأخـرى المنتمية إلى الأبجـدية الألبانية.

وبعد أن أنهى بكر أخواله خطابه توجه إلى مارك ـ عالم قائلاً:

ـ دخلت إلى التبير سراي إذن؟ ها أنت أنفذت قرارك أخيراً؟

ـ لقد قررنا الأمر سوية، قالت الأم.

ـ حسناً فعلتم، ردَّ الخال، إنها لمرتبة محترمة، وموقع هـام. أصدق تمنياتي لك بالنجاح!

وردت الأم: إن شاء الله، شكراً.

آنئذٍ التقط ابنا الخال طرف الحديث. وتوالت عـلى ذاكرة مـارك ـ عالم النقاشات المتناهية التي تلاحقت في شأن وظيفة الغد قبل أن يقـع الاختيـار نهائياً عـلى التبير. وأيّ امـرىء يسمع أحـاديثهم من الخارج تعتريه الدهشة: إذ هل يعقل التكلم بهذه النبرة المستغرقة على البحث عن وظيفة لرجل سليل الكوپريـلي، هذه العـائلة الشهيرة التي لم تعط الامـبراطوريـة خمسة وزراء، فحسب، بـل عدداً غـير متناهٍ أيضـاً من الوزراء، والأميرالات والقادة العسكريين، وقد رأس اثنـان من هؤلاء

الحملات على هنغاريا، وقاد آخر الحملة على بولونيا، وآخر قاد غزو النمسا: ورغم انسحاق هذه العائلة النسبي اليوم، إلا أنها تظل إحدى دعائم الأمبراطورية، بل هي أولى من أطلق فكرة إعادة بناء الدولة الكبرى تحت راية الـ و.ع.م (الولايات العثمانية المتحدة) والعائلة الوحيدة التي ذكرت إلى جانب الأسرة المالكة الأمبراطورية في معجم اللاروس، وذلك بالحرف ك (K)، وقد أرفق بذكرها الملحوظة التالية: كيپرولو: عائلة ألبانية عريقة عُيِّن خمسة أعضاء فيها كبار الوزراء في الأمبراطورية العثمانية في الفترة ما بين العامين ١٦٦٦ و١٧١٠، عائلة جُلّ من طرقَ بابها بحياء، من علّية موظفي الدولة، طلباً للحماية والحظوة والتوسط من أجل إعتاق فلان... هذا ما يبدو للوهلة الأولى مثيراً للعجب بله كأنما لا يصدق، ولكن بنظر أولئك الذين يلمّون في العمق بتاريخ الكوپريلي فإن الأمر بخلاف ذلك تماماً. وتاريخها الباهر والقاتم على السواء يشير في تضاعيفه إلى أن منها أعلى المتنفذين والوزراء والحكام ورؤساء وزارة بقدر ما كان منها محكومون بالسجن أو بالإعدام، مقطوعو الرأس أو مختفون. «أما نحن آل الكوپريلي الآخرين، قال أصغر الأخوال الثلاثة كورت، وبنبرة ممازحة نوعاً ما، نشبه بعض الشيء أولئك الذين يستغلون الأرض لدى سفح بركان الفيزوف. أبداً نحن مثل هؤلاء الذين يعيشون مستظلين بالبركان مغمورين بالرماد كلما انفجر وراح يقذف حممه وتلك حالتنا حين يضربنا العاهل آناً بعد آخر ونحن لا نزال نستظل به ما حيينا. ومثلما لا يني هؤلاء الناس يستأنفون عيشهم حالما يستعيد البركان سكونه على أراضيه الخصبة والخطرة التي تمتد لدى اقدامه رغم كل المآسي التي يسيمهم إياها بانتظام، فإننا نظل نفيء إلى العامل رغم كل الضربات التي يكيلها لنا ونثابر على خدمته بأمانة.

ولكم يتذكر مارك ـ عالم جيداً منذ طفولته روحات الخدم وغداوتهم قبيل الفجر، في منزلهم الكبير، ووشوشات عمّاته في الأروقة، وقد أتين قارعات الباب الكبير وعلى وجههن سيماء الرعب، ويتذكر هذه النهارات الكاملة المرصعة بأخبار قاتمة وبانتظارات وقلق مقيم إلى أن يأتي الفرج مع الدموع الوديعة تُذرف على المحكوم عليه في زنزانته، ثم تستأنف الحياة مجراها كما في السابق، في انتظار مرحلة جديدة من الألق أو مصيبة جديدة. وفي الواقع قيل عن عائلة الكوپريلي أن أبناءها إمّا يبلغون أعلى المراكز أو يقبعون في نكباتهم، إذ ليس عندهم أنصاف حلول.

لحسن حظك على الأقل أنك لا تحمل اسم الكوپريلي كانت تقول له أمه بين الحين والآخر دون أن ترتاح هي ذاتها إلى كلمات الاطمئنان التي ما برح يردُّ بها عليها. كان ولدها الأوحد وصار همها الوحيد بعد موت زوجها أن تحمي ابنها من النصيب السيء الذي قدّر للكوپريلي. وقد أسبغ هذا الهم الشيء الكثير على ذكائه ومهابته وعلى جماله بما يذهل. ولطالما آلت على نفسها في الصميم من ذاتها أن تبقي مارك ـ عالم في منأى عن مهنة الإدارة. ولكن قرارها هذا راح يفقد مبرّره يوماً بعد يوم منذ أن كبر مارك ـ عالم وأتمّ دراسته إذْ لم يكن في عائلة الكوپريلي عاطلون عن العمل، وبات لازماً أن يجد له وظيفة طوعاً كان أم كرهاً، وظيفة حيث امكانيات الامتهان موفورة إلى حد كبير وحيث امكانية الرمي في السجن متقلصة ما أمكن. ولطالما أشبعت العائلة هذه المسألة نقاشاً: افتكروا في الدبلوماسية وفي الجيش وفي البلاط وفي المصرف وفي الإدارة وكانوا يروزون جوانب كل وظيفة، السيئة منها والإيجابية على حد سواء، وحظوظ التقدم أو الإطاحة حتى

نقبوا كل وظيفة تنقيباً كاملاً وجعلوا يطرحون جانباً هذه الوظيفة التي بدت لهم أقل بروزاً بله خطرة ليختاروا أخرى ثم يروحون وللأسباب ذاتها يرفضون هذه ويفكرون في وظيفة ثالثة تظهر للوهلة الأولى مختلفة عن الاثنتين الأوليين: وكانوا يخلصون بعد تفحص الأمر بعمق إلى أن الوظيفة الآنفة هي أخطر من الاثنتين الأخريين فعلاً، وعلى أثر ذلك كانوا يعودون إلى الوظيفة الأولى تلك التي كانوا تحدثوا عنها في البداية: يا إلهي، أنّى كان إلاّ هنا: وكانوا يستمرون هكذا إلى أن تخلص الوالدة التي أرهقتها كل هذه المراوغات إلى القول: ليذهب إلى حيث يشاء. ، لا مفر مما هو مكتوب!

في هذا الشأن حين همّوا بترك مارك - عالم يختار بذاته وظيفته، إنبرى خاله الثاني، الوزير الذي لم يكن قد تدخل في المناقشة مدلياً برأيه، وقد بدا رأيه، بغتة، فكرة خرقاء أثارت لدى السامعين ابتسامة هزء، ولكن سرعان ما تلاشى كل ابتسام وحل تعبير الهلع مكانه.

قصر الأحلام؟ كيف ذلك؟ ولماذا إذن؟ ثم بعد إمعان التفكير أخذت الفكرة تبدو بديهية. وفي العمق، لِمَ لا في التبير سراي، أيّ سوء أن يعمل هنالك؟ ليس فقط، لم يكن أيّ سوء في هذا بل أيضاً كانت تلك وظيفة أفضل من الوظائف الأخرى حيث الأفخاخ منصوبة. ولكن هل يعقل ألا يكمن في هذه الوظيفة أيّ خطر؟ بلى، طبعاً، ولكن المخاطر كلها كانت صادرة عن الحلم بأيّ حال وعن عالم الأحلام، أتدرك ذلك، هذا العالم، إلى حيث يتمنى القدماء أن ينقلوا في أوان ضيقهم، إذْ يقولون: يا إلهي تصرف بحياتنا بأشبه من الحلم!

إليك الحالة التي بلغتها الأمور فيها بعد. رسخت فكرة الوزير شيئاً فشيئاً في ذهن الأم. كيف لم يتفكروا في ذلك أبكر؟ قالت في سرّها وقد بدا لها التبير سراي المؤسسة الوحيدة القادرة على ضمان خلاص ابنها. وزد على أن هذه المؤسسة توفر إمكانيات للامتهان غير محدودة، فإن الفائدة الأساسية التي تجدها فيها تكمن في طابعها الغامض والضبابي. ففي هذه الإدارة يتضاعف الواقع إذْ يبلغ المرء فيها سريعاً مجال اللاواقعي. لذا فإن الضباب الآنف بدا لها عنصراً قميناً بأن يكون أفضل ملجأ لابنها حين يكفهر الجو وتسود الظلمات. انضمّ الآخرون إلى رأيها ثم أن الوزير الذي افتكر في الموضوع إياه، ما كان ليأتي ذلك عبثاً، قالوا. ففي هذه الأيام بات التبير سراي يلعب دوراً متعاظماً في شؤون الدولة. وكان من الطبيعي أن يقلّل آل الكويريلي من اعتبار قصر الأحلام لكونهم ميّالين إلى النظر في المؤسسات التقليدية بشيء من التهكم. وكان هؤلاء أنفسهم لسنوات خلت، قد سعوا حثيثاً إلى التقليل من سلطة قصر الأحلام دون أن ينجحوا في إغلاق أبوابه على حدّ ما قيل. على أن العاهل كان وطّد أركان قصر الأحلام في كل الأرجاء الواقعة تحت سلطته هذه الأيام.

وكان مارك ـ عالم قد أحاط بكل هذه الأمور تدريجياً وعلى امتداد النقاشات الطويلة التي راح يخوض فيها أقرباؤه حول الوظيفة الأنسب له. وحين يقال إن آل الكويريلي كانوا قللوا اعتبار التبير فهذا لا يعني بالطبع أن السبب يعود إلى فراغه من جماعتهم. ولئن أظهروا حياله كثيراً من الخفة بغاية إهماله تماماً، فإنهم كفوا أن يكونوا ما هم عليه، ولكنهم لم يتوصلوا إلى إعادة تحييد روح تلك المؤسسة الرخوة، على حدّ ما كانوا يدعونها ممازحين بعضهم بعضاً، إلا بعد ظهورهم بمظهر

الانشغال عنها بأجهزة الدولة الأخرى وبعد حيازتهم ثقة المسؤولين حتى انتهوا إلى ملاشاة اهتمامهم بها. وكان هذا الاهمال، على ما بدا ما جهدوا في إصلاحه. وبالتأكيد كانت لهم جماعتهم في التبير، وبالعشرات غير أنهم، رغم ذلك، ما كانوا ليعتمدوا عليهم شأنهم في ذلك شأن أبناء الدم الواحد، قال الوزير لأخته وقد بدت عليه علائم العصبية، حتى خيّل إليها أن هذا الشأن بات يستغرقه أكثر مما أراد إظهاره وبالتأكيد فإن ما علق في نفسه كان أزود مما أعلنه لها.

كان هذا الحوار قد تم قبل أن يتقدم مارك - عالم بيومين من التبير سراي، وخلال هذه الفترة كلها، لم يكفّ اسمه واسم قصر الأحلام عن أن يختلطا اختلاطاً عصياً على الانفصام. وإلى هذه اللحظة كان لا يزال هؤلاء، يجامعون الإسمين مما جعل المحادثة هذه تغيظه ولطالما أمل في أن يحوِّلوا موضوع كلامهم إذْ يتقدمون من المائدة ومن حسن حظّه أنهم لم يحتاجوا إلى هذه اللحظة حتى ينصرفوا عنه.

والواقع أنهم ظلّوا يتابعون كلامهم على التبير سراي ولكن دون أن يشيرو إليه بصلة حتى زاده ذلك انتباهاً إلى ما يقال.

- على أيّ حال، يمكننا التأكيد أن التبير سراي اليوم، قد استعاد سلطته التي كانت له سابقاً، قال أحد الأخوال.

- أما فيما يتعلق بي فسما اعتقدت قطّ بأن سلطته يمكن أن تتزعزع بيسر، رغم كوني من آل الكوپريلي قال كورت معلقاً. إذْ ليس التبير سراي إحدى أقدم مؤسسات الدولة فحسب، بل إنه أيضاً برأيي أعتاها وأقدرها، رغم تسميتها الجذابة.

- ليست هي المؤسسة الوحيدة، ثمة بعد أخرى، رد أحد أبناء خاله.

ابتسم كورت.

ـ نعم، إلّا أن الرعب فيها ظاهر للعيان، والخوف الذي توحي به يلمحه المرء من بعيد مثلما يلمح دخاناً أسود في حين أن الأمر مع التبير سراي بخلاف ذلك تماماً.

ـ ولِمَ قصر الأحلام على هذا النحو من العتوّ برأيك؟ قالت أم مارك ـ عالم منذهلةً.

ـ هو ليس بالمعنى الذي تحسبه أنت، قال كورت وهو يلتفت خطفاً ناحية ابن اخته. فأنا قصدت مظهراً مخالفاً تماماً. وبرأيي فإن قصر الأحلام هو إحدى أواليات الدولة الأكثر مضادة لإرادة الناس. إنها أكثرهن لا شخصية وأشدهن عماء، وأبرزهن قدراً، وبالتالي أشد ولاءً للدولة على الإطلاق.

ـ ثم إني، يخامرني الشعور ذاته، بشكل ما بأن التبير سراي يمكن أن تمسك بزمامه الدولة جيداً كما تفعل بالأخرى، أردف ابن خاله الثاني.

كان هذا أصلع وعيناه تلمّحان إلى ذكاء بشكل لافت للغاية: شبه مطفأتين، حيث يقال إن الذكاء استهلكهما أو بات مستعداً، على ما بدا، أن يخلي للآخرين بعضاً منه.

ـ بالنسبة لي، قال كورت، إنه جهاز دولتنا الوحيد الذي عبره يتواصل مباشرة قسط الظلمات في وعي أفراده. (وراح يتفحص كلا من الحاضرين على حدة كأنما ليتأكد من أثر كلامه فيهم) وتابع قائلاً:

ـ لما كانت الجموع عاجزة عن الحكم بالتأكيد، أعطيت لها هذه الآلية التي تسمح لها بأن تؤثر في كل الشؤون وفي تقلبات الدولة وجرائمها، وليس هذا الجهاز سوى التبير سراي.

ـ أتعني بقولك، رد ابن الخال مستعلماً، بأنّ لها شيئاً من المسؤولية العامة في كل ما يجري وأنها قد تستشعر ازاءها بنوع من الشعور بالذنب؟

ـ نعم، قال كورت مضيفاً بصوت حازم: بشكل ما نعم!

ابتسم الآخر، ولكن لما كانت عيناه لا تزالان نصف مغمضتين، لم يُبنْ إلّا عن بعض ابتسامة أشبه بشعاع ضوء أسفل الباب.

ـ رغم كل شيء، بالنسبة لي إنها المؤسسة الأكثر عبثية في الامبراطورية، قال...

ـ قد تكون عبثية وسط عالم منطقي، قال كورت. وبالمقابل فإن وجودها في عالمنا كما هي، يبدو لي عادياً للغاية!

وللحال راح ابن الخال يضحك بأعلى صوته ولكنه ضاق نفساً بالضحك لما رأى الحاكم مغتماً.

ـ مع ذلك يُتناهى للمرء من أنّى كان، أنَّ الأمور أعمق من هذا، ردّ ابن الخال الآخر، إذْ لا شيء واضحاً بنفس المقدار الذي يبدو عليه. إليكم مثلاً: مَنْ بإمكانه اليوم أن يعرف حق المعرفة ما كان عليه وسيط الوحي لدى هيكل دلفي؟ فوثائقه ضاعت، أو لنكن أدق، ضُيِّعت ولم يكن تعيين مارك ـ عالم أقل غموضاً...

ولما بدت أم مارك ـ عالم مصغية، حرصت على ألّا تفوّت كلمة مما كان يقال.

ـ يحسن بنا أن نتحدث في شأن آخر، قال الحاكم.

وأخذ مارك ـ عالم يكرر في سره: تعييني لم يكن بالأمر الهيِّن... وراحت تتوالى في ذاكرته مقتطفات ونتف من بعض مشاهد الصبحية

الأولى حين دخل إلى التبير سراي مثلما يدخل الكائنُ الأشدّ ضياعاً ومتاهاً على الإطلاق، وقد اختلطت هذه المشاهد بآخر ساعات عمله المملّة في شعبة الانتقاء. من لا يخالطه الشك في أنني دخلت التبير لأفتتحه! قال ذلك في سرّه ضاحكاً بألم في قرارة ذاته.

ـ كفى حديثاً عن كلّ هذا، أضاف بكر أخواله قائلاً. وفي غضون ذلك، أتت لوك تعلن جهوز العشاء وقام الجميع إلى قاعة الطعام.

إلى المائدة، راحت زوجة الحاكم تتحدث عن عادات المقاطعة التي يديرها زوجها وعن تقاليدها، إلا أن كورت قاطعها دون جزيل احترام.

ـ لقد دعوتُ رواةً منشدين من ألبانيا.

ـ كيف؟ ردّ عليه صوتان أو ثلاثة.

في الظاهر قد تعني هذه الكيف؟ أنه: من أين أتتك هذه الفكرة؟ ولماذا الدعوة؟ وأية نزوة جديدة هذه؟

ـ كنت أتحادث مع قنصل النمسا، قبل أول من أمس. أوتعلمون ما قال لي؟ أنتم الآخرون، آل الكوپريلي، إنكم العائلة العريقة الوحيدة في أوروبا وربما في العالم التي كُرست لها أنشودة من أناشيد البطولة.

ـ آه، قال أحد الأخوال، إني أدرك ذلك!

ـ وبحسبه، فإن الأنشودة التي أهديت إلينا تنسب إلى عائلة «نيبلونغن» بل حدّد بدقة: لو أن ما ينشده الناس اليوم لعائلة فرنسية أو ألمانية، بمقدار واحد بالمئة مما ينشد لكم في البلقان لأشاعت اسمها وتوجتها تتويجاً في ذروة المجد. في حين أنكم، أنتم الكوپريلي، يكاد

ذلك أن يحظى بانتباهكم: . . . هذا ما قال لي.

ـ ذلك واضح، أردف أحد الأخوال. يبقى أمر واحد لا أفهمه: تحدثت عن المنشدين الألبان، أليس كذلك؟ أما إذا كان الأمر يتعلق بالنشيد الذي نعرفه جميعاً، فأيّ دافع يحمل هؤلاء المنشدين الألبان على المجيء إلى هنا؟

نظر كورت كوپريلي في عينيه، محدقاً به، ولكن دون أن يجيبه فالنقاش حول أنشودة العائلة هو قديم لدى الكوپريلي قِدَمَ الغسالات العتيقة والنفيسة، التي كان يهديها إياهم الملوك عادة، فيتلقفها كلّ جيل لاحق من سالفه بتقوى ليسلمها بدوره إلى الجيل التالي.

كان قد تناهى إلى مارك ـ عالم خبر هذه الأنشودة منذ نعومة أظفاره. في البدء راح يتخيّل الأيپوس (أذْ يدعونها هكذا أيضاً) شيئاً طويلاً، ومخلوقاً وسيطاً بين الأفعوان ذي السبعة رؤوس وبين الحيّة. يعيش بعيداً في جبل دائم الثلوج، والذي يحوي جسده مصير عائلته، نظير الوحوش الخرافية. ولكنه كلما كبر أدرك ـ وبطريقة غامضة أيضاً ـ ما كانت عليه حقاً هذه الأنشودة. والواقع أن مارك ـ عالم ما كان ليفهم جيداً كيف يسع آل الكوپريلي أن يعيشوا وأن يحتفظوا بمكانتهم المرموقة داخل عاصمة الامبراطورية في حين أنه ينشد في البعيد وفي أقاصي البلقان الغربية وفي المقاطعة المدعوة «بوسني»، نشيد مكرس لهم. وما كان ذهنه ليتقبل حَذْيَ هذا النشيد في «پوسني» وليس في موطن الكوپريلي ومسقط رأسهم علاوة على ذلك أن ينشد باللغة الصربية لا باللغة الألبانية الأم. ولطالما وفد المنشدون مرة في العام، في شهر رمضان من مقاطعة بوسني فيقيمون أياماً بلياليها لدى الكوپريلي من أجل أن ينشدوهم أناشيدهم البطولية

الطويلة، ترافقهم في ذلك آلة موسيقية تصدر صوتاً هو إلى أنين التشكي أقرب. كانت تلك عادة متوارثة منذ مئات السنين، لم تقو أجيال الكوپريلي الجديدة على نفيها أو تحويرها. وإذْ يجتمعون في قاعة الضيوف الكبرى، يروحون يصغون إلى صوت المنشدين السلاڤيين الفاتر دون أن يفقهوا كلمة مما ينشد، اللهم ما عدا اسم الكوپريلي الذي كانوا يلفظونه «تشوپريلي». وبعد أن يتلقّى المنشدون أجورهم المعتادة وينصرفون تاركين وراءهم شعوراً بالفراغ، وبلغز غير منحل ومثيرين لدى أرباب البيوت، فترة ثرثراتهم التي دامت أياماً عديدة، تأوهات دونما سبب شبيهة بتلك التي يُؤدي إليها تغيير مفاجىء في الطقس.

ومع ذلك كان يشاع أن العاهل حسد الكوپريلي بسبب أنشودة البطولة هذه بالأخص. ولئن نظم الشعراء الرسميون في إعلاء مجده عشرات الدواوين والأشعار، إلاّ أن جماعة لم تخصّه بإيپوس مماثل للذي يوحي به آل الكوپريلي. حتى قيل إن هذا الحسد كان إحدى علل تلك الصواعق التي ما وني العاهل يضرب بها آل الكوپريلي حيناً بعد حين. ولطالما كان مارك ـ عالم الفتى يقترح على أهله، بعد أن يسمع منهم التأوه تلو التأوه، فيقول: ولكن لِمَ لا تمنح السلطان هذه الأنشودة البطولية لتتجنّب نهائياً كل هذه المصائب؟

ـ أسكت! ترد عليه والدته. النشيد البطولي ليس شيئاً يمكن أن يُهدَى، أتفهم أنه أشبه بخواتم الزواج أو حلي العائلة من هذه الأمور التي لا يمكن إعطاؤها حتى لو قصدنا إلى ذلك.

ـ وقال لي: إن ذلك يُنمى إلى عائلة نيبلونغن، أردف كورت في هيئة حالمة. هذه الأيام لم أكفّ عن طرح السؤال على نفسي ولطالما

صاغته العائلة داخل منزلنا. لِمْ ألّف السلافيون نشيداً بطولياً يمجّدنا في حين يصمت الألبانيون مواطنونا دون أن يتناولوا موضوعنا في مآثرهم وملحمتهم.

- ليس أبسط من ذلك، قال أحد أبناء الخال. وإنْ هم سكتوا عنّا، فهذا لأنهم توقعوا شيئاً منّا وخذلوا بتوقعهم هذا.

- يسعك أن تفسّر ذلك على ما تهوى.

- أنا أدرك ذلك جيداً، تدخل ابن الخال الآخر. إنه سوء تفاهم قديم بين عائلتنا والألبانيين. إذْ كان يشق عليهم أن يتعاطوا مع الأبعاد الأمبراطورية التي اكتسبتها عائلتنا وتميزت بها، أو بالأحرى لم تبدُ لهم أمراً جوهرياً، بيد أنهم لم يكونوا يتعرضون مطلقاً لما أنجزه آل الكوپريلي، أو لما يستمرون في انجازه من أجل الامبراطورية جمعاء حيث لا تعد ألبانيا سوى جزء صغير منها، فما كان يهمهم هو ما نقوم به من أجل هذا الجزء الصغير، من أجل ألبانيا. ولطالما توقعوا منا أن نؤدي عملاً خاصاً من أجلهم.

ومدّ ذراعيه فاتحاً إياهما كأن ليقول: إليكم ما يعنيه هذا. وأردف يقول:

- بعضهم يحكمون على ألبانيا بأنها مقدرة للمأساة، وآخرون يظنّون بالعكس أنها مولودة تحت النجمة الملائمة. أما أنا فأعتقد بأن مصيرها يتجاوز هذا الخيار. وهي تشبه عائلتنا في بعض جوانبها. فلقد شهدت فضائل السلطان وقساواته تذوب فوقها سواء بسواء.

- وأيّ الفضائل أو القساوات كانت أثقل على عاتقها؟ سأل كورت.

- من الصعب القول، أجاب ابن الخال. ولا أنسّ فكرة أبلغني

إياها يوماً رجل يهودي: عندما كان الأتراك ينقضُّون عليكم برماحهم وسيوفهم، ظننتم أنتم الألبانيون ظنّاً صائباً أن الأتراك قادمون لافتتاح بلادكم في حين أنهم يهبونكم اليوم امبراطورية كاملة!

ـ ها! هاها! قهقه كورت.

وبدت عينا ابن خاله المطفأتان ترسلان بصيصاً أقصى.

ـ ولكن، مثل أيّ هدية يتقدم بها أخرق، تُعادُ له بعنف، وحتى بسفك دم غزير.

ـ ها ها! ضحك كورت، وكان ضحكه هذه المرة أقوى.

ـ لماذا تضحك؟ قال أخوه البكر، الحاكم. كان لليهودي تمام الحقّ. فالأتراك قاسمونا السلطة، وهذا ما تعرفه أنت بقدر معرفتي.

ـ بالطبع قال كورت، يكفي شاهداً على هذا خمسة رؤساء الوزارة المنتمين إلى العائلة.

ـ هذا لم يكن سوى البداية، قال الأخ الأكبر. فقد أتى بعدهم مئات من عليّة الموظفين.

ـ ليس من أجل هذا كنت أضحك، قال كورت.

ـ لأنت مدلّل للغاية، رماه الآخر مدمدماً.

وبدا بصيص في عيني كورت.

ـ الأتراك، قال ابن الخال جاهداً في لفت انتباه الحضور، حملوا إلينا نحن الألبانيين ما كنا أحوج إليه: المسافات الشاسعة.

ـ بل جلبوا أيضاً تعقيدات كبيرة، قال كورت. فإذا كانت حياة فرد واحد عرضة للتعقيد حيث تجد نفسها مُلزمةً بآليات التحكم فكيف إذاً بمأساة شعب بكامله رهين تلك الأجهزة!

ـ ما الذي قصدت بهذا القول؟

ـ ألم تذكروا لتوكّم أن الأتراك قاسمونا السلطة؟ بيد أن مقاسمة السلطة لا تعني الاكتفاء منها بحصة الرتب على الأكتاف والسجاد. فذلك لا يأتي إلا فيما بعد. مقاسمة السلطة تعني قبل أيّ شيء مقاسمة الجرائم!

ـ كورت، لا يمكن أن نتكلم على هذاالنحو!

ـ على أيّ حال. الأتراك هم الذين وهبونا أبعادنا الحقيقية، تابع ابن الخال القول. رغم ذلك لعنّاهم.

ـ لا، ليس نحن. هم! تدخل الحاكم.

ـ نعم، عفواً هم، الألبانيون الذين من هنالك.

وساد صمت متوتر حملت أثناءه لوك الصواني الملأى بالحلويات.

ـ لسوف يفوزون يوماً باستقلالهم الحق ولكنهم قد يفقدون بالمقابل كل هذه الإمكانيات الفسيحة، أضاف ابن الخال. سوفق يفقدون هذا المدى الشاسع حيث يسعهم الطيران كالهواء، وسوف ينغلقون على أراضيهم الضيقة، ولسوف تعرقل حركاتهم أجنحتهم بحيث يخبطون بها من جبل إلى آخر مثل هذه الطيور التي لا تقوى على الانطلاق بما يكفي. لذا سوف يذبلون ويرتخون ويقولون في نهاية المطاف: ما الذي جنيناه بهذا؟ آنئذٍ سوف يرفعون عيونهم بحثاً عما أضاعوه، ولكن أتراهم يجدونه...؟

تنفسّت زوجة الحاكم الصعداء. إذْ لم يكن أحد مسّ قطع الحلوى.

ـ وهذا لا يمنع أنهم يغضون النظر عنا، هذا الحين، أضاف كورت.

ـ قد يفهموننا، ذات يوم، قال الأخ البكر.
ـ نحن أيضاً، يجب أن نصغي إليهم.
ـ ولكن إن هم صمتوا، كما ذكرت؟
ـ فلنصخ السمع إلى صمتهم، قال كورت.

قهقه الحاكم عالياً.

ـ أنت ظللت عصياً على التركيز، قال بين ضحكتين مقهقهتين. لطالما قلت لك إن حياة العاصمة أفسدتك للغاية. سنة خدمة في مقاطعة نائية لا تضر شيئاً بك.

ـ نجانا الله! هتفت أم مارك ـ عالم مدمدمة بين أسنانها.

كان ضحك الحاكم قد بدَّد التوتر الطفيف الذي ساد قبيل لحظات حول المائدة، فمدّ الجميع شوكاتهم ناحية أطباق الحلوى.

ـ وأنا إن دعوت هؤلاء المنشدين الألبان، أوضح كورت، فلأنني تمنيت الاستماع إلى الملحمة الألبانية. وقنصل النمسا الذي قرأ مقاطع منها قال لي بأنه وجد أناشيد البطولة الألبانية أجمل بكثير من الأناشيد البوسنية.
ـ حقاً؟

ـ نعم، قال كورت، (وراحت عيناه ترفان كأنما بهرهما ضوء الشمس المنعكس على الثلج) ترد في هذه الملاحم مطاردات عبر الجبال ومعارك فريدة وسبي نساء وفتيات، ومواكب زوجيّة متجهة ناحية أعراس مليئة بالمخاطر «وخروشك»(*) مسمّرون في أماكنهم، مذهولين لكونهم ارتكبوا خطأً ما أثناء سيرهم، أحصنة سكرى من

(*) أعضاء في الموكب الزواجي قادمون لأخذ الموعود بها من بيت أهلها.

الخمر، شجعان يصعقهم العمى على مطاياهم العمياء، فيضربون على غير هدى عبر الجبال التي حفظت تنفسهم، ويوم الشؤم، وطَرْقات في الليل على أبواب قصور ريفية غريبة، وتحدّ مرعب يطلقه حي في وجه ميت، وهو يدور حول قبره ومعه سرب من مئتي كلب وأنات الميت الذي يعجز عن الصعود من قبره ليتبارى مع عدوه. بشر وآلهة مختلطة يتقاتلون ويتزاوجون، صيحات معارك، ولعنات رهيبة، وتشرف على كل ذلك، شمس باردة، تضيء دون أن تدفىء.

راح مارك ـ عالم يصغي، وكأنه المفتون. واجتاحه حنين مجهول، أو بالأحرى غريب إلى ثلج الشتاء البعيد هذا الذي لم تطأه قدماه قط.

ـ تلك هي الملحمة الألبانية من حيث نحن غائبون، قال كورت.

ـ وإن صحّ ما أتيت على وصفه، فإنه يصعب التصديق أن نكون ذُكرنا في موضع ما، أشار أحد أبناء الخال. بل بالأحرى أن ذلك يُنمى إلى حمى مأساوية!

ـ في حين أننا نذكر في الملحمة السلافية. . .، قال كورت.

ـ ألا يكفي هذا؟ ردّ ابن الخال ذو النظرة المنطفئة: وأنت ذاتك قلت إننا العائلة الوحيدة في أوروبا وربما في العالم التي يحتفي بها من قبل شعب في أنشودة بطولية. ألا يبدو هذا كافياً بنظرك؟ ربما أردت أن يحتفي بنا شعبان لا شعب واحد؟

ـ سألتني إذا كان هذا يكفيني أم لا، قال كورت أما أنا فأجيبك لا!

وهزّ أبناء الخال رأسيهما بشيء من التسامح، وابتسم للرد أخوه البكر أيضاً.

ـ أنت لا زلت فريداً، أردف، فأنت لم تتبدل حتماً.

ـ حين يأتي المنشدون، عاود كورت القول، أدعوكم جميعكم إلى سماعهم. ومن الأغاني التي قد ينشدونها الأغنية الراقصة القديمة: الجسر ذي الثلاثة أركان، والتي يتفرع منها اسم عائلتنا...

وراح مارك ـ عالم يصغي، فاغراً فاه.

ـ لسوف ينشدون هذه الأغنية الراقصة الشهيرة، تابع كورت، ولكن في ترجمتها الألبانية، هذه المرة لن أقول شيئاً للوزير، ولكني لم أفكِّرْ بما يثير الاعتراض على أن نأويهم لدينا. إذْ يكونون ساروا مسافات طويلة دون أن نحسب أضطرابهم إذْ يضطرون إلى إخفاء آلاتهم الموسيقية. ولكن الأمر يستحق العناء...

وتابع كورت التكلم بإسهاب في نبرة مشبوبة العاطفة. وذكر ثانية العلاقة القائمة بين عائلتهم، هنا وبين الملحمة البلقانية، هنالك، بالإضافة إلى العلاقات بين الادارة والفن، وبين الزائل والأبدي، وبين الجسد والروح...

ـ أيّاً كان الأمر، تكلم ما شئت بين هذه الجدران الأربعة، ولكن حذار أن تفعل ذلك خارجاً، قال له أخوه البكر بلهجة آمرة وقد بدا وجهه متجهماً.

وحول المائدة أطبق صمت جعلته طقطقات الشوك الأخيرة على الصحون البورسلين أشدّ توتّراً.

ومن أجل تخفيف الوطء، توجه الحاكم نحو مارك ـ عالم بنبرة ممازحة:

ـ قل لي، يا ابن اختي: لم أسمعك منذ زمن تشارك في الحديث.

لأنت في الظاهر غارق من رأسك حتى أخمص قدميك في عالم الأحلام.

شعر مارك ـ عالم بأنه يحمرّ ثانية. ذاك أن الجميع باتوا الآن يركزون انتباههم عليه من جديد.

ـ أنت تعمل في شعبة الانتقاء، أليس كذلك؟ تابع خاله يقول، سألني الوزير بالأمس عن أخبارك. المهنة الحقيقية في قصر الأحلام، قال لي، تبدأ في التأويل، إذْ فيه وحده يتم العمل الخلّاق حقاً وفيه يمكن لطاقات كل امرىء الشخصية أن تلمع. أليس هذا رأيك؟

هزّ مارك ـ عالم الكتفين كأن ليعني أنه لم يكن هو من اختار الشعبة، ما عساه يفعل ذلك؟ ولكن أمكنه تمييز ما يشبه الشعاع السرّي في نظرة البكر من أخواله.

رغم أن الحاكم أخفض ناظريه سريعاً إلى صحنه، فإن الوميض الغريب في نظرته لم يفُتْ دون ملاحظة أخته التي راحت تتابع النقاش حول التبير سراي بانتباه قلق، هذا النقاش الذي بات الجميع يشتركون فيه ما عدا ابنها.

نعم ما عدا مارك ـ عالم الذي ألفى نفسه رغم ذلك في قلب التبير سراي. . . مما جعل حفيظة والدته تنشغل، وكأنها طعم لحمّى موقدة. أتسمح لنفسها بأن ترمي بابنها الذي طالما حرصت عليه وسهرت، في قفص الوحوش الكاسرة الذي لم يكن في الحقيقة سوى آلية عمياء، قدرية ووحشية كما أجمع الكل على وصفه رغم تسميته الفاتنة؟

وجعلت ترمق بطرف عينها وجه ابنها الهزيل. كيف يسع مارك ـ

عالم أن يهتدي وسط بلبلة الأحلام هذه، وفي ندائف الرقاد الضبابية، وفي الكـوابيس الخارجـة عن تخـوم المـوت؟ كيف تـركتـه يلج جهنـماً كهذه. . . وراح الحديث عن التبير سراي يتواصـل من حولـه ويمتد، غـير أن التعب صرفه عن متـابعته. وطفق كـورت وأحد أبنـاء خالـه يتناقشان حول ما إذا كان إحياء سلطة قصر الأحلام، أمارة عـلى أزمة حالية تعصف بالدولة العثمانية الكبرى، أو كان ذلك صدفة، في حين أخذ الحاكم يكرر الدعوة: هلمّ، هلمّ، نتحدث عن شيء آخر. . .

في نهاية المطاف، قام الزوار ليتنـاولوا القهـوة في الدار. ولم يمضـوا إلى بيوتهم سوى في وقت متأخر جـدّاً، قرابـة منتصف الليل. وتـوجه مارك ـ عالم بخطى بطيئة نحو غرفته في الـطابق الأول. لم تكن لديـه أدنى رغبة في النوم، إلا أن الأمر لم يشغله كثيراً وسبق وأخبره بعضهـم أن المستخدمين الجدد في التبير سراي يعانون بشكل عام في الأسبوعين الأولين أرقاً مقيماً، ولكنهم سرعان ما يستعيدون رقادهم.

تمدَّد على سريره وظل فاتحاً عينيه لوقت طويل. وكـان ذهنه صـافياً للغاية. بل كان ذلك أرقاً خـالياً من الآلام، منتـظماً وبارداً. عـلى أن الأرق هـذا لم يكن الأمر الـوحيد الـذي تبدَّل فيـه إذ اعترى شيء من التحوّل كل ما في كيانه.

ودقت ساعة الملقى الكبيرة معلنةً الثـانية فجـراً. وقال في سره إنـه لسـوف يخلص إلى النوم في الثـالثة، أو في الثـالثة والنصف عـلى أبعد حد، ولكن حتى لو زاره الرقاد، من أي ملف تراه يختار أحلامه لهـذه الليلة؟ كانت تلك آخر فكرة له قبل أن يغرق في سبات عميق.

الفصل الثالث

التأويل

نُقل مارك ـ عالم إلى شعبة التأويل أبكر بكثير مما توقع، وحتى قبل أن يهلّ الربيع ويدل على قدومه (إذْ قال في سرّه إنه سوف يمضي هـذا الربيع عـلى الأقل وحتى الصيف القـادم في شعبة الانتقـاء) وحتى قبل أن يستشعر الناس بالفصل الجديد.

ذات يوم، وقبل أن يدقّ الجرس معلناً استراحة الصباح، دُعي إلى أن يمثل أمام الإدارة العـامة. بشـأن أي مـوضـوع؟ سـأل الـرسـول مستعلماً ولكن لمـا رأى أن شفتيه تفـترّان عن ابتسامـة تهكم امتنع عن ذلك للحال. فمن المحتم ألاّ يُـطرح هذا النـوع من الأسئلة في التبير سراي.

وفيما هو يجتاز الممشى، راحت تختلط في روعه كـل أنواع الشكـوك والافتراضات. أيكون قد اقترف خطأ في عمله؟ وهل حدث أن أحداً أتى مكرهاً من أقصى الامبراطورية يطرق على كل الأبواب، منتقلاً من مكتب إلى آخر، ومن وزير إلى وزير، وهو يطالب بحلمه الـذي رمى به إلى سلة المهملات ظلماً؟

حاول أن يتذكر الأحلام التي وضعها جانباً في الأيام الأخيرة بشيء من التردد، ولكن لم يجد سبيلاً إلى تذكر أحدهـا. ولربمـا تعدّى الأمـر

ذلك. ربما استدعي اليوم لأمر مختلف تماماً. ومع ذلك، لم تكن الحال في التبير سراي على ما كانت عليه: إذ كلما استدعوك، كان السبب في استدعائك ما لم تكن لتتخيله أبداً. أيكون لإفشاء بسر؟ ولكنه لم يلتق بأحدٍ من رفاقه منذ تعيينه، وبينما راح يتسدل على طريقه على امتداد الممرات، فطن إلى أنه سبق وذرَع هذا الجناح من القصر فقال في سرّه إن هذا الانطباع تكوّن له ربما بسبب أن كل ممرات البناء تشابهَ نقطتي ماء، ولكنه لما وجد نفسه أخيراً في الغرفة ذات المدفأة حيث يجلس رجل وراء طاولة خشب، وبدا وجهه مستطيلاً ذا نظرة محدقة باستمرار في الباب أدرك بما لا يقبل الشك أنه طَرَق يوم وصوله الأول إلى التبير سراي باب مكاتب الإدارة العامة فيه. ولما كان مستغرقاً في عمله نسي وجود الرجل ذي الوجه المستطيل الذي كان استقبله ذلك اليوم، وها هو الآن يجهل ما كانت وظيفته بالتحديد في قصر الأحلام. أيكون أحد مساعدي المدراء العديدين، أو المدير العام بشخصه؟

واقفاً أمامه، في هيئة المنذهل قلقاً، توقع مارك - عالم أن يبادر الآخر إلى توجيه الكلام إليه غير أن عيني كبير الموظفين لبثتا تتأملان الباب، في علو القبضة، ولما أنِس من محدّثه هذا الميل، ظنّ مارك - عالم لوهلة أن هذا ينتظر أمراً قبل أن يعرض له سبب استدعائه. ولكن الموظف انتهى إلى أن كفّ نظره عن الباب.

- مارك - عالم. . . قال بصوت خافت للغاية.

أما هذا فقد سرى إلى وجهه العرق البارد. ولم يدرِ أيّ هيئة يتخذ، أيجب عليه أن يقول «أمراً وطاعة»، أو التلفظ بصيغة من التبجيل أم أن ينتظر بلا حراك خبر المصيبة. وفي تلك اللحظة، كان

واثقاً من أن استدعاءه إلى هنا لم يكن إلاّ لدواعٍ مغضبة.

- مارك - عالم... كرّر الآخر. كما قلت يوم وصولك إلى هنا، أنت تناسبنا.

يا إلهي: قال مارك - عالم مخاطباً نفسه على حدة. ها قد عادت ثانية هذه الجملة الصغيرة الغريبة التي ظنّ أنه لن يسمعها أبداً...

- أنت تناسبنا، ردّد كبير الموظفين، ولذا أنت منقول منذ اليوم إلى التأويل!

شعر بأذنيه تطنان. ومالت عيناه تلقائياً نحو المدفأة الموضوعة في وسط الغرفة وقد غطى الرماد نصف الجمر، وبدت له مضاءة بابتسامة متشنجة أشبه بما يباشره بعضهم إذ يغمضون جفونهم نصف إغماضة. كان ذلك الجمر ذاته الذي أهلك رسالة التوصية خاصته، يوم وصوله المشهود، وبدا الآن متحصناً في نوع منَ اللامبالاة.

- لك الحق في ألاّ تظهر أيّ علامة رضى، قال صوت الآخر.

فتساءل مارك - عالم: كيف تراني أتصرف إزاء الأمر؟

والواقع أنه لم يعتره أيّ فرح، ولكنه أدرك أنه صار أَولى بالشكر مما كان عليه قبل قليل حين كان لا يزال في ذروة القلق. وما أن همّ بفتح فمه ليلفظ بعض الكلمات، حتى قاطعه الموظف قائلاً:

- أنا أفهمك. فأنت إن لم تعبّر عن أيّ فرح، ذلك لأن فيك ضمير المسؤولية الذي يخوّلك الالتزام بمهامك الجديدة، وقد دعيت شعبة التأويل بحق مركز العصب في التبير. ولئن كانت المكافاءات التي تعطى للموظفين فيها مرتفعة جداً فإن العمل فيها بالغ الصعوبة

(إذ يلزمك غالباً ساعات عمل إضافية) ومن جهة أخرى يتحمل المشتغل في التبير سراي على عاتقه المسؤولية، وهي أساس اشتغاله. ينبغي لك أن تثمِّن الخطوة التي أعطيت لك. ولا تنسَ أن الدرب الذي يفضي إلى ذرى التبير سراي يمر بشعبة التأويل.

ألقى، للمرة الأولى، بنظره على مارك ـ عالم، لا إلى وجهه بل إلى نصف علو جسمه وكأنه القبضة بمثابة الباب لو كان هذا مقابلته.

الدرب إلى ذرى التبير سراي يمر عبر التأويل، قال مارك ـ عالم في سره متمتماً ومكرراً الجملة التي سمعها للتوّ وهمَّ أن يجيب بأنه لم تكن لديه الإمكانات المطلوبة لهذه الوظيفة البالغة الدقة وهي حلّ معميات الأحلام. ولكن الآخر استبق الأمر، وكأنه عارف بطوية مارك ـ عالم وقال:

ـ تأويل الأحلام في التبير سراي هو أمر شاق، وشاق للغايّة، ولا صلة له بالتأويل المبتذل الذي يجريه العامة: حيّة تعادل نذير الشؤم، تاج، فأل حسن، ورواسم أخرى من هذا النوع. لا شيء مشتركاً مع كل الأعمال التي تبحث في أمر مفاتيح الأحلام. التأويل لدى التبير سراي من مستوى آخر، أرقى بكثير من كل هذا. وهو يخضع لمنطق آخر ولرموز أخرى أو لتراكيب من الرموز.

وكاد مارك ـ عالم أن يقول: بل أنا أضعف كفاية في عمل كهذا. ولما كان أرعبَهُ مجرد التفكير في حل رموز تقليدية، فكيف به إذا كان ما يعمل على حلّه رموزاً جديدة كل الجدّة. وهذا ما يضاعف الأمر سوءاً: وهمّ بفتح فمه أخيراً، إلاّ أن الآخر سارع إلى مقاطعته قائلاً:

ـ ربما تساءلت عن كيفية تعلمك مفاتيح حلّ الرموز. لا تخشَ

شيئاً يا بني، لسوف تتعلم ذلك وحتى أسرع كثيراً مما تظن. إذْ أن هؤلاء بدأوا هكذا، مثلك أنت، تردُّد ودون كبير ثقة في ذواتهم، يشتغلون حتى غدوا فيها بعد فخر التأويل. أسبوعان، ثلاثة أسابيع على الأكثر وتجدك بارعاً فيه. ثم (وأومأ إليه بالاقتراب فتقدم مارك ـ عالم خطوة باتجاه الطاولة) لن يحتاج إلى أمر آخر مطلقاً. ومن الضارّ أن تعلم أكثر مما ينبغي لك، لأن ذلك من شأنه أن يحوّلك حلّال رموز آلياً. فالتأويل عمل خلّاق بالدرجة الأولى. ودراسة الصور والرموز ينبغي ألا تبلغ أقصى مراتبها، والأهم هو أن يتبنّى المرء بعض المبادىء، كما في الجبر. مع ذلك يجدر بهذه المبادىء ذاتها ألا تؤخذ أخذاً جامداً وإلاّ فقد هذا العمل معناه الحق. والتأويل الكبير يبدأ حيث تنتهي الرتابة. تركيب الرموز على هذا سوف يصرف كل انتباهك، قبل أيّ شيء آخر. وإليك نصيحة أخيرة: إن العمل كله في التيير يشكل سرّاً كبيراً، ولكن شعبة التأويل، هي سرُّ الأسرار. لا تنسَ ذلك. والآن هّيا إلى عملك الجديد لقد أُخطر الآخرون بمجيئك. حظاً طيباً!

خرج مارك ـ عالم دافعاً الباب بهيئة المذعور، وكانت عينا الموظف عاودتا التحديق فيه وهام على وجهه في الممرات، خالي الذهن إلى أن تماسك، وتذكر أنه يبحث عن شعبة التأويل. كانت الأروقة مقفرة تماماً.

بدا له أن ساعة الاستراحة الصباحية كانت مضت حين كان لا يزال لدى كبير الموظفين: وهذا الهدوء العظيم لن يجد له تفسيراً مغايراً.

وقد تعرّف ها هنا إلى الصمت الذي استعاد سيادته التامة بعد

الاستراحة. مشى طويلاً أملاً في لقاء أحد يستعلم منه عن المكان. ولكن أحداً لم يبدُ لناظريه. وظنّ حيناً أنه سمع وقْعَ خطى في موضع أمامه بعد المنعطف الذي يخطه الرواق، ولكن ما أن بلغ هذا المنعطف حتى تاه وقْعُ الخطى بعيداً، ربما في الطابق الأعلى، وربما في الأسفل. «وإن رحت أجول هكذا طوال الصبيحة على غير هدى، قال في نفسه قلقاً: لسوف يُقال إنني في أول يوم عمل لي قدمتُ متأخراً». حتى لم ينِ قلقه يتعاظم. كان ينبغي له أن يستفسر عن نائب المدير أو أقله المدير العام. أو تبأ أحداً ما - عن الطريق الذي ينبغي سلوكه للوصول إلى هنالك.

تابع سيره. وبدت له القاعات واحدة تلو الأخرى أليفة وغريبة في آن. ولم يكن يسمع حتى أدنى انفتاحة باب. وسلك في درج عريض وصعد إلى الطابق الأعلى، ثم نزل إلى نقطة انطلاقه، ووجد بعد لحظات أن ثمة طابقاً آخر في الأسفل. الصمت نفسه أنّى كان ونفس الفراغ: حتى انتابه شعور بأنّ حائلاً واهناً يمسكه عن الصياح. إذْ ينبغي أن يكون الآن في جناح بعيد جداً عن قلب البناء وقد بدت له أعمدة الدعم في الرواق ضئيلة الكثافة. وفجأة، وفي اللحظة التي استعد فيها ليعود القهقرى، لدى طرف الممر، هناك حيث يبدأ منعطفٌ، ظنّ أنه تميّز شكلاً بشرياً. توجه نحوه. ظلّ الرجل مسمّراً أمام الباب. وقبل أن يدنو منه مارك - عالم أشار له الآخر بالوقوف. فجمد في موضعه.

- عمّاذا تبحث؟ رمى له الرجل المجهول. ممنوع المرور من هنا.

- أبحث عن شعبة التأويل، نصف ساعة وأنا أدور في دوّامة.

أخذ الرجل يتفحصه بهيئة من الريبة.

- أنت تعمل في التأويل ولا تعرف الطريق إليها.

ـ لقد عيّنت لتوي فيها، ولكنني أجهل أين تكون.

تابع الآخر تفحصه له وخلص إلى القول:

ـ عد من حيث أتيت، واتبع الرواق حتى مصعد الدرج الكبير، وحين تبلغ قرص الدرج، انعطف إلى الرواق على يمينك. فتجد التأويل في آخره، أمامك بالضبط.

ـ شكراً، قال مارك ـ عالم وهو يعود على عقبيه.

ثم إنه جعل يردّد، ما مشى، ذلك الكلام كي لا ينساه: ممشى رئيسي حتى الدرج الكبير، طابق أعلى، ورواق إلى اليمين...

ـ من تراه يكون هذا الرجل الذي قدم لنجدته؟ قال ذلك في سرّه. وتهيأ له أن يكون حارساً ولكن تباً له من حراسته هذه في عالم الصم ـ البكم هذا؟ فهذا القصر ممتلىء بالأسرار حتماً.

ومن بعيد، خيّل إليه أنه يتميز ضوءاً باهتاً يهبط من الزجاجة الكبيرة التي تشرف على قفص الدرج، فتنفس الصعداء واستراح.

مضت ثلاثة أسابيع على عمله في التأويل. في أثناء الأسبوعين الأولين كان شديد الارتباط بالموظفين المهرة ذوي الخبرة، متلقناً منهم أسرار حلّ معميات الأحلام، إلى أن أتاه قائده وقال له:

ـ لقد تعلمتَ للآن ما يكفي. وسوف يكون لك من الغد ملفك الخاص.

ـ أبهذه السرعة؟ قال مارك ـ عالم. ولكن أتراني قادراً على العمل وحدي؟

ابتسم القائد وقال:

ـ لا تقلق فهذا ما بدأ به الجميع.

ثم إليكَ بمراقب القاعة؛ فإن وقعت في أدنى شك، يمكنك أن تتوجه إليه.

مضى يشتغل في ملفه أربعة أيام متتالية وتولاه من ذلك اضطراب في رأسه ما شعر به قط. فعمل الانتقاء الذي طالما اعتبره منهكاً، بات له اليوم محض لعب، إذا ما قورن بمهمته الجديدة، وما تصور مطلقاً أن يكون الاشتغال في التأويل جهنمياً إلى هذا الحد.

كان القيمون قد سلّموه ملفاً سهلاً على حد اعتبارهم: حياة مدنية، وفساد، وكان يقول في سره أحياناً: يا إلهي، إذا كدت أفقد صوابي حيال ملف كهذا، فما بالي إذا مااشتغلت في ملف المؤامرات المحاكة ضد الدولة؟

كان الملفّ محشواً بالأحلام. وكان قرأ ستين منها وأبقى عشرين جانباً إذْ أنِسَ من نفسه القدرة على حلّها. ولكنه حين رجع إليها أدرك العكس، إن هذه كانت الأكثر إشكالاً. فاختار من مجموعة الستين بعض الأحلام الأخرى التي بدت له قابلة للتأويل أول الأمر ولكنها سرعان ما غدت لناظريه بعد ساعة أو ساعتين، شديدة التشوش والقتام، ومغرقةً في الغموض، لتتحول آخر المطاف ألغازاً حقيقية.

مستحيل! طفق يصرخ مرّات متوالية في ذاته. سوف أصير مجنوناً! إذْ مضت أربعة أيام بلياليها ولم ينجح في حلّ معميات حلم واحد من أوله إلى آخره. وكلما ظنّ أن بعض العناصر تأخذ قدراً من المعنى، أدركه الشك بأن ما كان بدا له للحظات خلت واضحاً بات له الآن عصياً على الشرح. لكن في الأمر جنوناً، وكل هذه الرواية ما هي إلاّ

محض جنـون! جعل يـردّد في سرّه مغطيـاً عينيه بكلتـا يديـه، وتملكته فكرة أن خطأً محتملاً سوف يقع. كان ثمة لحظات يـوقن فيها أنَّ كـل ما يباشره المرء في هذا التأويل هـو عرضـة للأخـطاء فحسب، وأنه لا يبلغ المرء إلى الصواب فيه سوى بالصدفة.

أحيـاناً، كـان يعصف به قلق محمـوم. إذْ لم يكن تقدّم بعـد بـأيّ حلم معالج إلى رؤسائه. وربما عدّه هؤلاء عـاجزاً، أو فـزعاً للغـاية. ولكن كيف يتصرف الآخـرون الذين يـراهم يملأون صفحـات كاملة من كتابتهم؟ يا إلهي من أين لهم هيئة الصفاء هذه؟

الحق يقال، إن كل حلّال بوسعه أن يخرج من ملفه بعض الأحلام التي لم يتوصل إلى شرحها، لتنقل إلى الحـلاّلين المخـوّلين بتصريفهـا، أي أساتذة شعبة التأويل، ولكن ليس بإمكان الحلّال طبعاً أن يصنّف غالب ملفاته في خانة التأويل الصعب.

حكّ مارك ـ عالم صدغيه كأن ليطرد الدم الذي كان تجمـع، وأبى إلاّ الركود فيهـا. وراحت الرمـوز تتوالى بـالعشرات في ذهنه: شـارة الطبابـة، الدخنـة، العروس الشـابة العـرجاء، الثلج.... وطفقت تتحرك شأن راقصة السربندة(*) الجـامحة، طـاردة من الخاطـر تمثلات العالم العادية، وجاهدة في إحلال الحركات المسعورة والعجيبة محلّهـا. ليكن مـا يكون، فـأنا سـوف أُعـطي هـذا الحلم أول شرح يخـطر في بالي، قال هذا واضعاً ورقة أمامه. هيا، فليحالفني الحظ!

وكان ما تناوله حلم تلميذ في مدرسـة دينية من العـاصمة. ومؤداه أن رجلين كانا وجدا قوس قـزح عتيقاً وقـد انهار. وبعد جهـدٍ جهيد

(*) السربندة: رقصة قديمة من القرنين السابع عشر والثامن عشر.

أمكنهما أن يوقفاه على قدميه، وجعلا ينفضان الغبار عنه، وانصرف أحدهما إلى تجديد طلائه، غير أن قوس القزح كان يأبى استعادة الحياة مطلقاً. حينئذٍ تركه الاثنان يهوي ومضيا راكضين.

هم... غمغم مارك ـ عالم ضاغطاً ريشته بين أصابعه. أعدّ نفسه للكتابة، ولكن انطلاقة الجرأة ما لبثت أن تلاشت. رغم ذلك انكبَّ على الحلم، وأخذ يكتب تحته دون عناء في التفكير، أو بالأحرى معدِّلاً شرحه الأول للحلم بصورة مفاجئة: إنذار بِ.... إنذار بِ....

آه يا إلهي، ماذا يريد حقاً أن يعلنه هذا الكابوس؟ أيصرخ بصوت عال. ولكن الأمر مما يدفع إلى الصياح، بل إلى الجنون: شطب كلمتي إنذار بِ.. ورمى الورقة بغضب إلى كدسة الأحلام العصيّة على التأويل. كلا، إنه ليفضل أن يُعفى بأسرع ما يمكن على أن يهتم بحماقات مماثلة: أسند جبينه بيديه وظل هكذا وعيناه نصف مغمضتين.

لم تمضِ هنيهة حتى سمع صوت ناظر القاعة الرقيق:

ـ مارك ـ عالم ما بالك؟ أبكَ صداع؟

ـ نعم قليلاً.

ـ لا تهتم، هذا شأن الجميع في البداية، هل أنت بحاجة إلى أيّ شيء.

ـ شكراً قد آتي إليك للحال لأطلب منك بعض الشروح.

ـ حقاً؟ حسن. انتظرتك كل هذه الأيام.

ـ لم أشأ أن أزعجك بشأن نعم أو بشأن لا..

ـ أوه، لا تأخذنّك هذه الوساوس. أنا هنا من أجل مساعدتك.

ـ حتى ساعة من الآن، سوف آتيك بشيء، قال مارك ـ عالم رغم أنّ. . .

ـ رغم أنّ. . .؟

ـ رغم أنّني لست واثقاً بالأمر تماماً. . . إذْ قد تكون شروحي مغلوطة بالكامل إن هي لم تكن حماقات صرفة.

ابتسم الناظر وقال قبل أن يبتعد.

ـ أنتظرك.

«ليس أمامي الآن أيّ منفذ، قال مارك ـ عالم في سرّه. إذْ ينبغي لي أن أنجز هذا العمل طوعاً كان أم كرهاً. هيّا، قال، وليكن ما يكون!» وعاد إلى ورقة الحلم الذي يذكر أن جماعات من الرجال المرتدين الأسود يعبرون هوة قبل أن يتيهوا في سهل مغطى بالثلج. بغتة، بدا له معنى الحلم واضحاً: جماعة من الموظفين بعد أن قامت بعملية ابتزاز للدولة، وأشرفت على تخطي الحواجز التي تحول دون تآمرها تتقدم الآن في سهل مغطّى بالثلج، مما يعني سقوط حكم.

وما أن انتهى سريعاً من كتابة آخر جملة من شرحه حتى استدرك في ذاته؟ ولكن في الأمر مؤامرة ضد الدولة. وأعاد قراءة شرحه وارتاح إلى أنّ في تأويله ما ينطبق على المكيدة انطباقاً تاماً، والحال، إنهم أناطوا به الملف الخاص بالحياة المدنية والفساد. ومن يأسه انحلّ رباط يديه فوقعت الريشة أرضاً. وها هو يفشل من جديد حين ظن لمرة أنه تمخض عن شيءٍ ما! ولكن مهلاً قال في ذاته ربما لم يكن الأمر على هذا النحو وبعد إمعان الفكر لم يكن بين الفساد والمؤامرة المحاكة ضد الدولة سوى خطوة واحدة، ما دام الموظّفون معنيّين بهذا الأمر أو

ذاك. ومن ثم ـ آه كما كان أحمق لكونه لم يفكر في الأمر أبكر من هذا: ثم إن تصنيف الملفات لم يكن على صرامته المعهودة ولم يُشرْ مطلقاً إلى أن ملف الحياة الخاصة لم يتضمن إلى ذلك أحلاماً تمسُّ شؤون الدولة العليا. مع ذلك، ألم يُكرّر على مسامعهم أن أيّ مستخدم في التبير سراي يدل على قرينة هامة حيث لم يكشف للوهلة الأولى سوى عن علامات عادية للغاية، يلقى مكافأة أكيدة. نعم، نعم، إنه ليذكر ذلك التعميم جيداً. حتى ادّعى بعضهم أن كثيراً من الأحلام القصوى كانت استخرجت من الملفات الأكثر ابتذالاً.

وأخذت الجرأة مارك ـ عالم. وقبل أن يخفت حماسُهُ، أخذ أربعة أحلام واحداً تلو الآخر، وكان قرأها مرات متتالية، وجعل يسجل فوراً تحت كل منها التفسير الذي يهبها إيّاه وبدا مسروراً من نفسه، همّ بأن ينتزع ورقة الحلم الخامس حين حثته علة غامضة على التفتيش بين كدسة عن الحلم الأول وعلى قراءة الشرح الذي أرفقه به. وسرعان ما اعتراه الشك. ألم أخطىء، أيمكن شرح هذا الحلم بشكل مغاير؟ راح يردد في ذاته. وبعد مضي برهة، ثبت له يقيناً أنه كان ضالاً في تأويله. فغشي جبينه عرق شديد البرودة، وراح يتأمل وعيناه جامدتان الخطوط التي رسمتها يده لفترة خلت، وقد بدت له الآن غريبة ومعادية. ماذا ينبغي له أن يفعل؟

ثم قال في نفسه: تبأ لهم، مَنْ مِنَ الناس سوف يظهر كبير اهتمام بهذا الحلم بين عشرات آلاف الأحلام التي عولجت هنا؟ وما كاد يترك الورقة على حالها حتى انفكت عنها يده ثانية في اللحظة الأخيرة. وإذا أتاه أحد كاشفاً عن خطئه؟ سيما وأن هذا الحلم قد يضع موظفين في الدولة موضع الاتهام! ذلك أن الأوساط الرسمية يمكن أن تكون

مستهدفة بشكل أو بآخر. وأسوأ ما في الأمر أن كل مسؤول قد يحمل هذا الاتهام محمله فيرى إلى المكيدة مصوبة نحوه وإلى محيطه. فيسعى الحاكم في أثر من أعطى شرح هذا الحلم وإذْ يطّلع على مضمونه وما هو عليه يقول: عجباً امرؤ يدعى مارك ـ عالم، غرٌ يكاد أن تطأ قدماه التبير سراي، شاء في تحليل أول حلم أن يلطخ بالوحل رجالات المراتب العليا في الدولة. فلتوضَعْ قيد المراقبة هذه الحية السامة!

وبحركة خاطفة رفع مارك ـ عالم الورقة عامودياً عن الطاولة، كأنما خشي أن يرى أحدهم ما كتبه عليها. وبات عليه أن يحاول إصلاح خطئه هذا ما لم يفت الوقت بعد. ولكن كيف؟ وفكّر عندئذ أن يحذف هذا الحلم حذفاً وببساطة، ولكنه سرعان ما تذكر أنه دوّن على غلاف كل ملف عدد الأحلام التي احتواها. وأن تصرفاً مماثلاً قد يؤدي به إلى السجن مباشرةً باعتباره جانياً سفيهاً. شيء آخر، قال في ذاته، شيءآخر. يجب أن يفعل شيئاً آخر! آه لو لم ينكبّ على الورقة، ولو لم يبادر إلى الريشة مثل أحمق، لكان تسنّى له أن يشرح هذا الحلم بطريقة مغايرة تماماً. ذلك أن حماساً شبه شيطاني كان دفع به إلى أن يسوّد هذه الورقة فيسبّب المصيبة لنفسه. أما الآن فقد بات كل شيء كريهاً له، ولكنه استدرك نفسه وقال في ذاته، مهلاً، دون أن يرفع عينيه عن كتابته، فقد بات كل شيء هباء. وراح يراجع النص بسرعة خاطفة وردّد في نفسه أنه لم يزل بعد وسيلة ما لإصلاح ما حصل. وما أن انتهى من قراءة الصفحة الثالثة، حتى أدهشه ألا يكون أمعن في الأمر تفكيراً أبكر مما فعل. وسرعان ما انفرجت أساريره، وأضاءت على التوالي وجنتاه وبلغ الانفراج حنجرته حتى

رتيبه. ففي آخر المطاف لا تعدو التصحيحات في النص كونها أمراً مألوفاً. ولسوف ينفذ تصحيحه بطريقة لا تثير الانتباه، بل جعل يوحي بأن ما يفعله هو بمثابة إيضاح إضافي يعطي لهذه الجملة أو تلك، أو بمثابة تصويب طفيف في الأسلوب. وكان يكفيه أن يضيف فعلاً فحسب. وأعاد قراءة الجملة كذا مرَّة: «فريق من الموظفين، بعد أن حاك مؤامرة ضد الدولة... ثم أضاف، أخيراً، وبيد مرتجفة بعد أداة النصب أن عبارة «حالَتْ دون» وأعاد النظر في تصرف فعل «حاك». حتى صار للجملة المعنى المعاكس التالي: «فريق من الموظفين، بعد أن حال دون القيام بمؤامرة ضد الدولة...» وعاد إلى قراءتها مرة، مرتين وبدا له كل شيء في انتظام. وبالكاد أن يظهر التصحيح. وحتى لو لاحظه أحدهم لظنّه مجرد حذف أثناء الكتابة أجراه المحرز لدى إعادته القراءة للمرة الأولى. تنفس الصعداء. إذْ حُلت المسألة أخيراً... مارك ـ عالم بعد أن حاك هذه المؤامرة ضد الدولة... تطلّع حوله برعب. وإذا اكتشف أحدهم لعبته؟ إن ذلك هراء، قال في سرّه. فأقرب مستخدم إليه يشتغل على نفس الطاولة، كان على مسافة يعجز معها عن قراءة عنوان ملفه، بل عن تمييز السطور التي كان كتبها. أيّ حظ لي في أن أكتب بخط رفيع، قال في سرّه بعد هنيهة، وتنفس الصعداء من جديد. والآن بعد ما انتابه. يسعه أن يرتاح قليلاً. أيّ عمل شيطاني هذا!

رمى بنظرة خاطفة على بقية القاعة، فوجد أن المستخدمين يعملون بسكون، مستغرقين في ملفاتهم حتى لم يسمع صريف الرِّيَش. وكان من حين إلى آخر يخرج مستخدم، مغادراً طاولة العمل حيث هو ويحرص في أن يصدر القدر الضئيل من الضجة، إذْ يتجه نحو

الباب، ولا شك أن أياً من هؤلاء كان ينزل إلى مكتب الوثائق، بغاية أن يستطلع تأويلات الأحلام الشبيهة، ، التي أُنجزت سابقاً، وحتى في فترات قديمة على يد أشهر حلالي الأحلام. يا إلهي! تنهّد متأملاً عشرات الرؤوس هذه المنكبّة على ملفاتها انكباباً.

كان كل رقاد العالم في هذه الملفات، وفي مساحة محيط الرعب هذا يجهد الحلّالون في أن يتميّزوا بعض القرائن، وبعض العلامات التائهة على سطحه. كم نحن تعساء! قال.

وألزم نفسه أن يقرأ بعض الأوراق الأخرى ولكنه شعر بأن دماغه بات أشبه بالمعطل. ولئن قدرت عيناه على تهجئة النصوص، فإن ذهنه صار غائباً.

بعض الجنود الملثّمين. آلاف الأحذية فوق ساحة: وفي الأعلى شريط حديد ممدود عرضاً والثلج لا يزال يتساقط، ولكن هذه المرة راح يتكدس في خزائن ضخمة في الآن نفسه... مع صرَّة رجل: أيّ ذهن مضطرب هذا، تفكّر في نفسه وتذكّر بغتة وقد خالطه شعور أقرب إلى الحنين، أول حلم أنجزه في هذا القصر ثلاثة ثعالب بيضاء على مئذنة جامع المقاطعة الفرعية. حلم جميل، نظيف جداً وفي غاية الوضوح. أين هو هذا الحلم الآن وسط البحر المريب هذا؟ آه...

تنهّد وانتزع له إحدى الوريقات. إذْ كان عليه أن يحلّ رموز حلمين على الأقل إلى أن تحين ساعة الاستراحة، إلاّ أن الجرس الذي يعلن إيقاف العمل طنّ قبل أوانه على ما بدا له، فأغلق ملفه ومضى.

في الطابق تحت الأرض حيث راح المستخدمون يتناولون القهوة أو السحلب سادت حيوية عادية. كان الموضع الوحيد حيث يتسنّى

للمرء أن يتبادل ومعارفه بعض كلمات، كما يتاح له الحديث مع مجهولين. ولما كان مارك ـ عالم قد بقي فترة قصيرة في شعبة الانتقاء، لم يكن له أن يعرف سوى عدد ضئيل من الناس، حتى أنه نادراً ما كان يلتقي بهم لدى الحانة. ولكن حتى لو التقى فأحرى باللقاء أن يثير فيه انطباعاً غريباً؛ إذْ يبدون غاية في البعد، وكأنهم ينتمون إلى مرحلة متصرمة من حياته. وكان يؤثر أن يباشر نقاشه مع مجهولين. ففي الانتقاء لم يستشعر الرضى يوماً واحداً، ربما لهذا الأمر كان يتهرّب من أيّ لقاء مع مستخدمي هذه الشعبة. أما في شعبة التأويل، فكانت الأيام على نفس السوية من الضجر والاكتئاب ما عدا ذلك النهار الذي توصل فيه أخيراً إلى أمر قيِّم. وربما لهذا السبب نزل إلى الحانة اليوم بقلب خليٍّ من الهمّ بخلاف المرات الأخرى التي ينزل فيها بقلب ملؤه الغم.

ـ أين تعمل؟ قال طلق المحيا لرجل في مقابلته كان وجد مكاناً شاغراً لدى طاولة مغطاة بالطاسات والكؤوس الفارغة.

امتقع الآخر للحال وكأنّه ازاء أعلى منه مرتبة.

ـ في مكتب النسّاخ أيها السيد، أجابه.

لم يكن مارك ـ عالم ليخطىء بشأنه، إذْ يقدّر المرء على الفور أن هذا المستخدم عُيِّنَ لتوه مثلما كَأنَّهُ لشهرٍ خلا.

ـ لأنت أبللت من مرض؟ سأله بعد أن ارتشف جرعة من قهوته متعجباً من ثقته بالنفس. إنك لتبدو شاحباً بالكامل.

ـ لا يا سيدي أجابه الآخر، ووضع كأس السحلب للحظة أمامه على الطاولة. إنما لدينا الكثير من العمل و. . .

ـ نعم، حتماً رد مارك ـ عالم بنفس النبرة المرتفعة، دون أن يفهم

جيداً من أين واتته هذه النبرة. ـ ربما كانت الفترة مجال نـموّ متصاعـد للأحلام؟

ـ نعم، نعم، قال الآخر هـازّاً رأسه بعنف حتى خيّـل إلى مارك ـ عالم أن هزتين أو ثلاثاً من هذه كانت كافيةً لينخلع عنقه النحيف.
ـ وأنت؟ سأله الآخر بصوت وجل.
ـ في التأويل

فالتمعت عينا مقابله التماعاً جوانياً، وأبان عن ابتسامة بدت وكأنها تنطق عن يقينه: لقد حزرت تماماً.

ـ اشرب، لسوف تبرد، قال مارك ـ عالم حين لاحظ أن الآخـر لم يجرؤ على رفع كأسه عن الطاولة.

ـ إنها المرة الأولى التي أكون فيهـا ازاء سيد من شعبـة التأويـل قال الآخر بهيئة المتـأثر، كم أنـا سعيد! وجعـل يمسـك بكـأس السحلب مرتين أو ثلاثاً ويعود إلى وضعه على الطاولـة دون أن يجرؤ عـلى رفعها إلى شفتيه.

ـ أَمَضى زمن طويل على عملك في القصر؟
ـ شهران سيدي.
ـ إن شهرين لكفيلان بأن يجعلاك جلداً على عظم. تفكّـر مارك ـ عالم في ذاته. والله وحده أعلم بما يصير إليه بعد مضي زمن ما...

ـ يتوجّب علينا الكثير، الكثير من العمل، في الفترة الحـالية، قـال محدِّثه مرتشفاً سحلبه أخيراً. حتى ليضـطرنا ذلـك إلى عمل سـاعات إضافية كل يوم.
ـ إن ذلك ليفقأ العيون، قال مارك ـ عالم.

فردّ الآخر بابتسام كأن ليقول: أوَ هذا خطأي؟

وأضاف قائلاً:

ـ صادف ان كانت غرف حفظ الأسرار قريبة منا، وكلما احتاجوا إلى نسّاخ لإعداد الاستجوابات استدعيت.

ـ غرف حفظ الأسرار؟ سأله مارك ـ عالم، ما تكون هذه؟

ـ ألا تعرف؟ قال رفيقه. وسرعان ما ندم مارك ـ عالم على طرحه هذا السؤال.

ـ لم يكن لي شأن بذلك، تمتم، ولكن سمعت بذلك طبعاً.

ـ إنها غرف، بهذا المعنى، ملاصقة لمكتبنا، قال الناسخ.

ـ أتكون الغرف التي توجد في الجناح الذي يحميه الحرّاس؟

ـ بالضبط، قال الآخر بكثير من البهجة، فالحراس يقيمون بالتحديد أمام باب هذه الغرف، مررت من هناك إذن؟

ـ نعم ولكن من أجل شأن آخر.

ـ مكاتبنا على قاب قوسين منها ولذا يتوجه العاملون فيها إلينا كلما احتاجوا إلى نسّاخ. نعم العمل فيها جهنمي حقاً. في هذه الأثناء، ثمة امرؤ تلاحَقَ استجوابه أربعين يوماً بلا توقف.

ـ ماذا فعل؟ سأل مارك ـ عالم، مرفقاً سؤاله بتثاؤب ليضفي على كلامه شيئاً من اللامبالاة.

ـ كيف ذلك، ماذا فعل؟ نعرف ذلك تماماً، قال الآخر محدقاً في نظر مارك ـ عالم. إنه صانع أحلام.

ـ صانع أحلام، وبعد؟

ـ في هذه الغرف، كما تعرف ذلك بلا شك، يحجر على صانعي الأحلام الذين يرتئي التبير سراي وجوب استدعائهم ليطلب منهم

المزيد من الشروح عن الحلم الذي بعثوا به إلى هنا.
ـ آه حقاً تناهى إليّ هذا الأمر، قال مارك ـ عالم وكاد أن يتثاءب ثانية لمّا رأى للمرة الأولى، جذوة الحماس في عيني محدثه تخبو.

ـ لربما خلتني أتحدّث عن أمر سرّي، كما كل الأمور هنا، ولكن لما كنت تعمل في التأويل كما قلت لي، ظننت أنك على علم بهذه الشؤون.

وراح مارك ـ عالم يضحك.

ـ أراك ندمتَ على حديثك إليّ؟ اطمئن: أنا أعمل حقاً في شعبة التأويل، وفي متناولي أسرار أهم بكثير مما كشفتَ لي.
ـ بالطبع، بالطبع، قال الآخر متمالكاً نفسه.

ثم، أضاف مارك ـ عالم خافضاً صوته:

ـ دون حسبان انتمائي إلى عائلة الكوپريلي، ليس ما تخشاه إذن. . .
ـ يا إلهي، قال الناسخ، كان بي مثل هذا الحدس. . . أيّ حظوة نلتُ بأن تبادلني بعض الكلمات!
ـ وكيف تسير الأمور بشأن صانع الأحلام هذا في غرفة حفظ الأسرار؟ قاطعه مارك ـ عالم، هل ثمة تقدم؟ أنت ناسخ، أليس كذلك؟

ـ نعم سيدي، هذه الأيام اشتغلت هناك، وأنا عدت أدراجي منها. كيف تسير الأمور بشأنه؟ حقاً، ما عساني أقول. . . حتى الآن ملأت شهاداته مئاتٍ من الصفحات. بالتأكيد إنه لفي ضياعٍ كامل، ولكن الخطأ ليس خطأه. فهو رجل من العامة، آتٍ من مقاطعة ريفية

ضائعة في التخـوم الشرقية من البـلاد. وما كـان ليتصور أن يؤول بـه المصير إلى التبير سراي، حيث بعث بحلمه إليه.

ـ وما هو الأمر البالغ الأهمية في هذا الحلم؟

هزّ الآخر كتفيه.

ـ أنا ذاتي لا أعرفه. للوهلة الأولى يبدو لـك عاديـاً، ولكن ينبغي أن يكون منه أمـر ما حتى يجعلوا لـه هذه الأهميـة. ويبدو أن التـأويل أرسل في طلبه للمزيد من التوضيحات. وها أنهم يشقون هذا الشقاء دون أن تتضح المسألة في شيء بل إنها تزداد غموضاً.

ـ ما عساهم يسألون صانع الأحلام؟

ـ يصعب عـليّ أن أجيب عن سؤالك سيـدي. فـأنـا لا يسعني أن أفهم ذلك جيداً. إذ يسألونه بعض الأمور الدقيقة حول نقاط عجيبـة بـالطبـع، ليس أهلاً لأن يتحـدث عنها. وقـد مضى زمن طويـل على إحداثه هذا الحلم... ثم يظل محجوراً عليه أياماً هنا دون أن يعرف شيئاً عن مـوضعـه. حتى إذا لم يحضره شيء من الحلم، كـان ذلـك تحصيل الحاصل.

ـ هل ثمة حالات كثيرة من هذا النوع؟

ـ لا أظن ـ حـالتـان أو ثـلاث في السنـة، لا أكـثر. وإلاّ ارتعب الناس وكفوا عن إرسال أحلامهم إلينا.

ـ بالطبع. وما ينوون عمله بشأنه الآن؟

ـ سوف يستمرون في استجوابه إلى أن، إلى أن... (وفتح الناسخ ذراعيه). حتى أنا لا أعرف الشيء الكثير عن فترة الاستجواب.

ـ إن ذلـك لفي غايـة الغرابـة، قال مـارك ـ عالم. إذْ لا يخلو من عواقب إذن، أن يرسل المرء بأحلامه إلى التبير سراي. وقد يحدث أن

يتلقى رسالة ذات يوم تدعوه إلى أن يمثل ها هنا.

وهمّ محدثه أن يدلي ببعض الملاحظات حول الأمر، حين دق الجرس معلناً نهاية الاستراحة فصافح الواحد الآخر، وافترقا.

وجعل يلح على ذهنه ما صعد الدرج، كلٌ ما ورد على لسان الناسخ. ما تكون إذاً هذه الغرف حيث تحفظ الأسرار؟ وللوهلة الأولى قد تبدو هذه على قدر من المحال، ومنَ العصيّ على التفسير، ولكن الحقيقة بخلاف هذه. كانت تلك، دون أدنى شك، نوعاً من السجن ولكن لماذا؟ والحال إنه لم يبقَ شيء من هذا الحلم في ذاكرة المعتقل كتحصيل للحاصل، على ما ادّعى الناسخ. ولربما كانت هذه غاية اعتقاله الحقة: يجب أن يجعلوه ينسى حلمه، وهذا الاستجواب المضني ليلاً نهاراً وهذا المحضر المتناهي والسعي في أثر إيضاحات مدَّعاة حول واحدة من هذه الرؤى التي يستحيل تحديدها بحكم طبيعتها، حتى يؤول الحلم إلى تفكك وينتهي إلى الانحلال تماماً في ذاكرة مؤلِّفه: أيّ غسل دماغ، تفكّر مارك - عالم في نفسه أو حلم مضاد إن صحَّت اللفظة الجديدة، بالطريقة نفسها التي تحوِّلنا القول: ارتحال «كمطابق لكلمة إقامة»، وغباوة «كمطابق لكلمة تعقّل». وكلما أمعن في التفكير ثبت له أن ذلك كان التفسير الوحيد في الظاهر، يبدو وكأن الأمر يتعلق بالتماعات أفكار هدّامة تلتزم الدولة، لسبب أو لآخر، بعزلها كما تُعزل جرثومة الطاعون حتى يهلك مفعولها.

كان مارك - عالم قد بلغ أعلى الدرج ويجتاز في الحال الممشى الطويل جنباً إلى جنب مع عشرات المستخدمين مثله الذين راحت الأبواب الجانبية تتلقفهم فريقاً تلو آخر. وكلما اقترب من قاعات التأويل تولاه الانطباع بأن شعور الأمان الذي كان ينعم به حتى الآن

في الحانة شأن أيّ شعور من النوع الذي يوحي بالخضوع للآخر أخذ يبارحه شيئاً فشيئاً مفسحاً في المجال أمام الإحساس بالاضطهاد الذي أيقظه فيه قلقه المخاتل من أن يعود مستخدماً نكرة تائهاً في آلية التبير الهائلة.

لمح من بعيد طاولة عمله، وملفه الموضوع عليها: تقدم نحوها ليجلس إلى جانبها كأنّما يجلس على ضفة الرقاد الكونيّ، على حاشية الظلمات من حيث تنقلب خارجةً من أعماق سحيقة، أشبه بفوّارات سوداء ومهدّدة. يا إلهي، شهق، أيّها الإله الكلّي القدرة، احمني.

كان الطقس عاد إلى برودته القارسة. والمدافىء الضخمة، المحشوة بالفحم أوقدت منذ الصباح الباكر عبثاً، فغدت قاعات التأويل جليدية. حتى بدا مارك ـ عالم مستمسكاً بعباءة الفرو عليه. ولم يكن ليفهم من أين يصدر برد كهذا. ألم تحزر؟ كان قال له يوماً امرؤ شاركه شرب القهوة في الحانة. إنه ليصدر من الملفّات. من ها هنا تأتينا كل الشرور، يا بُنيّ. فتظاهر مارك ـ عالم بعدم سماعه. أيّ شيء غير هذا يمكن أن نتوقع صدوره من بلاد الرقاد؟ فهي تشبه بلاد الموت. بئسنا نحن إذ نجبر على الاشتغال بهذه الملفات! ولكن مارك ـ عالم تركه دون أن يجيبه بشيء. فقد تفكّر في أن هذا الشخص ربّما كان محرِّضاً. وبات أكثر قناعة، يوماً بعد يوم، في أنّ التبير سراي حُشيّ بذوي أطوار غريبة وأسرارٍ من كل الأنواع.

ما الذي لم يُروَ له، طوال هذه الفترة، عن التبير وعن كل ما يجري فيه! وكان بدا له للوهلة الأولى أن المستخدمين لا يتفوهون بكلمة في شأنه، ولكن ما برح يلتقط، على مدى الأيام، جُمَلاً قيلَت في الحانة، وأخرى سمعها بالصدفة في ممشى، ولدى أبواب الخروج أو على

الطاولة المجاورة، حتى تكونت عفوياً في ذاكرته فسيفساءات كاملة لا تّمحي بسهولة منها. ولأجل هذا مثلاً ذهب بعض القائلين إلى إثبات أن الحلم، بحكم كونه رؤية فردٍ خاصةً ومنفردة، ينهض شاهداً على مرحلة انتقالية فحسب من التاريخ البشري، وأنه قد يغدو موضوعاً يتسنّى للجميع إدراكه، شأن وقائع البشر وإيماءاتهم. وخلاصة الأمر، فكما تظلّ النبتة أو الثمرة حقبة تحت الأرض قبل ظهورها إلى السطح، كذلك هي أحلام البشر. ولئن كانت حتى هذه الساعة مغمورة في الرقاد، فإن ذلك لا يعني بقاءها على هذه الحالة دوماً. وذات يوم سوف تنبجس الأحلام إلى ضوء النهار لتحتل مكانتها المعهودة في الفكر والاختبار والعمل البشري؛ أما تقدير ما إذا كان الأمر يبدو جيّداً أو سيئاً وما إذا كان ذلك قد يغيّر الكون في الوجهة السلبية أم الإيجابية، فالله وحده أعلم.

في حين يعتبر آخرون أن الرؤيا(*) ما كانت يوماً سوى الزمن الذي تخرج فيه الأحلام من سجن الرقاد، لأن انبعاث الموتى، الذي يتمثله البشر تمثلاً عادياً وماورائياً، لسوف يجد كماله في الواقع، في هذا الشكل الآنف. ألم تكن لهم الأحلام، فيما مضى، بشائرهم أو نذائرهم؟ حتى استرداد الموتى العريق هذا، وهذا التضرّع، وهذا النواح، وذاك الاعتراض - أيا تكن التسمية التي تعطاه - لسوف تُمنح يوماً حقها في الظهور.

وثمة آخرون يشرحون الأمر بطريقة مخالفة تماماً، رغم تأييدهم نمط التفكير عينه. إذْ يرون أن انبجاس الأحلام في مناخ عالمنا الشرس لن يفضي سوى إلى ذبولها وتلفها. وهذا أشبه بما يفعله

(*) رؤيا يوحنا في الإنجيل.

الأحيـاء ليبثّوا صلتهم بقلق الموتى، وبالتـالي صلتهم بالمـاضي. ولئن يرى البعض إلى هذا الانقطاع مأساةً، فإن آخرين يعدونـه خلاصـاً، باعتباره تجديداً حقيقياً للعالم.

ولكم أضجر مارك ـ عالم أن تتكرر على مسامعه هذه المماحكات. إلّا أن ما وجده أكثر إلحاحاً، كانت النهـارات الطويلة بـلا لون، حتى لا يتكلمـون في شيء، وحين لا يحـدث أمر وحـين يكـون مجبراً عـلى العمل، متكئاً على ملفه، ومتنقّلاً من رقادٍ إلى آخـر، نظير من يتنقـل في ضبـابٍ فيبدو للمـرء حيناً عـلى شفـير الانقضـاء، غـير أنـه يـظل بالإجمال ملبّداً ومطبوعاً بالكآبة.

كان ذلك يوم الجمعة. وفي هـذا اليوم يفـترض أن يسود نـوع من الاضـطراب لـدى مـأمـوري الحلم الأقصى. فالحلم الأقصى كـان قـد اختير بالتأكيد وأُعدّ لإرسالـه إلى قصر العاهـل. في الخارج كـانت لا تزال عربة قائـد الجيوش الامـبراطوريـة منتظرة منـذ زمن بعيد محـاطة بـالحراس. لسـوف يمضي الحلم الأقصى ولكن حتى لحـظة مغـادرتـه، سـوف تظلّ الشعبـة نهباً لحيـويّة بـالغة، ولسـوف تتولاهـا حـالـة من التوتر، أو على الأقل الحشـريّة لمعـرفة الكيفيـة التي يتم فيها استقبـال الحلم في قصر السلطان. وبعـامة طـالما كـان يتناهى صـدى ذلـك في الغد: كان الباديشاه راضياً ـ أو لم يقل الباديشاه ـ أو أحياناً: أو كان الباديشاه مستاءً: إلّا أن ذلك نادراً ما يحدث، بل نادراً جداً.

وأيـاً يكن الأمر، فـالنهارات في هـذه الشعبة غـالباً مـا كانت أكـثر حيوية منها في الأخرى، إذْ لبثت تجري بصورة مختلفـة. فالأسبـوع يمر سريعاً، في انتظار الجمعة. أما في الشُعَب الأخرى فلا تشيع الأمور، بالمقابل، سوى الضجر والرتابة والقتامة.

ورغم ذلك يقول مارك ـ عالم في ذاته، كلهم يحلمون بأن يُعيَّنوا في شعبة التأويل. ولو أنهم يعلمون كم تجري الساعات من ها هنا! وكأن ذلك لم يكفهم بعد، إذْ راح القلق الدائم يتردّد أنّى كان. (منذ أن اشتعلت المدافىء، كان لديه شعور بأنّ لهذا القلق المنتشر رائحة الفحم).

انحنى على ملفه وعاد إلى قراءته. وكان تآلف نسبياً مع عمله وبات الآن أقلّ تردّداً في اختيار شرح للأحلام وقد ينتهي، في خلال أيام، اشتغاله بملفه الأول. ولن يبقى له سوى بعض الأوراق. قرأ عدداً من الأحلام المزعجة التي تحكي عن مياه آسنة سوداء، وعن ديك مريض كان قد غاص في التراب، وعن داء المفاصل نشأ للتوّ لدى مدعوّ أثناء عشاء الجياوور(*). يا للهول! قال ذلك ووضع ريشته جانباً. لطالما تفكّر الناس بأن الثفالة غالباً ما تُترك للقاع أو الأخير. وعاوده التفكير في قاعات مأموري الحلم الأقصى، بمثل ما يوحى إلى المرء، وهو في جو غاية في الكآبة، في منزل حيث يُهيَّأ الاحتفال بعرس. لم يكن رأى هذه القاعات من قبل ولم يدرِ حتى في أيّ من الأجنحة تقوم. رغم ذلك، كان واثقاً من اختلافها عن غيرها، بحيث يجدر أن تضيئها نوافذ كبيرة عالية حتى السقف، ومن حيث ينفذ ضوء احتفالي يشرّف الناسَ والأشياء.

وبعد. . . قال مارك ـ عالم وهو يستعيد ريشته. ثم التزم العمل بلا انقطاع إلى أن دقّ الجرس معلناً خاتمة النهار. وبقيت له ورقتان بعد لتفحصها قبل أن ينهي دراسة ملفه. ويحسن به أن يقرأها لكي يتخلص منها نهائياً.

(*) عبارة بالألبانية تدلّ على المسيحيين، احتقاراً.

وشاعت أنّى كان، من حوله، ضوضاء المستخدمين وهم يغادرون طاولاتهم متجهين نحو منافذ الخروج. ولم تمضِ لحظات حتى عمَّ الصمتُ الأرجاء، ولم يعد ثمة إلّا هؤلاء الذين قرروا البقاء بعد ساعات العمل المنتظمة. أما مارك ـ عالم فإنّ فراغاً مطرداً راح يجتاحه اثر رحيل غالبية المستخدمين. هذا الفراغ الذي طالما استشعره كلّما ظلّ يعمل إلى وقت متأخر حتى ختامِ النهار، ولكن ما حيلته للتخلص من ذلك؟ إذْ لطالما كان يحسن به أن يعمل بملء رغبته ساعات إضافية بين الحين والآخر، دون حسبان الحالات التي يؤمَرُ فيها بالبقاء. وكان سلّم بالتضحية بهذه الأمسية الجديدة. وما أن أخمد نهاية زفيره، بل تنهده المديد حتى انكب على قراءة الورقتين الأخريين.

عجباً... قال، وأخذته الدهشة لما تعرف السطر الأول. متى إذاً لقي هذا الحلم؟ أرض غامضة المعالم عليها بقايا قرب جسر وآلة موسيقى... وكاد أن يهتف لدهشته. تلك كانت المرة الأولى التي يقع فيها على حلم كان تفحصه هو نفسه حين كان في شعبة الانتقاء. سرّه ذلك مثلما يسره لقاء معرفة قديمة، التفت يميناً ويساراً ليقاسم أحداً فرحته بهذه الصدفة، ولكن المستخدمين الذين بقوا لم يكونوا كثيري العدد في القاعة وكان أقربهم على بعد عشر خطوات على الأقل.

ولما كان لا يزال مثاراً باكتشافه المتواضع، جهد في قراءة نص الحلم، دون كبير تركيز في البداية، ثم بانتباه متعاظم. ولم يسعه أن يخرج أيّ دلالة خاصة من مكامن النص. ولكن ذلك لم يقلقه البتة.. إذْ بدا للوهلة الأولى مثابة أحلام مجردة من المعنى، وكأنما هي

جـانب أملس عبثاً يحـاول المرء التعلق بـه، ولكن يكفيه فصًـال بالـغ الصغـر كي يكشف ثمة عن رِفِـل حلم. وقد يحـدث أن يجـد أيضـاً مفتـاح ذلك الحلم. وقـد اكتسب إلى الآن بعضـاً من الخـبرة في هـذا الاشتغال.

فـالأرض الغامضـة الملامـح المغطاة بـالبقايـا، والجسر العتيق وآلة المـوسيقى المجهولـة والثور الهـائج كـانت في هذا الإطـار رموزاً غنيـة بالمعاني حقاً، إلاّ أنه لم يتـوصل إلى إيجـاد الرابط الـذي يجمع الـرموز بعضها إلى البعض. ذلك أن إيجـاد الرابط بـين الرمـوز المتفرقـة ذاتها يفوق بعامـة الرّمـوز ذاتها أهميـة لكونـه أنفع في تحليـل الحلم. وجعل مـارك ـ عالم يجمعهـا كل رمـزين على حـدة: الجسر إلى الثـور وآلـة الموسيقى إلى الأرض الغامضـة الملامـح، وجمع أخيـراً الثور إلى الآلـة الموسيقية والجسر إلى الأرض الغامضة.

وقد بدا له أن العلاقة الأخيرة، ثور آلة موسيقى / جسر تبرز شيئـاً من الدلالة. غير أن الدلالة لم تكن منطقيـة البتة ثـور (قـوة خـام غير مراقبة)، تهيجه موسيقى (خيانة، سر، دعاية مكثفة) سوف يندفع إلى هـدم الجسر العتيق. ولو كـان الحلم أتى على ذكـر موضـع آخـر غـير الجسر، كعمود أو جدار قلعة، أو رمز آخـر من رموز الـدولة، لكـان اكتسب معنى ما. والحال أن الجسر لا يمثل شيئاً من هذا القبيل. كان ذلك بعامة، رمز شيء مفيد للبشر، مثلما كانت الينابيع والـطرق. . . ولكن. . . مهـلاً إذن. . . قال مـارك ـ عـالم في ذاتـه وحبسـة صـدر قـطعت عليه أنفـاسه. ألم يكن الجسر مـرتبطاً بـدوره بـتراث العـائلة كوپريلي؟ ولربما كان ذلك نذير شؤم ما. . .؟

إنه لحلم فارغ، قال في ذاته. وحل في نفسه شعور بالازدراء بـدلاً

من المتعة في اكتشاف هذا الحلم في ملفه. وتذكر الآن أنه حتى يوم قرأ الحلم في شعبة الانتقاء بدا له آنئذٍ فارغاً من المعنى؛ وكان يحسن لو رماه، فيما مضى في سلة المهملات! غطس ريشته في المحبرة، وهمّ بأن يخطّ على الورقة عبارة غير قابل للحل، ولكن يده ظلت برهة معلقة. لو يتركه ليعود إليه غداً صباحاً ولو يطلب مشورة الناظر؟ والحقيقة أنه رغم كون المشورة مسموحة، فإنه لا يحسن بالمرء استغلال هذا السلوك. اغتاظ مارك ـ عالم فكان خيراً له أن يغلق هذا الملف، من أن يتأخر في معالجته إلى هذا الحد...

أخذ الحلم الأخير، وحله سريعاً، ثم عاد إلى الذي تركه معلقاً. ولما كان يتردد باديء الأمر ويتساءلُ أيضاً إذا كان ينبغي أن يسجل عليه عبارة غير قابل للحل ليصنفّه ويمضي، دخل قائد التأويل إلى القاعة. تبادل والناظر بعض الكلمات بصوت خفيض، ونظر حوله، كأن ليعدّ أولئك الذين بقوا ثم وشوش مستخدم النظارة بشيء.

ـ أنت، وأنت، أبلغ صوت هذا الأخير، حين صار القائد على مبعدة (التفت مارك ـ عالم) وأنتما أيضاً هناك. وأنت أيضاً مارك ـ عالم سوف تظلّون تعملون هذا المساء حتى بعد انتهاء الحصة المحدّدة. فقد أعلمني القائد بوجود ملف طارىء ينبغي العمل على حله منذ هذا المساء.

لم ينبس أحد ببنت شفه.

ـ وبينما يأتون بالملف، أمضوا لتشربوا شيئاً من الحانة، أضاف الناظر. ربما نجبر على البقاء حتى وقت متأخر.

خرجوا من القاعة متقاطرين. وراحوا يسمعون على امتداد المماشي

صرير مفاتيح هنا واصطفاقات مزاليج هنالك إذْ كان آخر المتأخرين يمضون.

بدت الحانة حزينة في ساعة متأخرة من النهار. النادلون النادرون ذوو قسمات هزيلة من التعب، وقسم من الطاولات مدفوع جانباً ليتسنّى تكنيس القاعة، كل شيءٍ كان يوحي بكآبة ما. طلب مارك ـ عالم كأس سحلب وغيفاً صغيراً ومضى ليتخذ له مكاناً لدى الطرف الأبعد عن المبسط، إذْ لم يشأ أن يزعجه أحد. شرب مشروبه بهدوء قارضاً ورغيفاً صغيراً دونما اشتهاء، وبعدما انتهى، قام وخطا ببطء ودون أن يلتفت إلى هذه الجهة أو تلك، وخرج.

ظلّ برهة أشبه بالدائخ في رواق الطابق الأرضي الذي لا حدّ له. لم يكن المساء قد هبط بعد، ولكنّ الأشياء راحت تزداد قتاماً في الظَلَيْل. على زاوية الخليج التي تنفتح عالياً فوق الثرى كانت تهبط آخر ائتلاقات النهار. لم يكن لديه أدنى حجة للإسراع. وفي هذه الأثناء، يمكنه أن يتسكع متجنباً الذهاب إلى المكتب حيث ينزوي قبل الأوان بين جدران قاعة العمل العاقّة. كان الرواق مقفراً واستشعر فجأة الرضى من كونه استطاع أن يذرع وحده هذا الفراغ الفسيح الذي نشر الخليج في طرفه ضوءاً، لم يبن من خلال غبائر النوافذ سوى أَمْيَل إلى الرمادي.

كان مارك ـ عالم قد وصل إلى تحت هذه النافذة، وبعد أن رفع رأسه ناحية زاوية الضوء كأنما ينظر من عمق هوّة سحيقة، همّ ليتجه إلى المنعطف، حين أدركه فجأة صوت في عالم الصمّ ـ البكم هذا. توقف وأصاخ السمع. كان ذلك أشبه بضجة خطى تقترب أكثر فأكثر. ربما كان هؤلاء الحرّاس الذين يقومون بتفقد الأبواب المنغلقة،

قال في سره وتهيأ لأن يبتعد حين سمَّرتْهُ أصوات جديدة في مكانه.

صار الآن الصوت أقرب وهو يصدر عن ممر جانبي متفرع من الرواق الأساسي والتصق مارك ـ عالم بالجدار وانتظر: يا إلهي، هتف في ذاته حين رأى جمعاً من الرجال يحملون على أكتفاهم تابوتاً أسود. لم ينتبهوا إلى وجوده وما لبثوا أن اختفوا في امتداد الممر الجانبي. إنه صانع الأحلام الآتي من الريف قال في ذاته وضجة الخطى تضيع في البعيد. نظر حوله فألفى نفسه في المكان حيث كان رآه ذلك النهار حارس في نوبته أمام غرف حفظ الأسرار. يا إلهي، تفكّر، يستحيل أن يكون سواه.

اجتاحه قلق مضنٍ لم ينِ يتعاظم وهو يصعد الدرج. غالباً ما كان يفكر في صانع الأحلام المسكين ولكنه ما خطر له إطلاقاً أن يؤول مصيره على هذا النحو. مرات عديدة، في الحانة كان يبحث عن الناسخ بعينيه، ليسأله عما صارت إليه حالة صانع الأحلام، إذا ما أطلق أخيراً وإذا لم يزل هنا بعد. والظاهر أن المعتقل التعس لم يقوَ على نسيان حلمه نسياناً تاماً. أوَ يكون قد اشتُرط مسبقاً في أن كل من يُستدعى إلى التبير سراي، سوف يلقى المصير عينه؟ إنه لأمر فظيع: قال في سره مندهشاً من سخطه المفاجىء: ألا يكفيك ما سحقتَ حتى الآن، حتى رحتَ تلتهم كائنات بشرية!

لمح إلى الطاولة ملفاً جديداً كان الناظر قد وضعه أثناء غيابه. وراح يقلبه بشيء من الكره فرأى أنه لا يحوي أكثر من خمس أوراق أو ست.

وجب عليه أن يدرسها كلها هذا المساء. كانت المصابيح أشعلت

في القاعة وكان البرد بلغ شأوه إذْ لم يكن أحد قد رمى بقطعة فحم في الدفايات منذ منتصف النهار. وراح يقرأ وصف الحلم الأول، بعد أن تجاوز بعض السطور، أدرك أن النص يمتد إلى الصفحة كلها. وأنه ينبغي له أن يتابع القراءة حتى الصفحة التالية، وهذا مما يندر إلى حدّ بعيد. قلب الصفحة كي يتفحص التوسع الذي أُجرِيَ في وصف هذا الحلم؛ ولما لاحظ أن الوصف لا ينتهي لدى الصفحة الثانية ولا حتى في الثالثة، اكتشف ببالغ دهشته أن أوراق الملف الست كانت مخصصة بحلم واحد دون غيره. لم يكن وقع على نص أطول من هذا. فقال في سره يجب أن يكون الحلم فريداً للغاية؛ وراح يتصفح النص تصفحاً مائلاً دون أن يلتفت إلى اسم مؤلِّفه أو عنوانه. ولسوف يمضي المساء كله يتخاصم مع هذا الهذيان الطويل وغير القابل للشرح يا لها حقاً من ليلة قلق!

لقد كان الحلم حقاً على هذا النحو هاذياً. بعامة كانت الهذيانات تسلّم إلى ألمع المؤوّلين حتى كان يحكى أنه لزمن بعيد خلا كان القيّمون على شعبة الانتقاء وأمثالهم في التأويل يصنفونها في ملف خاص تحت عنوان ملف الهذيانات. غير أن هذه الممارسة أُهملت فيما بعد لأسباب لم تتضح بالكامل (قيل إن السبب الحقيقي في هذا كان الميل إلى اعتبار هذه الملف لزوم ما لا يلزم) وتوزعت الهذيانات منذئذ بحسب طبيعة مضمونها في مختلف مجموعات الأحلام. مع ذلك لطالما سعى نظار القاعات في إعدادهم تقسيم العمل إلى اناطة شرحها بأمهر المستخدمين. ولم يكن مارك - عالم يستوعب كيف سُلّم أحدها: أيكون ذلك دليلاً على ثقة مفرطة في قدراته من قبل قادة التأويل، أو بمثابة عمل مسيء؟

في هذه الأثناء، جعل يتابع تعرفه وصف الحلم باضطراب متزايد. فبدا له هذا الحلم غريباً حقاً. فهو يبدأ بعصابات من الفزاعات التي تشق سهباً داخناً بروائح جيف نمور ميتة في القرن الحادي عشر. وقد خُصَّت الصفحة الأولى من النص بكاملها بوصف مسيرة هذه الفزاعات، التي راحت تنطق بلعنات إزاء البركان كارتو، رتوه.. كرت (لم يكف اسمه عن التهدُّم تماماً كما لو تنهار جهته الغربية)، في حين تأتلق فوق السهب نجمة معتوهة. ثم إن الحالم الهاذي الذي كان لا يزال في الجوار حين راح يجهد في أن ينغرز تحت الثرى، جابهته قطعة نهار مشعة، شبيهة بالماسة واراها أحدهم في غلاف نهار عادي من الزمن الكوني، قطعة عصية على الانحلال، عصية على الكسر والتدمير بالنار ذاتها. وكان بهره سطوع ألق النهار هذا المنبجس من الوحل فألقى نفسه مبهوراً هكذا في جهنم.

أيّ مجنون، قال مارك ـ عالم في سره. بل إنه ذو عقل مختل: ولكن ذلك لم يصرفه عن القراءة. كان الجزء الأكبر من النص مكرساً لوصف الجحيم، جحيم مختلف عما يتخيله المرء عادة، جحيم ليس أهلاً بالأنس بل بدول ميتة، وأجسادها ممدّدة بارتباك الواحد إلى جانب الآخر: امبراطوريات، وامارات، وجمهوريات وملكيات دستورية، ودول اتحادية... هِمْ قال مارك ـ عالم عجباً... بعكس الانطباع الأول الذي خرج به من قراءة هذا الحلم للوهلة الأولى، فقد كان الأخير بخلاف مظاهره الأخرى، خطيراً. قلب الصفحة ليرى اسم ذلك الجريء الذي كان بعث به فقرأ: حلم أُجري بعيد منتصف ليل الثامن عشر ١٨ من كانون الأول، من قبل الضيف. في فندق روبير الاثنين (باشناليك من أعمال ألبانيا الوسطى) فهذا كان اشتم رائحة الفخ في آخر لحظة، قال ذلك متفكّراً، فشمّع الخيط

ومضى(*)! استند جيداً إلى كرسيه وتابع قراءته. فالدول الميتة والنازلة إلى الجحيم لم تكن لتؤدي عقوبات من النوع الذي نتصوره يطبق على الناس عامة. إلى ذلك فإن لهذا الجحيم خصوصية التفلّت منه والعودة إلى الأرض. هكذا فبإمكان الدول الميتة منذ زمن بعيد والتي يظنها الجميع في حالة المومياء، النهوض ببطء ذات يوم والظهور ثانية على سطح الكرة الأرضية. غير أنها على غرار الممثلين الذين يضعون الماكياج قبل صعودهم إلى حلبة المسرح في دور جديد لهم، ينبغي لها أن تخضع لبعض التنقيحات الضرورية فيها، وقد تبدّل أسماءها وشعاراتها وأعلامها دون أن تختلف في العمق عن هويتها الأصيلة. عجباً، تمتم مارك - عالم في سره ثانية. ولمّا كان معتاداً منذ نعومة أظفاره على المحادثات حول الدولة وشؤون الحكم، أمكنه للحال تخيل مصير صانع الأحلام. وبدا له جلياً أن هذا الحكم كان مختلفاً ما خلا بدايته. حتى أنه وجد من الغرابة أن يتمكن الحلم الآنف من بلوغ شعبة الانتقاء. أو ربما سُمح لهذا الحلم المستفِز بالمرور لغايات أخرى.

ولكن أيّ هذه الغايات؟ ولأيّ سبب أُعطي لمارك - عالم بالتحديد؟ وبالأخص بهذه الطريقة، وبالإلحاح المعهود، وبعد دوام العمل المنتظم؟ فشعر بقشعريرة تسري على امتداد ظهره. وفي حين راحت عيناه تواصلان تحليل رموز النص: تراءت دولة التامرلان التي كانت تُطلى لتُغطى بقع الدم عليها إذْ تهيأت للصعود. وتراءت أبعد منها دولة هيرود (؟) التي أُخضعت لإجراء الطلاء عينه. وها هي بحسب ما يقال، تقوم للمرة الثالثة على الأرض ولسوف تظلّ تقوم مرّات نجهل عددها بعد أن توحي بانهيارها الكامل...

(*) بالعامية اللبنانية، أي تهيّأ للرحيل والفرار، ففعل.

وجعل مارك ـ عالم يرتب الأوراق بأصابعه المرتجفة. لقد كان التحريض بارزاً. ولكنه لن يقع في الفخ. ولسوف يبيّن لهم ما هو جدير به. سوف يأخذ ريشته ويكتب في مدونته: حلم مختلف لغايات التحريض ضد الدولة، من أجل هذا الهدف أو ذاك؛ ومتضمناً إلماحات إلى هذا وذاك. نعم ذلك ما سوف يكتب: إذْ ليست الدول المعاصرة، ومنها الامبراطورية العثمانية سوى مؤسسات دموية قد واراها الزمن، ثم عادت إلى الأرض أشبه بأطياف على حدّ ما أورده مرسل الهذيان.

رحب صدر مارك ـ عالم بهذه الصيغة وتحضّر لأن يدونها على الورق، ولكن سرعان ما تولاه الشك. وماذا لو قيل له: من أين لك بمعرفة هذه الأسئلة، أنت، مارك ـ عالم؟ فعاد ووضع ريشته ثانية. إذْ ينبغي له ألاّ يتعرّض بأيّ ثمن لمثل هذا التساؤل. بل خير له أن يحرر شرحه للهذيان بأسلوب أقل زخرفة. حلم مختلف يرشح منه التحريض، أرسل لغايات الإساءة، مما يفسّر غياب اسم مؤلفه وعنوانه.

نعم، هذا ما سوف يكتب، ولكن في أيّ حال لم يكن لديه أدنى سبب للإسراع. وكل الذين كانوا احتجزوا ما زالوا هنا. نظر مارك ـ عالم حوله. وأحال ضوء المصابيح الباهت منظر القاعة أفجع وأحزن، بمستخدميها القلائل الموزعين هنا وهناك.

وراح البرد يلجها ويثبت فيها. وكان يحسن به أن لا يرفع عباءة الفرو عنه. كم من الوقت عليهم أن يبقوا بعد هنا؟ وسجّل أن اثنين فقط من المستخدمين يكتبان، في حين راح الآخرون يستغرقون في التأمل والرأس بين اليدين. هل سلّمت لهم أحلام عادية، أو هذيانات كما

هو شأنه؟ ولربما كان الحلم الذي أعطي له فريد نوعه؟ بل الأحرى أن تكون الهذيانات أندر، مثل سمك القرش الذي يوقع به صدفة في شباك الصيد الملأى بأسماك عادية. مع ذلك، يمكن أن تنتمي الأحلام الأخرى بدورها إلى نفس النوع. هذا الدخول المفاجىء، في ساعة متأخرة للغاية، قبيل نهاية دوام العمل المنتظم... ثمة أمر كان ينبغي الحدوث. ارتجف مارك ـ عالم من جديد.

قام أحد المستخدمين أخيراً، واقترب من الناظر، وسلمه ملفه وخرج. أخذ مارك ـ عالم ريشته، ولكنه قال في سره إن له الوقت كله بعد، وأفلت الريشة مرة جديدة. فتحرير الشرح لن يستغرق منه أكثر من ربع ساعة. ويمكنه أن يطيل قليلاً أمد الإعداد للكتابة. وراحت تجول في خاطره كل أنواع الأفكار القاتمة. وبعد مضي نصف ساعة، تقدم مستخدم آخر بملفه إلى الناظر ومضى. وكانت قدما مارك ـ عالم قد تجلدتا. ولما راحت يداه تزدادان برودة، حتى إذا بقي على هذه الحالة مدة أطول، أوشك أن يعجز كلياً عن تحريك ريشته، فأخرجها أخيراً من خدرها وراح يكتب. وفي لحظة ما، سمع وقع خطى مستخدم آخر يخرج، ولكنه امتنع عن رفع رأسه لرؤية من يكون. ولما أنهى تحريره، أمكنه أن يلاحظ وجود ثلاثة أشخاص دون الناظر نفسه، لا يزالون في القاعة. «لسوف أنتظر أن يذهب أحدهم قبلي حتى أقوم»، قال في سرّه. وطارت به خواطره باتجاه ذلك النزل ذي الاسم الغريب «فندق روبير الاثنين» حيث ارتئي هذا الهذيان أو اختلق، والله وحده يعلم سبب الطيران هذا. وجهد في أن يتمثل المسافر ذا الوجه الأكدر الذي بعد أن قدم في الصباح الباكر، ورمى بالظرف في علبة الرسائل الموضوعة بلا شك لدى باب الفندق

العتيق، ابتعد وبسمة هزء شيطانية تعلو ثغره.

ولكن طقطقة كرسي أذهلته عن أفكاره. كان مستخدم آخر قد مضى. أما الآن فلم يبقَ سوى مستخدمين ما عداه، فقال في سرّه إنه لمن المستحسن أن يمضي هو قبل الأخير، لكونه الموظف الأحدث تعييناً إن لم يكن آخر الراحلين. وانتظر إذاً أن يخرج أحد الاثنين الباقين. وحين لم يبقَ سوى مستخدم واحد، تفكّر وقال في سره يجب أن أقوم. ولربما أمِلَ الناظر بدوره بأن يسرع أولئك الذين بقوا وينهوا تحليلاتهم بأسرع ما يمكن.

انتصب مارك ـ عالم وأعاد غلق ملفه. كان الوقت متأخراً جداً، وقد بدا الناظر بقسماته الهزيلة على قدر كبير من الانهاك شأن الآخرين. اقترب منه، وأودعه ملفّه، وقال له بصوت خفيض؟

ـ عمت مساء!

ـ عمت مساء، أجابه الآخر. أنت تعرف المخرج؟ الوقت متأخر وكل أبواب التبير مغلقة؟

ـ إذن؟ (كانت المرة الأولى التي يسمع فيها ذلك) ولكن كيف أخرج؟

ـ اعبر الحوش الخلفي، أجاب الناظر، عبر شعبة الاستقبال. فأنت لم تمر من هناك بالتأكيد، ولكنك قد تجد سبيلك بيسر. وفي هذه الساعة، لا تزال مصابيح المماشي والأروقة المفضية إلى الحوش مضاءة وليس لك سوى أن تتبعها.

ـ شكراً.

نفذ مارك ـ عالم إلى الممشى ولاحظ أن الحالة كانت على ما قال له الناظر: فالمصابيح لم تكن مضاءة سوى من جانب واحد. سار في

الاتجاه الذي عُيِّن له مصيخاً السمع إلى صوت خطاه الذي بدا له مختلفاً للغاية وسط هذه الوحدة. وإن ضعت؟ وتردّد ذلك الظن في ذهنه مرتين أو ثلاثاً. لربما كان خيراً له أن يخرج ومستخدماً أخر يعرف الطريق جيداً. وكلما تقدم تزايد شعوره بعدم الأمان. ولما كان لا يزال في الممشى الرئيسي، يتبع خط المصابيح المضاءة، انعطف إلى ممر جانبيّ ونفذ ثانية إلى رواق يكاد يلمح طرفه. كل شيء كان مقفراً. وضوء المصابيح الضعيف راح يتلاشى في البعيد. نزل درجتين أو ثلاثاً وبلغ رواقاً ضيقاً للغاية، تعلوه قبة. ولئن صارت المصابيح نادرة وأَبْهَتَ أيضاً، إلا أنها ظلّت مضاءة هنالك.

- إلى أين عليّ أن أسير هكذا؟ قال ذلك في سرّه. وخطر له، لبرهة أنه ما أن يبلغ منعَطَفاً في الرواق حتى يظهر أمامه فجأة رجال يحملون تابوت صانع الأحلام وهم لا يزالون يسيرون على غير هدى في مماشي البناء الوسيع. فقال في سرّه: إن ظللت أتسكع على هذا الحال أصابني الجنون. ولربما ظهر له أحدهم ليدلّه على الطريق إن هو توقف ها هنا؟ أو ربما يحسن به أن يعود أدراجه باتجاه شعبة التأويل والرجوع مع هذين الآخرين؟ بدت له الفكرة الأخيرة أعقل، ولكن سرعان ما تولاه الشك: وإن لم يجد طريقه؟ وحده الشيطان يعرف إذا كانت هذه المصابيح الباهتة تؤدي حقاً إلى حيث ينبغي.

تابع مارك - عالم سيره وشعر بالجفاف يعتري فمه رغم أنه جهد في أن يطمئن نفسه. وفي آخر المطاف، حتى لو تاه، فلن يكون هذا بالمأساة الكبرى. إذْ ليس قائماً في قلب السهل الوسيع، ولا في الغابة بل داخل القصر نفسه. على أن احتمالاً كهذا يبدو له بنفس الرعب. إذْ كيف يسعه أن يمضي الليل بين هذه الجدران، وفي هذه القاعات، وهذه الكهوف الملأى بالأحلام والهذيانات الشاذة؟ بل كان فضّل لو

يكون في قلب سهل جليدي أو في غابة غزتها الذئاب. نعم، ألف مرة!

حث الخطى. منذ متى يسير هكذا؟ وفجأة خيل إليه أن ضوضاء تتناهى إليه من البعيد. ربما كان ذلك محض وهم، قال في سره، متابعاً سيره. وبعد قليل عاد الصوت يتردّد، أوضح هذه المرة، مع أنه لم يستطع أن يتبين الجهة التي يصدر منها.

نزل درجتين أو ثلاثاً، متابعاً دوماً تلاحق المصابيح المضاءة، فألفى نفسه في ممشى آخر، ينبغي أن يكون ممشى الطابق الأرضي تلاشت الجلبة بعض الوقت، ولكنها عادت تُسمع أقرب هذه المرة. ومشى مارك ـ عالم سريعاً، وأذناه متحفزتان، مخافة أن لا تفوته هذه الضجة لأنها باتت أمله الوحيد الأحد. والحقيقة أن هذه الضوضاء لبثت تضعف حيناً وتقوى حيناً آخر دون أن تتلاشى نهائياً. حتى أنه ظن حيناً بأن الصوت قريب جداً منه، ولكنه سرعان ما بَعُد ثانية.

وها هو الآن يتقدم بخطى أشبه بالعدَّائين دون أن تبارح عيناه عمق الممر حيث يظهر مستطيل مشوش الهيئة مضاء من الخارج فقال مبتهلاً: اللهمَّ، ليكن هذا المخرج من الخلف!

كان ذلك حقاً المخرج. وما أن اقترب بعض الشيء حتى أيقن أن ذلك كان باباً. تنفس الصعداء، وما لبثت أطرافه أن تراخت إلى درجة أوشك أن يترنح. ومشى وهو على هيئة الترنح هذه بعض خطوات باتجاه الباب حيث يندفع إلى الممشى الهواء البارد والضوضاء التي أدركها للحال. والمنظر الذي تبدَّى لعينيه بفظاظة، حين بلغ العقبة، كان أكثر من غريب: فالحوش الخلفي من القصر بدا سابحاً في ضوء المصابيح المختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك

التي تضيء الداخل، ضوء قلق يظلّله الضباب في مواضع، في حين يهيجه في مواضع أخرى ملطّخاً إيّاه على البلاط الرطب، ذلك البلاط حيث يروح ويجيء الناس والأحصنة والعربات بعضها تحمل مصابيح خفيفة النور، وبعضها الآخر مطفأة الأضواء في بلبلة قصوى شبيهة بما في الكابوس. وتروح أضواء القناديل الدكناء وبالأحرى صهيل الأحصنة يخترق الحوش من الجهات كلها مضفياً على هذه الرؤية الضبابية طابعاً شبه خارق للطبيعة.

ظلّ مارك ـ عالم مسمّراً على عتبة الباب غير مصدق عينيه.

ـ ما هذا؟ قال سائلاً أحدهم يمر حاملاً رزمة مكانس على ذراعيه.

التفت الآخر نحوه، منذهلاً، ولكن لما تنبّه إلى أن مارك ـ عالم يحمل شارة التبير على عباءته الفرو أجابه بصوت محبب:

ـ إنهم حاملوا الأحلام، آغا، ألا تراهم؟

أيكونون هم حقاً؟ كيف لم يخطر له ذلك؟ ها هم يرفلون في بزّاتهم الجلدية وجزماتهم الملوثة بالروث في حين بدت العربات وعجلاتها المغمسة بالوحل أيضاً تتباهى بشارة التبير الموضوعة عليها إلى الخلف. توقف نظره لدى يمين الحوش على قاعة ذات إفريز مضاءة من الداخل إلى حيث يدخل حاملو الأحلام ومن حيث يخرجون. ها هنا ينبغي أن تكون شعبة الاستقبال، التي يقال إنها تعمل ليلاً نهاراً.

مشى مارك ـ عالم على البلاط الرطب والمزلق وسط جلبة الرجال، والعربات التي يبحث بعضها عن مرآب، وتوجه تلقائياً نحو الإفريز حيث وجد جمّيً. كانت الجلبة أكبر مما في الحوش إذْ اصطف أمام

مباسط طويلة، عشرات من حملة الأحلام الذين أنهوا على ما يبدو ما توجب عليهم لدى شبابيك التسليم. أو راحوا ينتظرون دورهم، فيشربون القهوة أو السحلب في حين يأكل آخرون أرغفة صغيرة وكريات لحم تجتاح نكهتها الطيبة المكان.

ترك مارك ـ عالم نفسه يتدافع بين أكتاف الرجال الغليظة، وهم يرتدون بزّات جلدية ويدورون على ذاتهم بتهاون عالكين وضاحكين وشاتمين بصوت أجش.

كان هؤلاء، إذن، حاملو الأحلام الشهيرون الذين طالما تخيلهم منذ طفولته مراسلين شبه علويين ينهبون طرقات الامبراطورية نهباً في عرباتهم الزرقاء. وكان قسم من هؤلاء قد لطخ الوحل، ليس فقط جزماتهم بل مرافقهم أيضاً وحتى ظَهر بزّاتهم، ولربما اتّسخوا لكونهم جهدوا في إنهاض عربتهم المنقلبة أو أحد أحصنتهم الساقط أرضاً؟ ويمكن المرء أن يتبينّ في قسماتهم المضطربة أمارات التعب والأرق. أما طريقة تحدثهم كما كل ماضيهم فكانت أشد اختلافاً مما لدى مستخدمي التبير الحَضَريين: قاسية، وقحة بعض الشيء، مزينةً بكلمات مملحة أشبه بوجبة متّبلة. ولما أنِسَ مارك ـ عالم من نفسه التيه وسط هذه الضوضاء، راح يتلقف نتف الجمل في حلقاتٍ معقودة. هنا يسع المرء أن يلم بأخبار الامبراطورية جمعاء. إذ يروي الرسل أحوال أسفارهم، وخصوماتهم مع مستخدمي الأرياف القصيري النظر، ومع أصحاب الفنادق المخمورين، ومع حراس محطات التوقف على طرقات اليشاليك، حيث تعيث الاضطرابات فساداً.

صوت أجشّ أثار انتباهه ودون أن يلتفت ليتميز المتحدّث، جهد في أن يتبينّ كلامه.

فـراح الرجـل يروي: حـرنت أحصنتي، وجعلت تصهل وتحمحم في مكانها، ولكن دون أن تتزحزح قيد أنملة إلى الأمـام. كنت وحدي في السهب لدى مخرج ينيزهير وهي دسكرة ضائعة حيث كنت تلقيت حفنة من الأحلام، خمسة بالتمام والكمال، جمعت على امتداد الشهـر: تصور أيّ مكان نـاءٍ كنت فيه. إذن! لم تكن أحصنتي لتتقـدم. نهرتُها وحثثتُها بقدمي ورحت أسوطها حتى أدميتها، ولكنها لبثت مسمَّـرة في مكانها، كما عُهِدَتْ حالما يقطع الطريق عليها روح ميت. ألقيت نظرة حولي. لم يكن إلاّ السهب المقفر: لا قبر ولا علامـة لمدفن أنّى كـان. ورحت أتسـاءل عما يمكن أن أفعـل، فخطر ببـالي بغتة ملف الأحـلام الـذي حملته لتـوي من ينيزهـير وقلت في سري إنه ربمـا كـانت هـذه الأحلام السبب في رعب هذه البهائم. ومع ذلك أفليس الموت والرقاد قـريبين الـواحد من الآخـر؟ بسرعـة فتحت كيسي، وأخـرجت ملفّ ينيزهير، ولما نزلت من العـربة مضيت لأضعـه بعيداً بعض الشيء في السهل، ثم صعدت إلى العربة وأثرت الخيل فمضت في الطريق دون تمنّـع وقلت في نفسي: «بحق الشيـطان، أكـان حـرانها بسبب هـذا!» فتـوقفت ثانيـة، وقمت باستـدارة وعـدت إلى المـوضـع حيث تـركت الملف. ولكن مـا أن وضعته في العـربة حتى عـادت الخيل تتسمَّـر في مكـانها مرغيـة وصاهلة كـما من قبل. مـا عساني أفعـل؟ أنا من نقـل آلاف الأحلام، لم يحدث لي أمر مماثل، فقررت أن أعـود إلى ينيزهـير دون الملف. تـركته وسط السهـب وقفـلت راجعـاً. وهنـالـك بـدأت المشاحنة مع مسؤول شعبة التبير.

قلت له: لن يسعني أن أحمل أحلامك، تعالَ وانظر بنفسـك كيف ترفض خيلي أن تقـوم بخطوة واحـدة ما أن أضـع ملفك في عـربتي. فيروح هذا الفظ يزعق:

ـ مرّت خمسة أسابيع ولم يأتِ أحد لأخذ أحلامي ، وها أنت تريد الآن أن تبقيها بين يدي، لسوف أشكو هذا الأمر، وأكتب إلى القيادة العامة، وإلى شيخ الإسلام بشخصه!

ـ يمكنك أن تشكو إلى أيّ كان، قلت له ، فخيلي حرنت وهذه الأحلام الخمسة الجرباء لم تمنعها من أن تحمل كل الملفات الأخرى. ولم يحتَجْ هذا الشرس إلى المزيد حتى ينقضّ عليّ: «نعم طبعاً، قال: على هذا النحو تحكمون على أحلامنا نحن الآخرين؛ بالطبع أنتم تجدونها خشنة، بل أنتم لا تحبون سوى أحلام العواهر وفنانات العاصمة، ولكن في الأعلى قيل إنها أحلامنا التي هي أحلام حقة، لأنها تأتي من أقاصي الامبراطورية، وليس من المتغندرات المدهونات!» وظلّت هذه القذارة ترغي، حتى خلتُ أعصابي أوشكت على الإفلات. ولم أعرف كيف أمسكت عن ضربه بعنف. وأخيراً لم أضربه. وهذا صحيح، ولكن ما كان بوسعي أن أرد عليه بدوري. كنت أغلي غضباً من أن أكون تأخرت هذا القدر في دورتي فاغتنمت الفرصة لأنفس عن كربي عليه فأوسعته شتماً، هو وبلدته الضائعة التي لا قيمة لها بنظري بل هي بمثابة حيّ بسيط في قرية، وهذه المقاطعة الفرعية التي تقطنها حفنة من السكارى والحرفين العاجزين عن القيام بأحلام لائقة، لأن أحلامهم ترهب الخيل نفسها ولو صار إليّ شأنها، قلت له، بعد حدث كهذا لحرمت ينيزهير من عشر سنوات من حقّ النظر في أحلامها. جنّ غضباً وزاد عن بهائمي في إزباده، وقال إنه سوف يبعث بتقرير إلى من يهمه الأمر حول كل ما طعنتُه فيه لتوي، غيرأنني هدّدته بأنه لو فعل ذلك، لنقلت إلى التبير كل الإهانات التي وجهها إليه.

ـ فراح يصيح بأعلى صوته أأنا أهنتُ التبير سراي المعظَّم؟ من أين

لي الجرأة أن أقول كلاماً مماثلاً؟

ـ نعم، أنت أهنته، أجبته، إذْ وصمتَه بأنه وكر للعواهر والمتغندرات المدهونات: حينئذ ولمّا أيقن هذا الأحمق من عجزه لجأ إلى البكاء والاستعطاف.

ـ ارحمني آغا، قال، فأنا لدي امرأة وأبناء، لا تفعل هذا. . .

ولبثت ضحكات مفعمة تخالط حديث الساعي، لبعض الوقت.

ـ وبعدئذ، ما الذي حصل؟ سأله أحدهم.

ـ في هذه الغضون، وصل الوكيل والإمام. إذْ كانا أُخطرا بما يجري. ولما سمعا الحديث مراراً، أخذا يحكان الرأس دون أن يعرفا أيّ قرار يتخذّان. لم يشاءا أن يجبراني على حمل الملف، لأن من شأن ذلك أن يحدَّني عن الرحيل. وقد بات الكل مقتنعين بأن الخيل لن تمضي أبداً حاملة الملف. أما أن يقبلوا بأن تكون أحلام المقاطعة مسيئة إلى درجة أن تعيق حركة السعاة، فهذا لن يقووا عليه مطلقاً. ولكن وقتي كان ثميناً للغاية. فأنا كنت أنقل أكثر من ألف حلم من مقاطعات أخرى، وهذا التأخير قد يكلفني غالياً. فقلت لهم أن يرافقوني إلى السهل حيث تركت الملف ليشهدوا بأم العين على العجب العجاب. أقبلوا ومضينا هكذا مكدسين في العربة حتى بلغنا المكان المعين لدى مخرج ينيزهير. كان لا يزال الملف هناك. رفعته عن الأرض، وصعدت به العربة. وسطتُ الأحصنة التي راحت تزبد وتصهَلُ في موضعها، كما لو أن الشيطان بذاته كان صعد إلى العربة. ثم أخرجت الملف ثانية وأرجعته لهم فجعلت البهائم تعدو. وخطر لي أن أتركهم هكذا فاغري الأفواه، وملفهم بين أيديهم وأنجو بنفسي، ولكنني قلت في سرّي إنني لو فعلت لعرّضت نفسي لمخاطر فعدت أدراجي. أرأيتم؟ قلت لهم. هل أقنعكم ذلك الآن؟ فراحوا

يتمتمون مذهولين: الله! عاجزين عن التزام خيار في هذا. ولما راحوا يبحثون عن مخرج لهم من هذا المأزق، خطر للمسؤول عن الشعبة، الذي أرعبه أن يكون أول من يتحمّل تبعة الوضع لكونه سمح بإرسال حلم شيطاني كهذا، أن يسحب كل حلم من أحلام الملف على حدة ليكشف ما كان أسوأها، بحيث لا تعود الأخرى تشكل أيّ ضرر يذكر. رحّبنا كلنا بالفكرة، وبدأنا للتوّ نرفع كل حلم واحداً تلو الآخر. لم يكن من الصعب أن نجد الحلم الشرير. أخليناه من الملف حتى أمكنني متابعة سيري.

- لم يكن هذا حلماً، بل سمّ محض! قال أحدهم.

- والآن، ماذا عساكم أن تفعلوا به؟ سأل آخر إذْ لا عربة يسعها أن تحمله، أليس كذلك؟

- ليس له إلّا أن يبقى حيث هو، أجابه الرجل ذو الصوت الأجش.

- ولكن قد يكون حلماً هاماً لما صدر عنه من قدرة غريبة. . .

- يسعه أن يكون ما شاء، قال الساعي، يسعه أن يكون من ذهبٍ حتى! فحالما رفضت الخيل أن تنقله بطل أن يحسب حلماً بل الشيطانَ مجسداً! أتفهم، إنه الشيطان الأقرنُ بشخصه!

- ومع ذلك. . .

لا «مع ذلك» نافعة، ما أن ترفض الخيل أن تحمله حتى يصبح جديراً أن يعفن في موضعه، في ذلك الثقب اللعين من ينيزهير!

- لا، ليس ذلك من العدل، قال ساعٍ قديم! لا علم لي بما يجري اليوم، ولكن على ما عهدت كانوا يلجأون إلى خدمات سعاة راجلين.

- أوُجد حقاً مثل هؤلاء السعاة؟

- بالتأكيد، أجابه الآخر. فالحالات التي تحرن فيها الخيل عن حمل

الأحلام كانت نادرة، بيد أنها طرأت. فكان يلجأ آنئذٍ إلى سعاة راجلين. فقد كان لبعض الأصول القديمة شيء من الخير.

ـ وكم يستغرق الساعي الراجل من وقت كي يحمل هذا الحلم من هنالك؟

ـ هذا يتعلق طبعاً بالمسافة المضبوطة. ولكنني أظن بأن المسافة من ينيزهير ينبغي أن تستغرق منه عاماً ونصف.

فاندفع اثنان أو ثلاثة من الحاضرين يصفرون ذهولاً.

ـ لا يدهشنّكم شيء قال الساعي العتيق. فبإمكان الحكومة أن تلقط قواعاً برّياً بإرسالها عربة تجرُّها ثيران في إثره!

وراحوا يتحدثون في شأن آخر، ومضى مارك ـ عالم بعيداً عنهم. أنّى كان الحديث الضاج نفسه في المداخل كما في وسط القاعة، وحتى أمام شبابيك الاستقبال حيث السعاة يودعون ملفاتهم، بحسب ترتيب يجهل معاييره.

أحد هؤلاء، ممن سمعه يقول إنه أضاع كيس ملفاته في الفندق حيث أصابه السكر فانتحى جانباً، وعيناه محمرتان كالجمر، ولا يني يشرب، وهو يبرطم متذمراً.

كانت لا تزال تتصاعد من الحوش ضوضاء من الأصوات متواصلة وجلجلة عجلات العربات على البلاط، بعضها آتية لتوّها من أصقاع بعيدة، وأخرى راحلة بعد أن أودعت حمولتها، صهيل الخيل المتقطع الذي جعل يرجف مارك ـ عالم حتى صميم كيانه، ولسوف يستمر هذا حتى الفجر، قال في سره بذهن بليد! حتى صباح غد يا إلهي! ردّد ذلك في نفسه برهة، شاقاً طريقه عبر الجمهرة قاصداً منزله.

الفصل الرابع

يوم العطلة

لمرتين أو ثلاث استيقظ مذعوراً شديد القلق من أن يصل متأخراً إلى المكتب، وهمت يده بأن ترفع الغطاء حين انبجس فجأة من دماغه المكدّر بالنعاس خاطر أن له اليوم عطلة، فعاد واستغرق في نعاس قلق. كانت تلك المرة الأولى منذ تعيينه في قصر الأحلام التي يمنح فيها يوم راحة.

فتح عينيه أخيراً، وبلغه ضوء النهار، مخففاً عبر ستائر المخمل، حتى وسادته. تمطّى برهة ثم عاد إلى رمي غطائه ونهض. كان الوقت متأخراً. تقدم من المرآة وتأمل وجهه المنتفخ سهراً. وأحس بأن رأسه ثقل عليه ثقل الرصاص المصبوب. إذْ لم يكن يتصور أن يستيقظ يوم عطلته الأول، أَتْعَبَ من بقية الأصابيح كان يسارع للخروج إلى الشوارع الرطبة، الغارقة في الضباب، ليصل إلى عمله في آنه.

اغتسل فأشعره ذلك بقليل من النداوة. كان لديه الانطباع بأن جهداً قليلاً يكفيه لكي يسعه تذكر حلمين مختصرين كانا خطرا في نومه لدى الصباح الباكر. فمنذ كان يعمل في التبير سراي لم يحلم إلاّ نادراً، كأنما الأحلام، لمّا أدركت معرفته العميقة بأسرارها وعزمه أن يقول لها: «إليك عنّي أيتها الأحلام واستغلّي شخصاً آخر غيري!»، لم

تجرؤ على المثول في خاطره.

وعندما راح يهبط الـدرج تناهى إليه طيبُ رائحة البّن المحمّص ونكهة الخبز المحّرق. والدته والسيدة لوك كانتا في انتظاره على الفطور منذ بعض الوقت.

ـ صباح الخير، قال لهما.

ـ صباح الخير، أجابتاه وقد غمرتاه بنظرة حنان. نمت جيدا؟ يبدو لنا أنك ارتحت تماماً.

أومأ إيجاباً بحركة من رأسه وجلس قرب الدفّاية الملأى بقطع فحم محمّرة، وكان وضع إلى جانبها طاولة واطئة عليها صينية القهوة. الآن، وبعد أن صار يمضي كل الأصباح على عجل في بكرة النهار، كاد أن ينسى هذه الساعة الحميمة، حين تلتمع الفضيات والجمر، وحواشي الدفّاية النحاسية البيتية العتيقة، وتخلق الانطباع مع ضوء النهار الشحيح، بصباح أبدي مغمور بالحنان.

أكل ببطء، ثم تناول القهوة مع والدته. وبعد أن ارتشفت الأم آخر نقطة من فنجانها، قلبته على صحنه كعادتها ودنت منها لوك لتقرأ لها طالعها. فيما مضى كان أهلوه يستحسنون أن يرووا حلماً قام به أحدهم أثناء الليل أو في رابعة النهار. ولكن منذ تعيينه في التبير لم يجرؤ أحد على استذكار أحلامه. إذْ كانوا كفوا عن ذلك إثر حادث بسيط جرى عقب الأسبوع الأول لاستخدامه في التبير سراي حين هبطت عليه إحدى عماته محدثة جلبة ولغطاً لتروي له الحلم الذي جرى لها البارحة. وراحت تهتف إننا محظوظون، اليوم إذ آل إلينا مفتاح أحلام المنازل، ولم يعد بنا حاجة إلى العرّافات ولا إلى

الغجريات. مما جعله يقطب الجبين وينقاد للغضب على نادر بوادره. إذ كيف جرؤت هذه البلهاء على حمله على تفسير أحلامها الحمقاء الخالية من أيّ نفع، واهتمام؟ من تحسبه إذن؟

اعترت الدهشة العمة باديء الأمر ثم رحلت مهانةً حتى شقّ على بنات عم مارك ـ عالم كثيراً أن يهدئن من خاطرها.

وراح يتأمل الجمر الذي بدا الآن خليٌّ الاحمرار تحت طبقة الرماد البيضاء.

ـ الطقس لذيذ اليوم، قالت له والدته، هل تنوي القيام بجولة؟
ـ نعم، أظن.
ـ لا شمس ولكن على أيّ حال، قد يفيدك أن تستنشق القليل من الهواء.

هزّ رأسه موافقاً

ـ حقاً، قال، منذ زمن بعيد لم أقم بنزهة.

ظل برهة دون كلام وعيناه مطرقتان إلى الدفاية، ثم قام ووضع عباءة الفرو وحيا والدته وخرج.

كان الجو غائماً بالفعل، رفع رأسه كأن ليبحث عن بعض آثار الشمس في سماء مقفرة، فبدا له فراغها فجأة لا يطاق. وقد مضى زمن لم ير فيه السماء فوق المدينة في ساعة النهار هذه فظهرت لناظريه فقيرة إلى حدّ الدهشة مع بعض غيومها الضئيلة وطيورها المتفرقة غير ذات الشأن.

منذ أن عُيِّنَ في التبير، وهو يسلك طريقه في ساعة مبكرة جداً

وسط طقس سيء جداً ورأسه لا يزال مضطرباً لنومه المتقلقل، ويعود مع الغسق في غاية الإرهاق، لا يثير انتباهه شيء. بحيث راح ينظر اليوم إلى المدينة مثل من عاد إليها بعد نفي قصير الأمد. ودارت عيناه يساراً ويميناً بما يماثل الدهشة. إذْ تبدّت لناظريه السماء شاحبة وتفهة، بل كل ما تبقى، الجدران، والأسطح والعربات والأشجار ظهرت له كذلك. ما الذي يحدث؟ وقد ظهر له العالم بأسره فاقداً ألوانه كأنما أبَلَّ لتوه من مرض طويل.

شعر مارك - عالم ببرد جليدي يخالج أحشاءه؛ عبرت ساقاه بجسمه الشارع حيث يسكن وهو على هذه الحال، وقادتاه وسط المدينة. فكانت الأرصفة على جانبي قارعة الطريق تغص بالناس، ولكن هؤلاء جعلوا يتحركون بإيماءات جلفة ذات ضبط هزيل للغاية؛ وبدا له جريان العربات حقيراً بدوره كما لاح له نداء دلّال رسميّ في ساحة الإسلام، يطلق العنان لكل حزن العالم.

ما الذي حدث إذاً للحياة والبشر، وكل الأشياء ها هنا؟ أما هنالك (تبسّم في صميم ذاته كما لو ازاء ذكرى سرّ أثير) هنالك في ملفاته كان كل شيء مختلفاً، في غاية البهاء وعابقاً بالخيال... تلوينات الغيوم والأشجار والثلج، والجسور، والمدافىء، والطيور، كل شيء كان غاية في الحيوية وأثبت بما لا يقاس: كما أن إيماءات الناس فيها والأشياء بالغة الحرية، وأكثر انفلاتاً وانسجاماً، وكأنما سباق أيائل عبر الضباب متحدِّيةً قوانين المكان والزمان: كم بدا هذا العالم مكبلاً وبخيلاً ومسئماً في نظر الآخر الذي لا يزال يخدمه!

تابع تأمل الناس والعربات والأبنية منذهلاً. كان كل شيء غاية في التفاهة، وغاية في الحزن! ولا شك أنه أحسن صنيعاً، هذه الأشهر

الأخيرة، حين لم يخرج ولم يرَ أحداً. ولربما لهذا السبب باتوا يمنحون مستخدمي قصر الأحلام فرصاً نادرة للغاية. وقد أدرك الآن أنه لم يكن لديه ما يفعله في هذا النوع من الراحة. وبدا له عبثاً التطواف في هذه المدينة الذابلة.

وثابر مارك ـ عالم على معاينة ما يحيط به بعين باردة. وطفق يزداد يقيناً بأن لا شيء غير مسوغ في ما يشعر به، بيد أن العالم الآخر هنالك رغم السخط الذي طالما أثاره فيه كان آثرَ لنفسه من ذلك. حتى لم يظن قطّ أنه قد ينفصل بهذه السرعة عن العالم هذا، عقب غياب عنه دام أشهراً معدودات.

وكان قد أخبره أحدهم عن مستخدمين عتاق في قصر الأحلام ممن زهدوا في الدنيا وهم لما يزالون فيها، وممن ثابروا على المغامرة في وسط معرفة الأحلام، إنهم يبدون وكأنهم هابطون من القمر. ألن ينتهي بدوره إلى مثل هذا المصير، في غضون سنوات؟ وبعد؟ قال إذن. أنظر العالم البهيّ الذي قد تغادره! وراح المارة يرشقون مستخدمي قصر الأحلام التائهين بابتسامتهم الخبيثة، غير أنهم لم يكن بوسعهم أن يتخيَّلوا إلى أيّ حدّ كان يبدو وجودهم المحض قاحلاً وحقيراً في نظر رؤاة التبير.

وصل أخيراً أمام شرفة اللقالق إلى حيث يرتاد عامة ليتناول القهوة في زمن كان لا يزال... (وجعل ذهنه يبعد بلمح البرق كلمة «حيّاً» ثم كلمة «يقظاً» على التوالي). إذن، كان قد بلغ هذا المكان حيث اعتاد أن يتناول قهوته في حين كان لا يزال شاباً عاطلاً في العاصمة. دفع الباب ودخل إلى المبنى دون أن يلتفت التفاتَ تفقُّد، وتوجه ناحية الزاوية اليسرى من القاعة حيث يؤثر الجلوس عادة، واتخذ له مكاناً

على كرسي. كان المقهى يروقه بخلاف قاعات الشاي على النمط القديم، وكانت الكنبات قد أبدلت ببعض مقاعد، مغطاة بجلد، واطئة، ومريحة للغاية.

بدا له صاحب المقهى شاحب الوجه.

ـ مارك ـ عالم: قال بنبرة المُندهش، وهو يقترب وبيده ركوة القهوة. أين تواريت كل هذه المدة؟ ظننت أنك تعاني أمراً. إذ لم أقوَ على الاعتقاد، صراحة بأنك لم تعد من زبائني.

أبدل مارك ـ عالم الشرح بابتسامة. فبادله حاجب الحانة بمثلها، ودنا برأسه منه وقال له بصوت خفيض.

ـ ولكني علمت، من ثمّ، ما كان من أمرك... قهوتك كالعادة، مع قليل من السكر؟ أردف يقول لما رأى سحنة محدثه تتكدر.
ـ نعم كالعادة قال مارك ـ عالم موافقاً دون أن يرفع عينيه نحوه.

وكبت تنهداً وهو يتابع بعينيه خيط القهوة ينصب في الطاسة. ثم ما أن ابتعد الآخر، حتى نظر حوله ليتثبت من أن الزبائن المعتادين لا يزالون هنا. كانوا كلهم حاضرين: حِجّةُ الجامع المجاور، برفقة رجلين فارعي الطول لا يسمع لهما أدنى نأمة، والمهرِّج علي المحاط أبدا بجمهرة من المعجبين، ورجل أصلع ودحداح، منكب كعهده على بعض الأوراق العتيقة، التي راح صاحب المقهى يصفها ممازحاً بأنها إما مخطوطات قديمة، ينهك نفسه زبونه البحّاثة في ترجمتها، أو أوراق دعوى قديمة عثر عليها، أم كتاب طلاسم غامض كان اكتُشف في خزانة نخرة لعجوز خَرِف.

ها هم العميان...، قال مارك ـ عالم في سرّه. كانوا جالسين في

موضعهم المعتاد إلى يمين المبسط. آه إنهم يسيئون إليّ أيّ إساءة! كان أسرّ إليه صاحب المقهى يوماً. كان يمكن لي أن أكسب بالتأكيد زبائن نخبة لو لم يرتد هؤلاء الأشخاص بسحناتهم المنفرة مقهاي، ويحتلّوا دوماً أفضل الأماكن، كأنما يفعلون ذلك لإغاظتي! ولكن لا حيلة لي في ذلك، فأنا مغلوب على أمري. الدولة تحميهم، ويستحيل طردهم. وكان يسأله مارك ـ عالم آنئذ عما يعني بـ «الدولة تحميهم» فرد عليه صاحب المقهى الذي توقع منه السؤال الآنف بحكاية خلبت لُبّه. فالعميان الذين يرتادون مقهاه لم يكونوا ممن فقدوا البصر على أثر مرض أو نتيجة حادث أو جرح أصيبوا به في الحرب. ولو كانت تلك علل آفتهم لكان استقبلهم لديه على الرحب. إنما كانوا عمياناً من طبيعة أخرى، كاد سبب عماهم أن يكون عصياً على الكشف. وشرح له صاحب المقهى أنهم لم يعانوا قطّ أيّ عاهة جسدية، بل لطالما تمتعوا بحسّ البصر، غير أن عيونهم على خلاف ما لدى عامة المائتين، كان فيها نظرة شريرة، ومن ثم على حدّ ما علم مارك ـ عالم عمدت الدولة العثمانية، لحماية نفسها ومن أجل أن تقي بقية أفرادها، إلى إصدار مرسوم خاص بأن يصار إلى فقء عيون هؤلاء الأفراد، وخصتهم بالمقابل بمنحة نفقة على مدى الحياة دليلاً على حلمها. هَلاّ أدركت الآن لماذا لا يسعني أن أطردهم من مقهاي؟ وباتوا فخورين بتضحيتهم هذه، حتى بلغ بهم الافتخار حد التيه: وربما حسبوا أنفسهم أبطالاً!

كان مارك ـ عالم يجهل وجود هذا المرسوم، إلا أن رواية صاحب المقهى التي جعل يلوكها كلما دخل زبون جديد، بدت له أول الأمر ثمرة عقل فاسل. ولكن بما أن الأخير أطلعه على ما شاء، بات يدرك

أن مرسوماً كهذا يوجد حقاً، وأنه كان حقاً طُبِّق في أرجاء الامبراطورية.

نظر مارك - عالم إليهم بفضول، فلم يجدهم مرعوبين على الإطلاق رغم العُصابة السوداء التي وضعوها على عيونهم. إذْ عاين أنواعاً من النظرات هنالك أوحت له بما يرعب الأبدان، فراح يتمثل للحظة، العيونَ هذه، في إرعابها السني، منفتحةً لا تحت جبين بَشَرِي، بل لدى طرف السماء أو في قلب الجبل من الصميم، وقد غمرتها أحياناً دموع قمر يروح يتسمّر على تخومها ذات نوازل من شمع.

ما كان ليرجفه الإبلاغ عن الرجال ذوي العيون الشريرة، الذي كان رواه له صاحبُ المقهى فأذهله في حينه «(إذا أمكن أن ترمى الرسائل التي تبلّغ عن الناس ذوي النظرة الشريرة في أيّ علبة رسائل)، ولاجتماع لجنة الدولة الشهري، الذي يقرر في خلاله، وبعد فحص كل حالة فحصاً دقيقاً، تسمية الذين لديهم حقاً عين شريرة من بين الموقوفين التعساء فيلزم فَقْأها، ولم تكن لترجفه حتّى هذه العقوبة التي تكال لمن تعرض للحق العام، باعتبارها مفصّلة في الخطاب التقليدي الذي يُتلى أمام الأفراد المعميين لتوهم. كل هذه ما كانت لترجف مارك - عالم لأمد قريب، حتى بلغ به الظنّ أحياناً، أنه من الآن حتى سنوات قليلة، لن تعود تثير فيه عجائب الدنيا ولا أهوالها أقل انفعال، إذْ ليست هذه في نهاية المطاف سوى نسخات باهتة عنها هنالك، ممّا أمكنها اجتياز الحدّ الفاصل بين هذا العالم وذاك. ولطالما انتهى إلى أن الفردوس وجهنم مختلطان هنالك كلما تلفظ الناس أمامه بعبارات: أيّ عجيبة هذه أو أيّ رعب...

انفتح باب المقهى، وأطلّ منه بعض الموظفين في القنصلية الأجنبية القائمة في أحد الأبنية المقابلة. إنهم يرتادون المقهى ليشربوا القهوة، تفكر مارك ـ عالم في سرّه. وساد الصمت برهة طاولة المهرّج.

فيما مضى، كان ينتابه بدوره شيء من الإثارة كلما دخل أجانب إلى البناء، حيث يكون، فيروح يعجب سراً بملبسهم الأوروبي، أما اليوم فيبدون هم أنفسهم لناظريه مجرَّدين من أيّ سر.

كان الوقت صباحاً حين بلغ الحشد في المقهى أوجه. وأمكنه أن يتعرف مستخدمي مصرف «الأوقاف»(*) القائم على بعد عشرين خطوة من هنا. ثم دخل الشرطي المعين لمراقبة المفترق، فبدا له بالظاهر منصرفاً من خدمته لتوّه. ودخل على أثره بعض الأشخاص لم يكن مارك ـ عالم يعرفهم وتصاعد آنئذ من طاولة المهرّج والمعجبين به ضحك مستغرق. فقال في سرّه: يمكنكم أن تضحكوا، فلأرواحكم العابثة، الدنيا روضة من ورود...

وبغتة عاود خاطره، أشبه بغيمة دكناء، عشاء أمس الأول لدى خاله الوزير المقتدر. لم يكن رآه، منذ ما يقارب السنة، وإذْ عاد من عمله، لمح عربة متوقفة أمام منزله، وقد نُقش عليها حرف «ك»، محفوراً على بوابتيها، فانتابته الرعشة مثلما كانت تنتابه كلما رآها. إلاّ أنَّ الدهشة بلغت فيه مبلغاً حين أخبرته والدته بأن الوزير بعث بعربته في أثره وأنه ينتظره.

(*) ربما تكون الكلمة جمعاً لـ «وقف»، وهي أموال توقف من قِبَل مالكيها لمصلحة رجال الدين والمؤسسات الدينية.

رغم حرارة الترحاب التي لقيه بها بدا الوزير متعباً، عبوساً. وكانت نظرته ذابلة كأنما عانده الرقاد. أما تعابيره فكانت تتخللها مقاطع من الفراغ، مما يهب الانطباع بأنه يكتم الجزء الأكبر مما يريد قوله. إنها هموم السلطة، قال مارك ـ عالم في سرّه. سأله خاله عن عمله، فراح يروي له بشيء من الانزعاج أول الأمر ثم بحرية مطردة، مختلف مظاهر العمل، ولكن بدا له أن الوزير يصغي إليه بشرود وبذهن غائب. وسرعان ما أدرك بأن ما أخذ يرويه من الأمور التي حسبها هامة لم يكن يعرفها الوزير فحسب، إنما أيضاً كان على صلة بكل شيء، ويعرف عن التبير سراي ما لا يعرفه أي امرىء من أولئك العاملين فيه، فاحمرّ خجلاً. وأخذ الوزير يتكلم عن التبير بنبرة بطيئة، موقعاً عباراته بوقفات عديدة وتاركاً أموراً كثيرة في الظلّ. ورغم كل شيء، ألمّ مارك ـ عالم في برهة الزمن هذه عن التبير سراي ما لم يدركه في كل فترة خدمته التي أنجزها حتى اليوم.

كان كلاهما وحيدين، مما لم يحدث من قبل، وطاسة القهوة أمامهما، ومارك ـ عالم لا يزال عاجزاً عن إدراك السبب الذي من أجله استدعاه خاله الوزير. كان الأخير يتحدث بصوت خافت، مؤجِّجاً من حين إلى آخر الجمر المشتعل في الدفاية التي أخذ يغلب حضورها حضور مارك ـ عالم. وراح الوزير يتحدث عن علاقات الكوپريلي مع قصر الأحلام فسرد له ما سبق لابن اخته أن قاله بشأن العلاقات التي كانت لمئات السنوات في غاية التشوش. وبدا أنه أوشك على إضافة شيء ربما حول الجهود المحمومة التي بذلها آل الكوپريلي من أجل إلغاء قصر الأحلام الذي تناهت إلى مسامعه بعض الشائعات بشأنه، ولكنه عدل عن رأيه، في الظاهر وظلّ وقتاً

طويلاً يؤجِّج الجمر ضاغطاً السطام(*) بين أصابعه بعصبية. ليس سرّاً، قال: إنَّ التبير سراي صار منذ بعض السنوات تحت رحمة المصارف ومالكي النحاس في حين أنه جعل يقترب مؤخراً من معسكر شيخ الإسلام. ولربما تساءلت عن مدى الأهمية في ذلك. إنها حقاً لفي أقصى الأهمية. إذْ ليس عبثاً أن يشاع أنّ كان في هذه الأيام الأخيرة أنَّ كل من تكُنْ له اليد الطولى في قصر الأحلام يحصَلْ على مفاتيح الدولة.

الواقع أن مارك ـ عالم كان سمع شيئاً من هذا القبيل، ولكن ليس بهذه الطريقة الواضحة، وبالأخص ليس من شخصية حكومية بهذا المقام العالي. مما أبقاه منذهلاً، وكأن ذلك لم يكفِه إذْ سأله الوزير عما يفعله المستخدمون بأعداد الأحلام التي لا تحصى بعد أن تمّ فحصها في التبير سراي.

احمرَّ خجلاً، وهزَّ كتفيه وأجاب أنه لا يدري. فأذَّله ذلك وتمنّى لو أن الأرض تنشق وتبتلعه.

في الحقيقة أنه كان يحدث له في مناسبة أو في أخرى أن يتساءل: ماذا نفعل بالأحلام؟ وللحال تفكّر بسذاجة أنه ما أن يستخرج الحلم الأقصى في ما يشبه انفصال الزؤان عن القمح، حتى تنفصل أعداد من الأحلام غير المفيدة وتُعلَّب ثم ترسل إلى الوثائق.. ولكن ما كاد الوزير يطرح عليه السؤال حتى قال في سرّه: إنه لمن العبث التفكير أن يؤول جبل الأحلام هذا، بعد أن يتمخض عن زهرة نادرة وهي الحلم الأقصى، إلى الاطِّراح جانباً هكذا. وشرح له الوزير أن خيار

(*) حديدة تحرك بها النار.

الحلم الأقصى كان ولا شك أولى المهام التي توجب على مستخدمي هذه الشعبة أن يبرزوه بأن يستخرجوا شعاره الذي أمّده بالأسم. مع ذلك كُلِّف مأمورو الحلم الأقصى أيضاً مهمة تحرير تحذيرات موجهة إلى كافة مؤسسات الدولة الرئيسية، بالإضافة إلى تلخيصات ودراسات أخرى سرِّية حول بعض المسائل وبالأخص حول أمراض الذهان التي تصيب مختلف طبقات الامبراطورية وشعوبها العديدة.

كان مارك ـ عالم يتشرَّب أقواله تشرباً. بالطبع، رد عليه محدثه، يظلّ الحلم الأقصى عنصراً أساسياً، وبالأخص في لحظات كهذه، وبالأحرى لما يمس عائلتهما. وجعل الوزير يتفحص وجه ابن اخته كأن ليطمئن بأن هذا أدرك جيداً أن الكوپريلي لم يكُنْ قد أشير إليهم من خلال أحلام عاديّة، بل عبر أحلام قصوى، بصورة خاصّة.

أتدري ما أقول؟ أضاف قائلاً. وغطّى عينيه حجاب رقيق، قاتم، ولكنه لماع... ناحية الحلم الأقصى تتجه كل... وعادت عبارات الوزير ضبابية، تقطعها في الغالب وقفات فراغ... هناك عدد من الشائعات يسري بهذا الشأن لن أحكم على صحتها أو زيفها، ولكن ما أودّ أن أنبهك إليه هو أن الحلم الأقصى كفيل بأن يثير تحويلات هامة في حياة الدولة... والتمع، خطفاً، بريق ساخر في عيني الوزير... كان حلم أقصى ما أوحى بالمذبحة الكبرى التي راح ضحيتها القادة الألبانيون في موناستير. أتكون سمعت بذلك؟ كذلك الأمر كان حلم أقصى ما دفع إلى إعادة النظر بالسياسة إزاء نابليون وسقوط كبير الوزراء يوسُف. والحالات من هذا النوع تكاد لا تحصى.. وليس من العبث أن يعتبر مديرك، المتصنع في الظاهر والمجرد من أيّ لقب، منافساً بالقوة، أكثر الوزراء نفوذاً.

وعلت ثغره ابتسامة مرارة.

ـ وإذا أمكنه أن ينافسنا، أضاف بنبرة متمهلة، فلأنه حائز على سلطة هائلة، تلك السلطة التي لا تستند إلى وقائع. كان نظر مارك ـ عالم متعلقاً بشفتيْ خاله... وراح يردد في سره مستسلماً كلياً: سلطة هائلة لا تبنى على وقائع... في حين تابع الوزير يشرح له أنّ أي أمر ما كان ليصدر ولا يسعه الصدور عن التبير، وأنّ التبير لم يكن بحاجة إلى ذلك، على أي حال. ولما كان يطلق أفكاراً، وقد حبته آليته الغربية بسلطة مشؤومة، طفق يعتبر أفكاره الآنفة مستمدة من أعماق الحضارة العثمانية السابقة كل العهود.

ـ وكما قلت لتوي، نحن آل الكوپريلي الآخرين كان لنا غالباً شأن مع الأحلام القصوى... وراحت كلمات الوزير تخرج من شفتيه المزمومتين أشبه بالصفير. وغالباً ما كنا نسدِّد الضربات...

استعاد مارك ـ عالم في ذهنه ليالي الوشوشات والقلق في منزله الوسيع. فبدت له الأحلام القصوى على شكل أفاع بارزة الأنياب. وأخذت عبارات الوزير تزداد غموضاً. ومن حين إلى آخر راح كلامه يلامس اهتماماته ولكنه سرعان ما يغطي ذلك الكلام ويخفيه:

ـ كان عليك أن تدخل باكراً إلى التبير سراي، ولكن ربما لم يتأخر الوقت بعد...

وغشي كلامه، الغامض باطراد، انقطاعات وترددات. وما كان مارك ـ عالم ليدرك مآل هذا الحديث. وأيقن أن الوزير لا يحبِّذ أن يميط اللثام عن عمق فكرته. يا إلهي، ولكن له ملءُ الحق في ذلك، قال في سره أخيراً: أليس هو رجل دولة أما أنا فلا أعدو كوني

مستخدماً بسيطاً. فأفهمه الوزير بشكل فاضح بعض الشيء بأنه ما كان ليعين في التبير بالصدفة. وأنه ينبغي له أن يؤدي منافسة، وأن يسعى إلى فهم آلية اشتغال التبير كلها وما كان جوهرياً فيها، وأن يتنبّه جيداً للحظة السانحة... ولكن ماذا؟ أية لحظة؟ أينبغي له أن يسأل، ولكن خانته الجرأة. كل شيء كان غاية في القتام... لسوف نتكلم في هذا الشأن نحن الاثنان، قال له الوزير. ولكن خيل لمارك ـ عالم أنه لا يزال متردداً في أن يسرّ له صراحة. فعاد والتقط طرف الحديث بعد أن كان تركه معلقاً، ورمى إليه بشعاعيْ ضوء أو ثلاثة ثم ما لبث أن أطفأ كل شيء.

ـ أظن أنك سمعت بميل السلطة في التبير سراي في بعض مراحل الأزمة، إما إلى أفول أو إلى تنامٍ، وبالعكس. ونحن نعيش بالتحديد إحدى هذه المراحل، ولسوء حظّنا فإن سلطة التبير هي إلى تعاظم.

لم يجرؤ مارك ـ عالم أن يسأله أيّ أزمة يقصد. وقد خيل إليه أنه سمع بمشروع لإصلاحات كبرى كان لها أن أغضبت رجال الدين وطبقة العسكر، ولكنه لم يعرف شيئاً محدّداً عن هذا ولربما كان الكوپريلي معنيين بهذا الشأن؟

ـ الوقت عصيب لنا، أضاف الوزير. يمكن الحلم الأقصى أن يضرب مجدداً...

وجهد مارك ـ عالم في أن لا يفوّت نتفة واحدة من كلام الوزير.

ـ فالمسألة المطروحة الآن. أضاف بعد طول صمت، هي معرفة أيّ من العالمين يسود الآخر.

يا إلهي، ها هو يخرّف ثانية: قال مارك ـ عالم في نفسه. وهذا

بالضبط في اللحظة التي بدا له فيها أنه على وشك الإسرار إليه بشيء!

ـ بعضهم، تابع الوزير، يظنون أن عالم الإقلاق والأحلام باختصار، عالمكم أنتم، هو ما يقود هذا العالم. أما أنا فأعتبر أن كل شيء يقاد من هذا العالم. وأن هذا العالم هو ما يختار، آخر المطاف، الأحلام والكُرَبَ والهذيانات على السواء، التي يجدر إصعادها إلى السطح، مثلما يرفع دلو مياهاً من عمق البئر. أتدرك ما أقول؟ إنه العالم هذا الذي يختار، من هوته تلك، ما يهمه.

وأدنى الوزير رأسه أكثر من رأس ابن أخته. والتمع في عينيه بريق مرعب بلون الكبريت.

ـ يقال، إن الحلم الأقصى يكون أحياناً مختلفاً بالكامل، أَفْلَتَ قوله بلطف. ألم يخطر لك خاطرة مماثلة؟

تجمّد مارك ـ عالم من الرعب. أيكون الحلم الأقصى مختلفاً؟ لم يكن ليتخيّل. قطّ أن يجرؤ ذهن بشري على ابتكار فظاعة كهذه، بل أن يقوى على إرسال الأمر إلى فمه كي يصوغها بوضوح. وما برح الوزير يروي له ما يقال عن الحلم الأقصى، بيد أن مارك ـ عالم لبث يتفكر في نفسه لمرتين أو ثلاث: يا إلهي، ولكن الظاهر من كلامه، أنه تماماً ما يعتقده ذاته! ولم يكن قد عاد عن ذهوله، حين بلغه صوت الوزير كأنما عبر تقصّف جرف ثلجي. كان يحكي، إذن، أن بعض الأحلام القصوى كانت مزيفة، وأنها كانت صنعت في التبير سراي على يد المستخدمين أنفسهم، وفقاً لمصالح المجموعات القديرة والمتنافسة في السلطة، أو بحسب مزاج السلطان؛ ولئن كان بعض الأحلام القصوى مزيفاً كلياً، فإنها ربما كانت ملفقة جزئياً.

وتولت مارك ـ عالم رغبة ملحاحة في أن يرتمي على قـدمي الوزيـر متوسلاً إليه: اجعلني أغادر هذا المكان، يا خالي، انقذني! ولكنه كان على أتم الإدراك أنه لن يسعـه صياغـة صلاة كهـذه، رغم يقينه بـأن عمله هذا سوف يفضي به إلى المشنقة.

حين عودته تلك الليلة من لدن الوزير، شعر بأن ذاك القلق أنهكه أشد الإنهاك. كانت العربة تجري في شارع ذي مصابيح مطفأة وغلب عليه شعور، وهو محبوس في تلك العـربة الصغـيرة التي طبعت بخاتم كأنه ختم القدر إذْ نقش حرف «ك» على جانبيها، بأنه يطير، طير ليل وحيد، في أقواسٍ بين عالمين لا أحد فيهما يعرف أيّاً من العالمـين يقود الآخر...

كـان ينبغي له أن يفتـح عينيـه في اللحـظة المؤاتيـة.. ولكن بـأيّ إشارة يدل على هذه اللحـظة، وأيّ ملاك أو أيّ شيـطان سوف يـأتي ليخـطره، وكيف يتعرّفـه، ومع من يجـدر بـه أن يتصـادق عـبر مـزق الضباب في التبير سراي.

وراح يتذكر ذلك المشهد في المقهى، وهو يقلب بين أصابعه طاسته الفارغة. وحتى هذه اللحظة، وبعد مضي أيام معدودة على ذلـك، لا زال نفس القلق يصيب صدره بشيء من الانقباض.

باعث ما دفعه إلى الالتفات ناحية الـطاولة حيث تـوقف المعجبون بالمهرّج علي عن الثرثرة وراحوا يتأملونه بعيون جاحظة.

أغاظه الأمر، إذْ كان صاحب المقهى قد نقل لهم عن مارك ـ عالم أنه بات يشتغل في التبير سراي. ولم يكن خـافياً عـلى هذا الأخـير أنه عـاجز عن الإمسـاك عن الكـلام، ولكن أن يكـون ثـرثـاراً إلى هـذه

الدرجة! وفي آخر المطاف فليمضِ إلى الشيطان هو وسائر الفضوليين أمثاله: وحتى أنه ذاته لن يطأ على الأرجح هذا المقهى سوى مرتين أو ثلاثاً طوال الفصل. وربما لمرات أقلّ، أو لن يدخله على الإطلاق.

وما أن اقترب وقت الغداء حتى فرغ المقهى، فالدبلوماسيون الأجانب كانوا غادروا المقهى وكذلك مستخدمو المصرف. أما المعجبون بالبهلوان فقاموا بدورهم بعد أن ألقوا بنظرة أخيرة مذهلة باتجاه مارك ـ عالم. وحدهم العميان لم يحركوا ساكناً، ولما كانوا ختموا محادثاتهم منذ زمن بعيد، بدوا جالسين مشرئبي الأعناق، نظير ما يفعل الناس المغاظون أو الذين أغضبهم البشر الآخرون. وبدت هذه الرؤوس الساكنة تقول: أتسير أمور الدولة أفضل اليوم وقد سملت أعيننا التي زعموا أنها تسيء إليهم؟ وعلى ما نسمع، فإن العالم ظلّ على ما كان عليه، إن لم يكن صار إلى أسوأ.

وانتهى مارك ـ عالم إلى أن دفع ثمن قهوته، ثم قام وخرج يسير الهوينا متجهاً نحو بيته. وبعد مضي وقت على مسيره، ندم لكونه لم يستدعِ حوذياً. كان دلف إلى الشارع حيث يسكن حين تناهت إليه أصوات راحت تتهامس: إنه يعمل الآن في التبير سراي، فتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً وتابع طريقه، عالي الهامة، حيّاه تاجر الكستناء، وعميل الشرطة الذي في الزاوية ببالغ الاحترام. فهذان كانا قد علما بالتأكيد بمكان عمله، حتى ليستقرىء المرء في نظراتهما نوعاً من الذهول وكأنما يدهشان لرؤيته ما يزال بلحمه وشحمه، وهو من بات عليه ألاّ يتراءى سوى في مظهر شبه لا مادي.

خلف مصبّعة(*) نافذة المنزل المقابل تميَّز خيالاً. كان يعلم أنه

(*) مصبّعة: حاجز حديد مشبّك. (المحرر).

تقطن في البيت أختان جميلتان لطالما راق له أن يفكـر فيهما، أمـا اليوم فقد بدت له المصبّعة هذه خالية تماماً.

ها إن زيارتي الأولى عالم الأحياء شارفت على نهايتها، قال هـذا في نفسه دافعاً باب الحوش. وراح حفيف أشبه برفرفة الأجنحـة يلازمـه في تسكعه، كما لو أن قسائم من العـالم الآخر ظلت متشبثـةً بجسده. ولليالٍ خلت يوم كان لدى الوزير أثقلته فكرة تعـرضه للمـوت، غير أن هذه الفكرة بالذات جعلته الآن غير مبالٍ. كان العالم كئيباً للغـاية بحيث لم يعد يستأهل القلق من احتمال فقدانه.

فتح الباب الداخلي، ودخل دون أن يلتفت ليرى مـا يخلّفه وراءه. غداً..، قال في نفسه متمثلاً عبر خاطره القاعـات الباردة، والملفـات التي تنتظره على الطاولات. غداً، سوف يكون هنالك، في هذا العالم الغـريب حيث الزمن ومنـطق الأشياء، وكـل الباقي يخضـع لقوانـين مختلفة جذرياً، وتمنّى في نفسه، أنه لو منح يوم عطلة آخر، فلن يخرج إلى المدينة.

الفصل الخامس

الوثـائق

بعيد استراحة الصباح، أُخطر مارك ـ عالم بأن الناظر يطلبه فمضى ماشياً على رؤوس أصابعه كي لا يُحدث ضجة، باتجاه مكتب رئيسه؛ وأمكنه أن يتعرف، على الفور الملف الذي كان أودعه لديه هذا الصباح، موضوعاً على المكتب.

ـ مارك ـ عالم، قال له الأخير، أظن أنه يحسن بك بالنسبة إلى أحد هذه الأحلام (وراحت أصابع الناظر تقلب الملف بسرعة) عجباً ها هو. ـ أظن إذن، أنه إزاء أحد هذه الأحلام، وبالأخص بشأن ذاك (ورفع الورقة من الكدسة) لا يضير بك أن نزلت إلى دار الوثائق، للأطلاع على التأويل الذي أعطي حتى الآن لهذا النوع من الأحلام.

تفحص مارك ـ عالم الورقة التي كان سجل في أدناها شرحه للحلم، ثم رفع رأسه باتجاه الناظر.

ـ تصرف على ما تهوى، أضاف الأخير، ولكن أظن أنه يجدر بك أن تتبع نصيحتي، لديّ انطباع بأن هذا الحلم هام وأنه لمن الصواب أن يسترشد المرء في حالات من هذا النوع، بالخبرة المكتسبة.

ـ نعم، بالتأكيد، ليس أدنى شك في ما تقول، مع ذلك. . .

ـ ألم تذهب قطّ إلى الوثائق؟ قاطعه الناظر.

فرد عليه بإيماءة نفي من رأسه، ابتسم الناظر وقال:

ـ إن ذلك لفي غاية البساطة. هنالك أناس أنيط بهم هذا الأمر خصيصاً. فما عليك سوى أن تقول لهم من أيّ طبيعة هو الحلم الذي من أجله جئت تستشيرهم. وفي هذه الحالة، تغدو الأمور في غاية اليسر، إذْ تكون الأحلام المصنوعة عشية الصدامات الدامية جُمعت كلها معاً. وأنا على يقين بأن إلقاء نظرة على بعض من تأويلات هذه الأحلام يعينك على حلّ معميات حلمك هذا بطريقة أصحّ. وجعل الناظر ينقر بإصبعه على الورقة التي يمسك بها أمامه.

ـ بالتأكيد، قال مارك ـ عالم ماداً يده لاستعادة الورقة.
ـ الوثائق في الأسفل، في الطابق تحت الأرض، قال الناظر. ولا بد أن تلتقي في المماشي بأحد يدُلّك على الطريق.

خرج مارك ـ عالم بخطوات متّزنة. وما أن بلغ الممشى، حتى تنفس الصعداء، قبل أن يقرر الوجهة التي قد يتخذها. ولكنه تذكر أن عليه في البدء أن ينزل إلى الطابق الأرضي، ومن هناك فقط يباشر أبحاثه.

وهذا ما فعل واستغرق بلوغه أخيراً تحت أرض القصر قرابة النصف ساعة. والآن؟ قال في نفسه، حين ألفى نفسه وحيداً في سرداب طويل مقبّب، تضيئه إضاءة طفيفة فوانيس نُصبت على جانبي جدرانه. وخيّل إليه أنه يسمع خطوات بعيدة عنه، فحثّ خطاه لبلوغ المرء المجهول، غير أن خطوات الأخير راحت تتسارع بدورها. توقف ففعل الآخر مثله. وأدرك حينئذٍ أن هذه ما

كانت إلاّ خطواته.

ـ يا إلهي. قال في نفسه، إنها الحكاية نفسها في هـذا القصر الملعون: فما كان كلفهم لو أنهم وضعوا بعض اللافتات الصغيرة لتحديد اتجاه الشُعب المختلفة؟ فقد صار لديه يقين راسخ بأن هذا السرداب هو على شكل دائري. وأحياناً يخيل إليه أنه يسمع وقع خطوات متباعداً، ولكن هذا قد يكون صدى لصدى خطواته أو صدى خطوات أناس يمشون في طوابق أخرى. ومن الغريب أنه أنِس من نفسه الهدوء، رغم ذلك. ولسوف ينتهي على أيّ حال إلى الخروج من هنا كما فعل في المرات السابقة. وقد بات اليوم معتاداً على هذا النوع من المغامرات المزعجة. ولما راح يتابع سيره، اكتشف أن هذا السرداب الدائري كانت تقطعه ممّاشٍ أخرى متراوحة الاتساع. ولكنه إذْ خشي من أن يتيه أكثر، لم يجرؤ على أن يدلف إلى أحدها. وعلى مدى نصف ساعة خيل إليه أنه عاد إلى نقطة انطلاقه فقال في نفسه: ها أنا أدور على نفسي مثلما يدور حصان على بيدره... توقف لحظة وتنفس عميقاً ثم تابع تقدمه بعزم أكيد.

هذه المرة دلف إلى أول سرداب ملاصق ظهر أمامه. وسرعان ما سرّه ذلك. إذْ ارتسمت لمرآه على بعد خطوات معدودة صورة باب على أحد جداريه. وفي الأبعد انفتح باب آخر.

ـ ها هنا إذاً توجد هذه الوثائق الجليلة، قال في نفسه بارتياح دون أن يقوى على اختيار أيٍّ من الأبواب كي يدقّ عليه. تابع تقدمه وانفتحت له أبواب أخرى الواحد بعد الآخر في كلا الجدارين.

اقترب من أحدها، ولكنه أمسك عن الدق ثانية. سوف أحاول

المرة القادمة، واعَدَ نفسه: ولكن قراره ما لبث أن غشي عليه بدوره. كيف يسعه أن يتوقف هكذا أنّى كان وهو يجهل مكان وجوده؟ ولربما أحسن صنيعاً بأن ينتظر حتى ينفتح باب من هذه الأبواب من تلقاء نفسه وحتى يخرج أحد يستدل منه على المكان. جمد في موضعه، حائراً بما يفعل ويقرر. ولكن لو مرّ أحد ورآه منتصباً ها هنا مثل وتد لسأله: هه أنت، ماذا تختلق هنا؟. . . أيّ سأم هذا، قال في نفسه، وتابع سيره. نفس الأمر دوماً: حتى لتولّاه شعور بأن كل ما كان يفعله في هذا القصر منذ تعيينه فيه لم يعدُ كونه السير على غير هدى في المماشي دون أن يجد ضالته فيها. إلى الجحيم بكلِ الترددات وليكن ما يكون! قال في نفسه أخيراً، وطرق أول باب مَثُل أمامه بطريقة مباغتة وسرعان ما انكمشت يده على ما وسعه، حتى أنه حاول أن يمحو الضربات التي كان يوجّهها لتوه. ولكن هيهات إذْ بلغت أصداؤها الجانب الآخر بأجلى ما يكون. وانتظر بضع ثوان؛ لم يتناه إليه أيّ صوت من الداخل. حينئذ عزم على طرق الباب، فدق ثانية، ثم أدار مقبضه غير أن الباب لم ينفتح. لقد أُغلق بالمفتاح، ففكّر في نفسه، لقد ذهب كل تردّدي سدى. وتقدم أبعد قليلاً ودق الباب أقل خجلاً هذه المرة. كان هذا الباب مغلقاً أيضاً. وحاول كذلك لدن أبواب أخرى. كلها كانت مغلقة. ولكن أين أنا إذن؟ راح يسائل نفسه، أليست هذه دار الوثائق؟

ولمّا تولاه الغيظ حثّ الخطى وراح يشد على كل من المقابض المعدنية وهو يسير ويقوم بحركات نزقة، دون أن يطرق مطلقاً، يلازمه في ذلك غمّ ما كان ليعرف مصدره. وكانت في نفسه رغبة جامحة بأن يوسع هذه الأبواب الصمّاء ركلاً. وكاد يفعل ذلك بالتأكيد

في اللحظة التي انقطع فيها الأمل من نجاحه لو لم ينفتح له باب فجأة. فدفعه بحميَّة بالغة أوشك معها أن يندفع إلى الأمام بسرعة. ويلمح البصر انكمشت يدهُ محاولاً أن يلتقط بها مقبض الباب كي يعيده إلى الخلف، غير أن الأوان قد فات. فبدا الباب مفتوحاً على اتساعه كما لو لم يكن ذلك كافياً، وراحت عينان مذهولتان من هذا الاقتحام المباغت، يقوم به فرد تائه الهيئة، تتفحصانه ببرودة.

ـ ماذا يحدث؟ قال صوت مرتفع من عمق الغرفة. وظلت عينا الرجل الباردتان تتفحصانه.

ـ أستمحيك عذراً، قال مارك ـ عالم متراجعاً خطوة، أرجوك أن تعذرني (وراح جبينه يتصبب عرقاً)، أطلب منك العفو!

ـ آغا شاهين ما الذي يحدث لديك؟ ردّد الصوت الصادر من عمق الغرفة.

ـ لا شيء مهما أجابه الآخر، وعيناه مطرقتان إلى المزعج، وسأله: عمّ تبحث؟ ولكن مارك ـ عالم، هالكاً بارتباكه، فتح فمه دون أن يسعه معرفة ما يقول ولحسن حظه سلكت يده إلى جيبه حيث كان دسّ ورقة الدفتر.

ـ جئت أستشير الملفات... كما يفعل الموظفون عادة... بشأن حلم، قال بنبرة مترددة ولكن يبدو لي أنني أخطأت الباب. اعذرني إنها المرة الأولى.

ـ ولربما لم تخطىء، كان ذلك الصوت الثاني، ذلك الصوت الذي كان ارتفع، في البداية من وراء بعض الرفوف، وبات الآن قادراً على تحديد مصدره. وجه أليف، وعيناه زرقاوان بسّامتان، ظهر أخيراً.

ـ هذا أنت قال بصوت منخفض متذكراً على التوّ صباحه الأول

المشهود الذي كان له في مشرب التبير سراي، حيث كان تعرّف هذا الرجل. أتعمل هنا؟

ـ نعم، إذن، أتتذكرني؟ قال الآخر ناظراً إليه بشيء من الودّ.

ـ بالتأكيد ولكني لم ألقك منذ تلك المرة.

ـ أنا لمحتك يوماً لدى المخرَج، ولكنك لم تلتفت ناحيتي لتراني.

ـ هكذا؟ قد أكون ساهياً. . . كان يسرّني أن. . .

ـ إنك لتبدو منزعجاً. كيف يسير عملك؟

ـ حسناً.

ـ ألا زلت في شعبة الانتقاء؟؟

ـ لا، نقلتُ إلى شعبة التأويل.

ـ حقاً؟ قال الآخر، مندهشاً. لقد تدرّجت سريعاً. تهانينا! ليسرَني ذلك في الصميم.

ـ شكراً، هنا الوثائق؟

ـ نعم، الوثائق. أتيت للاستشارة؟

فوافقه بإيماءة من رأسه.

ـ سوف أُعينك.

أسرّ أمين الوثائق ببعض كلمات إلى رفيقه الذي جعلت عيناه تعكسان حشرية صارخة، بعد أن كانت البرودة طبعتهما.

ـ في أي شعبة تريد أن تباشر أبحاثك؟ سأله أمين الوثائق.

فهزّ مارك ـ عالم كتفيه قائلاً:

ـ لا أعرف. إنها المرة الأولى التي أنزل فيها إلى هنا.

ـ سوف أعينك في ذلك.

ـ أكون لك في غاية الامتنان.

فغادر أمين الوثائق الغرفة وتعقبه مارك ـ عالم.

ـ لطالما فكرت أنني سوف ألتقي بك يوماً، قال الآخر وهما يذرعان السرداب.

ـ لم أعد أراك في المشرب. كيف أمكنك أن تلمحني وسط الزحمة الشديدة التي كانت هناك...

ولبث صدى وقع أقدامهما يتردّد بإيقاع منتظم.

ـ أحقاً أن الوثائق هي بهذا الاتساع؟ سأله مارك ـ عالم مشيراً له برأسه إلى السراديب الكثيرة التي بدت تصب عمودياً في السرداب حيث يتقدمان.

ـ نعم إنه لمتاهةٌ حقيقية، قد يضيع فيها المرء.

ـ أنا محظوظ لكوني التقيت بك؛ دونك ما كنت لأعرف كيف أتصرف.

ـ سيّان الأمر، إذ لو كان شخص آخر غيري لكان ساعدك حتماً، أجابه أمين الوثائق. نعم! لسوف يوجد بالتأكيد أحد غيري ليمدّ لك يد العون كرر الآخر، أما أنا فقد أطوف بك في كل مراكز الوثائق.

ـ حقاً؟ قال مارك ـ عالم، الذي شعر بسيل الغبطة يغمره. ولكن ربما كان لديك ما تفعله، لا أريد أن أزعجك.

ـ ولكن لا أبداً! أنا في غاية السعادة لتمكني من أداء خدمة صغيرة لصديق.

لم يدرِ مارك ـ عالم المرتبك بما يجيب.

ـ فإذا كان التبير سراي بمثابة الرقاد بالنسبة للحياة الحقيقية، تابع

أمين الوثـائق دافعاً بـاباً بيـده، فإن الـوثائق هي بمثـابة الـرقاد داخـل رقاد التبير، وإن يكن أثقل من الأخير.

ولج مارك ـ عـالم، في أثر المـوظف، غرفـة بيضاويـة الشكل ذات جدران مغطاة حتى السقف برفوف عالية.

ـ هنـاك عشرات القاعـات مثل هـذه، قال أمـين الـوثـائق مشيـراً بـإصبعه إلى الـدوائر. أتـرى هذه الملفـات إنها تعد بـالآلاف، كي لا نقول بعشرات الآلاف.

ـ وكلها ملأى؟

ـ بالطبع، أجاب أمين الوثائق وهما يخرجان. ولكن سـوف نمر في كل الغرف وسوف يسعك أن تلاحظ ذلك بأم عينيك.

إنهما يمشيان الآن في سرداب ضيق بدت أرضـه لمارك ـ عـالم قليلة الانحناء. وكان يضيئه نور بعيد صادر ربما من سراديب أخرى أو من السرداب المستدير.

ـ هنـا، يوجـد كل شيء، قـال أمين الـوثائق متمهـلاً في خـطوه. أتفهم ما أقول: إذا حـدث أن اختفت الكرة الأرضيـة يومـاً، أو مثلاً إذا ما ارتطمت الأرض بكوكب فصارت نتفـاً، أو تبخرت أم غـرقت في الهوة ببساطة وإن تلاشت كـرتنا الأرضيـة دون أن تترك أثـراً سوى هذا الكهف المليء بـالوثـائق إذاً لكان هـذا كافيـاً من أجل إدراك مـا حصل. (التفت أمين الوثائق كأن ليستوثق أن كلماته أحدثت أثـرها في رفيقه). أتدرك ما أقول؟ ليس أيّ تـاريخ ولا أيّ مـوسوعـة ولا حتى كل كتب القديسين والأولياء مجموعة إلى بعضهـا، ولا أيّ جامعـة ولا أيّ كلية أو مكتبة ليس أيّ منها كفيلاً بتوفير الحقيقة عن عالمنـا بأكثف مما يستخرج من هذه الوثائق.

ـ ولكن أليست هذه الحقيقة مجافية بعض الشيء؟ قال مارك ـ عالم موشكاً على الاعتراض.

جانبياً بدا له ابتسام أمين الوثائق أكثر تهكماً مما كان عليه مواجهة.

ـ من بإمكانه القول إننا نحن من نرى المجافي للحقيقة بأم العين، وبالعكس، إن ما وصف ها هنا ليس جوهر الأشياء الحق؟ (تمهل أمين الوثائق أمام باب) ألم تسمع العُجّز قطّ وهم يتنهدون قائلين: آه، ليست الحياة سوى حلم. . .

دفع الباب ودخلا أولاً. كانت تلك قاعة بالغة الطول. كل ما فيها يشبه الأخريات، إذْ غطت جدرانها حتى السقف رفوف حشيت ملفات. وكانت كدسة منها وضعت على الأرض، خطأً بالظاهر. وبدا رجلان منهمكين أمام رفوف العمق.

ـ عما يدور حلمك؟ سأله أمين الوثائق.

فلمس مارك ـ عالم بيده الورقة المطوية في جيبه.

ـ إنه يستشرف إزهاق عدد كبير من الأرواح البشرية في حرب.

ـ آه، إن الأمر متعلق إذاً بالأحلام المصنوعة عشيّة المقاتل الكبرى. إنها مصنفة في شعبة أخرى، ولكن لا تهتم، سوف نجدها. هذه الأحلام (وأشار أمين الوثائق إلى الرفوف عن يساره) هي للشعوب المتجهمة وتلك في مواجهتنا، هي للشعوب الفرحة.

همّ مارك ـ عالم بأن يسأله عما يعنيه بهذا ولكنه لم يجرؤ على ذلك. وجعل يلاحق أمين الوثائق الذي أخذ يذرع الممرات الضيقة بين الرفوف، توقف الأخير أمام قسم كاد يلوي من ثقل الملفات.

ـ هنا توجد نهاية العالم بحسب الشعوب التي تكابد شتاءات عاتية الرياح. ولامس الرف بيده، كأنما شاء أن يقوِّمه، ثم دار نحو مارك ـ عالم: أحياناً، قال، يكون المؤوِّلون الذين ينزلون إلى دار الوثائق واثقين مكتفين بأنفسهم وثقالاً. أما أنت فإنك تروق لي، فأنت مهذّب ويسرّني حقاً أن أطلعك على كل شيء.

ـ أشكرك، قال مارك ـ عالم.

هذه القاعة الطويلة تتصل بباب واطىء جداً مع قاعة أخرى ملاصقة. وأخذت رائحة الورق العتيق تزدادُ عبوقاً في الجو حتى شعر مارك ـ عالم بأنها تعيق تنفسه.

ـ قيامة الموتى. . . قال أمين الوثائق، الله، أيّ الأهوال ليست ها هنا: . . . وأخيراً لنمضِ أبعد قليلاً، إليك هذا الركام المشوَّش: الأرض والسماء مختلطتان في كل أشعتهما. الحياة ـ موت أو الموت ـ حياة، إنها كما تشاء. . . مشاريع حياة ذات جذور أنثوية، وذات جذور ذكورية. . . ولنمضِ أبعد قليلاً نَرَ الأحلام الإباحية: كل هذه القاعة والقاعات المجاورة تلك ملأى كلها بها.

أزمات اقتصادية، انحدار قيمة العملات: إيرادات عقارية، مصارف، إفلاسات، كل شيء جمع هنا، عجباً إليك أيضاً المؤامرات، الانقلابات المخنوقة في مهدها. دسائس الحكم. . .

خيِّل لمارك ـ عالم بأن صوت أمين الوثائق يتردّد أبعد فأبعد. أحياناً، ما كان يتميز جيداً كلماته، وبالأخص في السراديب التي كانا يجوزانها للدخول إلى قاعة أخرى، وتروح القبة ترسل صدىً مرجعاً:

ـ الآن، آن. . . آن. . . سوف نرى. . . رى. . . رى. . .

أحلام الأسر. . . الأ. . . الأ. . . سْرِ. . . سْرِ. . .

ولدى كل صرير باب، راح مارك ـ عالم يرتجف حتى العظام.

ـ أحلام مرحلة العبودية. . . ، قال أمين الوثائق مومئاً إلى الرفوف المعنية، أو كما يدعونها أيضاً أحلام العبودية الأولى تفريقاً لها عن الأحلام اللاحقة، أي أحلام الأسر العميق. والواقع، أنها تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً شديداً. إنها أشبه بالغراميات الأولى، التي تختلف عن اللاحقة، حكماً. ومن هنا حتى عمق هذه القاعة صُنِّفت ملفات الهذيانات الكبرى.

ـ الهذيانات الكبرى. . . ، ردّد مارك ـ عالم في نفسه دون أن تقوى عيناه على مبارحة الرفوف. إلى أين سوف يستمر المسير عبر هذا الجحيم؟

ـ بالأمس أتى الموجلون بالحلم الأقصى إلى هنا، وقاموا بأبحاث حتى وقتٍ متأخر من الليل، أسرّ له أمين الوثائق بصوت خافت. ينبغي ألا يدهشنا الأمر إذْ يسع المرء أن يجد فيها مجتمعة، كلّ المصائب الكبرى، بدءاً بتلك التي شرع بعض الشعوب تسميتها بالنهضة الوطنية. إذْ لا يتعلق الأمر، إعلمْ، بانبعاث ميّتٍ بل بانبعاث أمّة بأسرها، ونوعِ الأشياءَ التي لا نجرؤ حتى على التفوه بها. . . الأحلام المصنوعة عشية إراقات دم، قلت لي؟

ـ نعم، إنها كذلك.

ـ تلك هي الملفات بالإجمال، يتعلق الأمر بأحلام مصنوعة عشية المعارك الكبرى، لا بل بعضاً من هذه المعارك خيضت قبيل الفجر. معركة كيركيلي. . . معركة بايازيد يلدرم ضد تامرلان، الحملتان ضد المجر.

ـ هل تُذكر هنا معركة كوسوفو؟ استعلم مارك ـ عالم بصوت بالغ الضعف.

رفع أمين الوثائق عينيه.

ـ أنت تقصد المعركة الأولى، معركة العام ١٣٨٩، التي شنت ضد كل البلقانيين مجتمعين؟

ـ نعم بالضبط.

ـ ينبغي أن تكون هنا بالتأكيد، انتظر لحظة.

استدار واختفى بين الرفوف التي جعلت تتلوى من ثقل الملفات، باحثاً في الظاهر عن المستخدم المولج بهذه الشعبة ولم يطل به الزمن حتى عاد مصطحباً الأخير.

ـ ها هنا توجد الأحلام السبعمئة المتعلقة بها، التي صنعت عشية النهار المشؤوم، قال أمين الوثائق متطلعاً حيناً إلى مارك ـ عالم وحيناً آخر إلى مستخدم الشعبة، ذي الرأس الهزيل القسمات، موافقاً كل كلمة من كلماته.

ـ كان يفترض أن يوجد أكثر من هذه، ولكن من المحتمل أن تكون ضاعت، قال المستخدم بصوت خافت. مع ذلك فإن عدداً من التي بقيت هي مبتورة، كما يمكن أن تكونه الأحلام المنسوخة على عجل لدى طلوع الشمس.

ـ حقاً؟ لم يتمالك مارك ـ عالم عن التعجب.

ولطالما كان سمع أهله يتداولون بشأن هذه المعركة المأساوية.

ـ الحلم الأقصى نفسه كان قد اختير على عجل ليحمل، منذ طلوع النهار إلى خيمة السلطان.

ـ أكان لديهم الوقت لاختيار الحلم الأقصى؟ سأل مارك ـ عالم، مذهولاً.

ـ طبعاً وإلّا كيف يتصرفون؟

ـ هل يوجد هنا؟

ـ كلا، فهذا (الحلم الأقصى) احتفظ به مع الأحلام الأخرى في قاعة الأحلام القصوى، قال المستخدم.

ـ لسوف نذهب إلى هنالك أيضاً، لا تقلق، قال أمين الوثائق متدخلاً.

ـ يسعني أن أصف لك إيّاه على ما يقرب الدقة، قال المستخدم بصوت دقيق. بالطبع إذا كان يهمك ذلك.

ـ نعم بالتأكيد.

تفحصه أمين الوثائق برهة ثم أخفض حاجبيه دالاً على فهمه. إذْ راح يقول له نظره: كيف لا تهتم للأمر وأنت واحد من آل الكوپريلي..

ـ كان أحد الجنود قد رأى في الحلم رفيقاً له، ميتاً منذ زمن بعيد، يدعوه إليه خلف منحدر، فقال له: إيه! ما تفعله أنت وحدك هنالك؟ ألا تضجر؟ لم لا تنضم إلينا؟ من هذه الجهة هم غالبيتنا. وراح المستخدم يروي بصوت بدا آتياً حقاً من وراء القبور. مما يعني أن النهار سوف يكون دموياً إلى حد كبير. وهذا ما صار إليه بالفعل.

ـ بحق الله، لم يكن ذلك مزاحاً! زاد أمين الوثائق. ها هنا أحيل المجموع البلقاني إلى عدم.

راح مارك ـ عالم يتفحص كلا من محدثيه الواحد تلو الآخر.

ـ اليوم، أيضاً، وبعد مضي خمسة قرون، غالباً ما يحلم البلقـانيون بهذه المعركة، قال المستخدم. هذا ما قاله صديق لي يشتغل في أحلام الشعوب المتجهمة.

ـ كل شيء واضح في هذا، ألمح أمين الوثائق الذي مـا برح نـظره مطرقاً إلى مارك ـ عالم.

ـ أتريد أن نفتح الملفات؟ سأل المستخدم.

ـ كلا ليس الآن، قال أمين الوثائق. سوف نعود بعد قليل. أليس كذلك؟ قال ملتفتاً إلى رفيقه الشاب لنـزُرْ بادىء الأمـر كل الملفـات، وبعدئذ يسعك أن تعود إلى هنا حيث تبقى ما شئت.

ـ اتفقنا، قال مارك ـ عالم.

وعادوا إلى السرداب حيث تناهى إليه صوت أمين الوثائق مضاعفاً بالصدى.

ـ الآن... آن... سـوف...نَ.رَى... نَ... رَى.. رَى.. نَرْ..

الأحلام القصوى.. لَم... العثمانية... نيَّة..

ـ كيف هـذا؟ سأل مـارك ـ عالم، وحـين اجتازوا بـاباً، أدرك أن تلفظ أمين الوثائق استعاد أداءه العادي.

ـ الأحلام العثمانيـة العتيقة، أجـاب. الأحلام الأولى التي قـام بها مؤسسو الامبراطـورية، أو الأحـلام النموذجيـة العتيقة، كـما يدعـونها أيضاً.

ـ أيكونون قد احتفظوا بها؟

ـ بـطريقة مـا، نعم، قال أمـين الـوثـائق، مثلما يحتفظ بـالـرسـوم

الجدرانية البالغة القدم. إنها هنا في هذه الملفات.

وحيًا مارك ـ عالم، بإيماءة من رأسه، المستخدم الصامت الذي كان ظهر فجأة من بين الرفوف.

ـ إنها قليلة العدد، ولهذا السبب بالذات، فهي أثمن بكثير، تابع أمين الوثائق. والواقع أنها بلغتنا مشوّهة إلى حدّ كبير بحيث لا يسع المرء أن يكتشف فيها إلاّ النزر القليل. وبرغم الترميمات المتالية التي أجريت فيها، على غرار الرسوم الجدارية العتيقة، فقد بقيت هذه الأحلام النموذجية تراوح على حالها من الرؤى المفككة، دون روابط فيها بينها، ونالت قدسيتها بمقدار ما خدمت أسس الدولة. وغالباً ما ينزل المؤوّلون الحاليون بغاية استشارتها واستيحاء الطريقة التي تمّ بها تفسيرها. أليس كذلك يا فوزول؟ قال مخاطباً المستخدم.

ـ هذا صحيح، قال الآخر. أمس مساء أيضاً لبث عديد منهم هنا إلى ساعة متأخرة.

ـ مؤوّلون من شعبتنا؟ سأل مارك ـ عالم.

ـ من شعبة الحلم الأقصى. أتعمل هناك؟

احمر وجه مارك ـ عالم خجلاً.

ـ لا، أنا أشتغل في شعبة التأويل.

ـ بدا لي أن الموجلين بالأحلام القصوى كانوا هنا بالأمس، أنّى كان، قال أمين الوثائق بصوت ظنّه رفيقه محمّلاً بأفكار مضمرة. شكراً فوزول، موجهاً كلامه إلى المستخدم.

وخرج أولاً.

ـ لَمِنَ العسير أن نفهم أيّ شيء فيما خص الأحلام النموذجية هذه، حتى إذا تمّ ترميمها، أضاف مخاطباً الآن مارك ـ عالم، اطّلعت على بعضها فبدت لي مخيِّبة تماماً، مثل هذه البساطات العتيقة حيث لا يتميّز أيّ رسم. رغم ذلك يقضي المؤولون ساعات وساعات منكبِّين عليها. (وأخذ أمين الوثائق يضحك وحده) ولكن فلأشْنَقْ إن هم فهموا شيئاً منها! يظلون هنا أبداً في خسارة محضة، متظاهرين بأنهم يقدحون ذهنهم في أمل أن يكتشفوا مدلولاتها الخافية، في حين أنهم لا يفكرون، في الحقيقة سوى في همومهم العائلية الصغيرة، وفي مرتباتهم غير الكافية أو في أمر آخر. آه، هاته أخيراً الأحلام القصوى.

ارتجف مارك ـ عالم كما لو أن أمين الوثائق كان دلّه على وكر للأفاعي حَسِب أن هذه الأخيرة كانت قد نفثت سمها منذ زمن بعيد. مع ذلك فإن هذه الأحلام لم تبدُ أقل رعباً حتى في هذه الحالة.

ـ هناك أربعون ألفاً منها، بالإجمال، قال أمين الوثائق وتنفّس الصعداء: ألله!

وتنفس مارك ـ عالم الصعداء أيضاً.

ـ والآن أضاف الآخر، هيا بنا نرى أحلام الملوك.

توقع مارك ـ عالم أن يلج قاعة في غاية المهابة، غير أنها كانت مماثلة للقاعات الأخرى. فالرفوف وباقي ما فيها كان متشابهاً مع فارق أن الملفات كانت تحمل على أغلفتها ختم الامبراطور. وأعلى كل منها كانَ دُوِّن اسم كل عاهل: رقاد السلطان مراد الأول، رقاد السلطان بيازيد، رقاد السلطان محمد الثاني، رقاد السلطان سليمان

العظيم. وهكذا دواليك.

ـ هذه الملفات لا يمكن أن تفتح إلاّ بأمر من العاهل، تمتم أمين الوثائق ومن خرق هذه القاعدة، ضرب عنقه. وجعل يزلق راحة يده أفقياً حتى أمام عنقه.

ومرّا بعد ذلك في قاعات أخرى حيث أودعت أحلام الشعوب الجُيوور(*)، أحلام العبودية العميقة، والمكارب. وهي تحتل ثلاث قاعات كبرى. أما الهذيانات التي تحدثنا عنها مطولاً حتى أتينا على وجوب أن تفحص أم لا في التبسير سراي، بالإضافة إلى رقاد المستلبين، ففي القاعة الأخيرة.

ـ إذن، أعتقد أنك كوّنت فكرة الآن عما هي الوثائق، قال أمين الوثائق وهما يغادران هذه القاعة الأخيرة.

نظر إليه مارك ـ عالم بعينين بدتا تلتمسان الشفقة. ورجعا حتى بلغا الرفوف حيث أودع ملف معركة كوسوفو، وهنا انفضّ الواحد منهما عن الآخر.

ـ حين تنتهي، قال له أمين الوثائق، اتبع هذا الممشى حتى تبلغ السرداب الدائري. وبمجرد أن تصل إلى هناك وسيّان اتجهت إلى هذه الناحية أو تلك: فلسوف تنتهي إلى الدرج ذاته.

دعاه المستخدم المولج بالخدمة أن يجلس إلى طاولة صغيرة حيث وضع أمامه الملف الذي يهمه. وراح مارك ـ عالم يقلب الصفحات العتاق الكرتونية بأصابع مخدّرة، وكان الورق من النوع الذي بطل

(*) عبارة مستكرهة يقصد بها المسيحيون.

استخدامه منذ الزمن الغابر. وكادت كلها أن تزخرفها البقع. كان الحبر قد بهت لونه، حتى أوشك عدد من الكلمات أن يكون غير مقروء. وبغتة استشعر مارك ـ عالم وخزاً عنيفاً في رأسه، كما لو أن أحدهم عاجله بضربة فأس. ذبابات كانت تتطاير أمام عينيه فتركهما مغمضتين لحظةً. البرهةُ الكافية لإراحتهما، ثم فتحهما. من ثم راح يقرأ بطيئاً، دون أن يقوى على التركيز. لبث أمر ما يبعد عن ذهنه معنى النص، جاعلاً إيّاه يهتز اهتزاز صدى كلام أمين الوثائق حين كانا يمران معاً تحت قبب السراديب. وجهد نفسه في أن يركّز انتباهه قدر الإمكان.

كانت اللغة قديمة وكثيرة هي الألفاظ التي عجز عن فهمها، لم يكن ترتيب الكلمات طبيعياً: إنها لسلسلة من المتناقضات حقاً! ولكنه كان عليه أن يكتفي بما لديه. كانت تلك المرة الأولى التي يستشير فيها نصوصاً بهذا القدم، يعود تاريخها إلى خمسة قرون خلت وشيئاً فشيئاً أمدَّه رضاه، في فهم هذا الأمر أو ذاك مما يحلله، بالشجاعة، فجعل يتقدم بسرعة مطّردة في قراءته.

لقد كانت غالبية الأحلام موصوفة باختصار شديد، في سطرين أو ثلاثة وبعضها في سطر واحد، بحيث غدت له استشارة الملف أقل ضنىً مما ظنّ على الفور. ودون التأويل الذي ورد في أسفل النص كانت كل هذه القراءة كلفته ساعات معدودة.

شعر مارك ـ عالم، بغرابة، أن تعبه تبدّد. وازدادت عيناه اعتياداً على هذا النموذج من الأحرف التي بطل استخدامها منذ زمن بعيد. ومنذئذ وتراتب الكلمات المستهجن لا يني يجذبه. وشيئاً فشيئاً، راحت هذه الخطوط الشحيحة البتراء، المنقوصة، تستحوذه في

عالمها. وأخذ سهل كوسوفو، في شمال ألبانيا حيث لم تطأ قدماه، يتسع في خياله تدريجياً، في رؤية حلمية مشوشة مثلما هو حال ديكور ارتأته مئات عديدة من العقول النعسة.

وكأنَّ هذا لم يكفه حتى ترافق مع هذه الرؤى الضبابية الفارغة من المعنى، تأويل يجعلها أكثر لامادية أيضاً. رغم ذلك وربما بسبب القلق المشترك للحالمين قبيل النهار المشؤوم وربما أيضاً بسبب قلق الأشخاص المعينين لتسجيل الأحلام على عجل، صار هذا النتاج المشترك لمئات الأذهان النعسة كل من زاويته، وهذه اللوحة المخططة، يمثّل وِحدة غريبة. قبيل الفجر إذن، حين كان الندى وحده يرطّب السهل، صار في أحلام الجنود مليئاً ببرك كبيرة من الدم الذي راح يتخثر ويقني ويسودُّ مع الغسق وجعل ينسكب دم جديد في البرك الأعتق بلونه الأفتح الذي راح يميل إلى القتام شيئاً فشيئاً ولكن دون أن يبلغ حدّ الاختلاط بالدم الأعتق.

ثم كانت نهاية المعارك في الغسق، اندحار البلقانيين واغتيال السلطان في اللحظة التي اغتبط فيها بانتصاره. ثم الخيمة إلى حيث نقل جثمان السلطان المغتال، والذي أُخفي موته عن الجيش؛ بينما اجتمع الوزراء في لجنة مصغّرة. وأخيراً الرسول الذي مضى في أثر أحد ابنيّ السلطان.

ـ يعقوب تشلبي، تعال والدك الممجّد يستدعيك...

ويتقدم الأمير باتجاه الخيمة إلى حيث ظنّ أن أباه استدعاه حقاً، ويكون دخوله إلى الخيمة حيث يتمّ قتله بضربات الفؤوس يوجهها الوزراء له بأعصاب باردة سعياً منهم إلى تجنب كل صراع على

السلطة بينه وبين أخيه . . .

فرك مارك ـ عالم عينيه كأن ليرفع النقاب الذي يغطيهما. أين تكمن الحقيقة، إذن، أيسع المرء اكتشافها حتى حين تكون أسانيدها منغرزة في الحلم؟ كذلك لا تعود حدود شديدة التعيين تفصل ما بين الحلم والواقع، بحيث يغدو كل ما له صلة بهذا السهل ـ رسوم للأماكن، تقلبات الجو، أحداث، شواهد ـ متشابكاً وفي غاية التشوش. فأرواح الثلاثمئة ألف بلقاني البيضاء، في الغمرات الأخيرة قبل مغادرتها هذا العالم كانت تشكل غمامة ثلج وسيعة ترفرف، ترفرف فوق الثرى. ولمّ كان السلطان الأكبر يركض تائهاً وسط زوبعة هذه الأرواح الجنونيَّة، كأنما أراد الفرار معها؟ إلى أين أنت راحل هكذا أيها الباديشاه؟ هدِّىءْ من روعك، جعل يصرخ الإنكشاري سليم في سباته وسارع بعد يقظته إلى رواية حلمه. بعيداً تراءى له الأمير يعقوب تشلبي مدمىً ولا يزال يركض عبر السهل على هيئة حصان نزع عنه عرفه. ومن جديد برك الدم والصيف والشتاء والفصول المختلطة على ثرى ذلك السهل، كان المطر والشمس في آنٍ معاً، الثلج والاخضرار، الزهور والكآبة الشتائية. وقد لزم أن تمطر أسابيع بأكملها بل شهوراً من أجل غسل كل هذا الدم. ثم لزم أن يأتي الثلج ليبيِّض كل شيء ويسدل ستاراً كثيفاً على هذا الضيق. ولكن، في الربيع اللاحق حين راحت الفلجات(*) تسيل عبر طبقة الثلج الناصعة البياض، جعلت تسوق معها خثارات دم، وكأن الثلج ذاته كان أصيب بجرح. وهكذا، يا الله، لم يكن أيّ طقس، في الشتاء والصيف على السواء، في الأهواء أو تحت المطر الصامت، ليجعل من

(*) السواقي الصغيرة.

هذا السهل، هنالك في شمال ألبانيا. . .

تذكّر مارك ـ عالم فجأة أنه مدعو، هذا المساء لدنّ الوزير برفقة والدته. كان ذلك عشاء تقليدياً، يصغي الحاضرون فيه إلى منشدين آتين من بلاد البلقان. وسوف يكون بالتأكيد إلى جانب المنشدين البوسنيين هذه المرة منشدون ألبانيون مدعوون من قبل كورت.

أغلق الملفات وقام. كان به صداع لكثرة ما قرأ، أو ربما بسبب روائح الفحم التي لبثت تصّاعد من الطبقات السفلى والعليا على السواء. حيّا مستخدمي الفرع بإيماءة من رأسه وخرج. تردّدت أصداء خطواته في السرداب. كم هي الساعة الآن؟ لم يكن لديه أدنى فكرة عن ذلك. ففي الأعلى إذ يلتبس عليه الزمن يمكن أن يكون الوقت وقد غداء أو في عزّ بعد الظهر كما وقت المساء. وانتابه قلق مدى برهة. ماذا لو كان متأخراً على العشاء؟ غير أنه ما لبث أن اطمأن. لا يسع الزمن أن يمر بهذه السرعة الخاطفة. وبدا له أن هذا العشاء ينتمي إلى كون آخر، كائن في موضع ما في علياته، ويكاد يكون في الغيوم. في حين تنتصب إلى يمينه وإلى يساره جدران السراديب الصماء، وخلفها يرقد كل سبات العالم في آلاف الملفات المؤلفة. شعر بجفنيه يثقلان. ما الذي يأخذ بي؟ ساءل نفسه. وما يكون هذا النعاس الذي راح يدب في أعضائه واحداً إثر آخر؟ رجف رعباً، ولكنه سرعان ما اطمأن: كان ذلك بالتأكيد أثر روائح الفحم. . . إيه! وأنت ماذا تفعل هنالك وحدك؟ لماذا لا تنضم إلينا؟ من هذه الجهة يمكنك أن تنضم إلى أغلبنا. . .

حثّ مارك ـ عالم الخطى ليصل أسرع ما أمكنه إلى السرداب الدائري، غير أن الأخير لم يبدُ لمرآه. وكلما تقدم ازداد يقيناً بأنه يتيه.

ولو حدث أن تهاوى ونام في هذه المماشي المقفرة؟ وراوده ثانية الشعور بثقل في أجفانه أشبه بالرصاص المسبوك. ما الذي حملني على النزول إلى هنا؟ قال في نفسه. حثّ خطاه، ثم راح يركض. وجعلت ضجة خطواته التي ضاعفتها الأصداء تزيد من رعبه بدورها. لن أنام! حدَّث نفسه آمراً. لا. لن أقع في الفخ الذي نصبتموه لي:

والله يعلم إلى متى كان يمكن أن يستمر في سباته المجنون لو لم ينبرِ أمامه رجل بغتة لدى أحد المنعطفات.

ـ ماذا جرى؟ سأله الأخير بنبرة واثقة بعض الشيء. ما الذي حدث؟

ـ لا شيء، أجاب مارك ـ عالم. أين هو المخرج؟
ـ ولكن، قل لي، أنت في غاية الشحوب. أيعلم أحد بما حدث؟
ـ ماذا إذن؟ أنا أبحث عن المخرج...
ـ سألتك إذا كنت تعلم عن الأمر شيئاً. لك سحنة بلون الرماد...
ـ ربما بسبب الفحم...
ـ ذلك أني حين رأيتك أوحيت لي...
ـ من أين المخرج؟
ـ من هنا، قال الآخر.

وساورت نفس مارك ـ عالم أن يردّ عليه: «وأنت أيضاً، لك سحنة داكنة، فلماذا صعقتك إلى هذا الحد سحنتي المتجهمة؟ ولكنه لم يرغب بتاتاً في أن يتأخر هنا، حتى ولو لحظة. حسبي أن أخرج من هنا بأسرع ما يمكن متأوهاً في ذاته لأصعد من هذا البئر!

وأخيراً، ظهر الدرج أمامه وراح يتسلق الدرجات ثلاثاً ثلاثاً، بل

أربعاً في أربع. فوجد نفسه في الطابق الأرضي، متقطع الأنفاس لاهثاً. وخيّل إليه أنه سمع ضجة. التفت فأدهشته رؤية جماعة من الرجال يرتدون لفاعات طويلة وهم يتعدون سريعاً في أعماق الممشى.

في الطابق الأول التقى بجماعة من الأفراد ذوي هيئات متجهمة، وكان يصدر من عمق السراديب أصوات خطوات أخرى. ما كانت إذاً هذه الجيئات والإيابات؟ تساءل في نفسه، وتذكر آنئذٍ الرجل الذي كان لقيه في سراديب الوثائق. إذْ كان لديه الانطباع بأن شيئاً ما يحدث داخل القصر. حثّ الخطى ليبلغ شعبة التأويل بأسرع ما يمكن. وأدرك من خلال الألوان القاتمة التي راحت تغطي النوافذ، أن النهار آخذ في الأفول.

ـ أين كنت؟ سأله زميله إلى الطاولة. أين اختفيت كلّ النهار.

ـ كنت في الوثائق.

جحظت عينا الأخير. لم يكن قد مضى أسبوع واحد على تعيينه هنا، للعمل إلى جانب مارك ـ عالم، غير أن هذا الزمن كان كفيلاً بإظهار الزميل الأنف كلفاً بالأسرار، وبالأخص ذات الطابع السياسي، التي تهامست بها الشفاه، الأسرار المحظورة والخطرة، طالما أن المخاطرة في إعلانها هي له بمثابة الفليفلة التي تطيب من نكهتها. حتى أنه ليستغرب ألّا يكون علم إلى الآن بأنه من آل الكوپريلي.

ـ إن أمراً يحدث، قال ذلك حانياً نصفه الأعلى باتجاه اليسار، نحو مارك ـ عالم. ألا تشعر بذلك؟

فاكتفى مارك ـ عالم أن هزّ كتفيه.

ـ نعم، لاحظت جيداً تحركاً ما في المماشي، ولكن لا علم لي بـأكثر من هذا، مكتفياً بالردّ عليه.

ـ لقد استدعوا رئيسنا ثلاث مـرات اليوم، وفي كـل مرة كـان يعود وهيئة الذعر مرتسمة على وجهه. استدعي لتوه للمرة الرابعة، ولكنـه لم يظهر بعد.

ـ ماذا في الأمر، بالضبط؟

ـ ما أدرانا؟ يمكن أن يكون كل شيء وأيّ شيء.

وهمّ مارك ـ عالم بأن يحدثـه عن الرجـل ذي الهيئة الفزعة الـذي كان التقاه في دار الـوثائق غـير أن هذا الأمـر لو تمّ لكـان أطلق بينهما سيلاً جديداً من الوشوشات. فراودت ذاكرة مارك ـ عالم أقـوال أمين الوثائق حول الأبحاث التي قام بها المولجون بـالأحلام القصـوى طوال الليل في الوثائق.

ـ يمكن أن يتوقع المـرء كل شيء، تمتم زميله ـ وحتى لا يثـير انتباه أحـد، جهد في التحـدث دون أن يلتفت نحـوه، لاويـاً طـرف فمـه فحسب كـأنّما ليحسن إدارة وشـوشته إلى الجهـة الفضلى ـ كـل شيء يمكن أن يحصـل، ردّد ذلـك، عـزل المـوظفـين وحتّى إغـلاق القصر نفسه.

ـ إغلاق التبير سراي؟

ـ لم لا؟ تحرك مماثـل. . . وهذان الـذهاب والإيـاب المشبوهـان في المماشي لقد مضى على عملي هنـا سنوات، تعـرفت خلالهـا إلى عادات المنزل. ولكن مجرى هذا النهار، لا يجعلني أستنتج أمراً جديراً بالثقة. ففي نهار كهذا يمكن أن يتوقع المرء كل شيء. . .

ـ هل حدث أن أغلق التبير سراي مرة؟ سـأله مـارك ـ عالم بنـبرة راجفة.

ـ هِمْ، أيّ سؤال هذا! تمتم الأخير بين أسنانه. وإذا بلغ بنا الأمر إلى هـذا الحدّ، فبئس مصـيرنا!... الـواقع أنني كنت شـاهداً بعض المراحل القـاتمة حـين علّق السلطان، بمرسـوم أصدره، كـل استشارة بشـأن الأحلام. ولكن ذلـك نادراً مـا يحـدث بـل في غـايـة النـدرة، أفهمت؟ وفي هذه الأحوال لا يؤخذ إلاّ بأحـلام السلطان. مما يصيب التبـير سراي بما يشبـه المأتم. حتى ليقـال إنه رِممٌ قـائمة حيث يجـول المستخدمون على امتداد مماشيه وكأنهم أرواح مطهرية. كـل شيء كان يبـدو على وشـك الانطفـاء وتسليم الرمق الأخـير. الـدم متجمـد في العروق وكل امرىء يتوقع انغلاق التبير عل كلّ، لم يكن ما بين حالة الحداد هذه والانغلاق سوى خطوة واحدة..

شعر مارك ـ عالم بكرة من قلق تتصاعد من معدته حتى حنجرته. وتذكّر بشكل مشوّش كلام الوزير، ألم يكن ذلك الاحتمال الذي أراد الإيحاء به دون أن يشأ له تحديداً أكـثر في فكره؟ وتـابع زميله ثـرثرتـه ولكن مـارك ـ عالم مـا عاد يصغي إليـه. وراح صدغـاه ينبضان حتى الانقطاع وأفكاره تتشوش بطريقـة مبهمة.. ففي أثنـاء محادثـاته غـير المتناهية حول التبير سراي، بالإضافة إلى لقائه الأخير البالغ الغموض مع الوزير كان ظنَّ نفسه مدركاً أنه كلما ساءت الأمور بالنسبة لقصر الأحلام، حسُنَت أحوال الكوپريلي، وكلما أبان هـذا اليوم عن شؤمـه للتبير، صار ذلك بالعكس، مـادة لمسرته. بيـد أن الأمر لم يكن عـلى هذه الحال مطلقاً فالريبة التي باتت تحيط به لم تثر فيه البتة أيّ فـرح، بل إنها على خلاف ذلك، لم تفعل سوى أنها زادت في إرجافه.

أصاخ السمع إلى تمتمة زميله، ولكنه لم يتمكن من تمييز أيّ نتفة من كلامه. وقد بدا الآخرُ يحدِّث نفسه على الأرجح. إذْ راح يستحضر ذلك اليوم الذي سأل فيه جدته: جدتي، لماذا تتكلمين بصوت عال؟ فأجابته: لأصطنع من كلامي مخاطباً، يا بني، كي لا أشعر بنفسي وحيدة... وتولت مارك ـ عالم رغبة في أن يتنهد عميقاً هو بدوره كما فعلت جدته في ما مضى. كانا وحيدين إلى حدّ الوحشة، إلى هذه الطاولات الباردة حيث تُبسط الرؤى شبه الجنونية من صنعة عقول مجهولة، دون أيّ رابط بين الواحدة والأخرى.

ـ ولكن لماذا؟ قال مارك ـ عالم مقاطعاً نميمة الأخير بصوت يكاد يكون مطفأً. لِمَ يحدث ذلك؟

ـ لِمَ يحدث ذلك (خيّل إليه أن طرف فم زميله الموجّه نحوه بات يبث بسمة جليدية، بدل الكلمات) يا إلهي كيف يطرح المرء سؤال لماذا؟ بين جدران هذا القصر؟ أبوسع أحد أن يعرف لماذا الأشياء هنا؟

تنهّد. النوافذ القاتمة الآن، تسمح بالظن أن الليل أرخى سدوله واستتب على التمام. في حين أن ضوء القناديل جعل ينير الجباه المنحنية إلى الطاولات إنارة ضعيفة.

ـ عجباً، ذاك هو القائد قال زميله. لقد عاد أخيراً.

ونظر مارك ـ عالم إلى الوجهة التي كان حدَّدها له الآخير.

ـ لا أجد وجهَه شاحباً مثلما جعلتني أتصوّر، قال في صوت خافت.

ـ آه! أفْلَت الأخير، ثم أضاف بعد هنيهة صمت، في الواقع،

أنت محق. أما أنا فلا، إذْ يبدو أنني لست على سويّة من أمري. لنأمل أن تكون الأخبار حسنة.

شعر مارك ـ عالم بأن القلق راح يعتصر معدته بشكل مؤلم.

ـ بل يبدو بالأحرى مبتهجاً، قال.

ـ لست أرى رأيك ولكن على أيّ حال فإن له أسارير منفرجة.

ـ ليتنهِ هذا النهار. قال مارك ـ عالم وعيناه مطرفتان إلى قائده. ظن أنه يلمح في نظرته بريقاً محموماً ليحمِنا الله! أضاف.

ـ قد ينتهي النهار عاجلاً أم آجلاً، أما نحن فهل نمضي؟

ـ كيف هذا؟

ـ نهار مماثل، أنت تدرك أنه ربما جعلونا نمضي الليل بأكمله ها هنا. تذكّر مارك ـ عالم بأنه كان مدعواً هذا المساء لدى الوزير، وهمّ بأن يفاتح زميله بالأمر. على أيّ حال، تفكّر في نفسه فأنا سوف أطلب الإذن بالذهاب. أيجرؤون على منعه من الذهاب للعشاء، لدى خاله النافذ؟ حكّ ظهر راحة يده. وماذا لو كان كل ذلك وليد خيال مجنح محض؟ وفي آخر المطاف، لم تكن هذه سوى احتمالات لا تستند إلى شيء ملموس بعد. أناس في الممشى، سحنة القائد التي تبين حيناً محبطة وحيناً آخر منبسطة: يا للشيطان، كيف يمكن أن يستند المرء إلى قرائن كهذه! لقد كان زميله أبلهاً حقاً، وراح مارك ـ عالم يتساءل عما حمله على الانقياد إلى هذياناته.

أرعبه رنين الجرس معلناً توقف العمل. هو وزميله راحا يتبادلان النظر وأوشك مارك ـ عالم أن يرميه قائلاً: يا غبيّ لقد جعلتني في حال من الاضطراب للاشيء، هذا يوم كالأيام الأخرى، هاك الجرس الذي تتردّد دقاته في الساعة المعهودة. ما الذي دهاك أيها

الأحمق أن تصيبني بهذا الهلع؟

سارع زميله إلى إغلاق ملفه ورمقه بنظرة كأن ليقول له امضِ سريعاً وانسحب! ـ حتى بدا هو في عجلة من أمره. تبعه مارك ـ عالم. كانت المماشي والأدراج تغص بالناس. وبدت طرطقة الخطوات الصماء المجهولة ترجرج المبنى، حتى في أساساته. أزلق خطواته بين الجموعِ الراجلة بذلك الارتياح الذي يستشعره المرء المخوف آن يتوارى في الجمهرة.

لمرتين أو ثلاث خُيل إليه أن الأمر لم يعد كونه نهاية نهار على آلف ما يكون، ولكنه سرعان ما تولاه شعور مخالف جذرياً. وجعل يتفحص الناس من طرف عينيه، ظناً منه أنه قادر على استشفاف التماع بعض حمى في وجناتهم، أو انعكاس تأجُّج مخبإ في أعماق جمجمتهم. لا إثارة عادية، بل غليان من نفاد الصبر أمام المجهول. إنها ترهات، قال في نفسه بعد برهة. ليس شيء من هذا في هذه الوجوه الذابلة من التعب وهذيانات الأحلام. إنها أعصابي، ذاتي التي تتلاشى.

ما إن اجتاز البوابة الخارجية، حتى انفصل عن جمهرة المستخدمين. وكلما راح ينأى عنهم ازداد يقيناً بعبثية تصوراته. إنه هذا المحسوس الذي أحالني أحمق، قال في نفسه. فالمشهد الذي كان جرى لهما كان حقاً في أعلى درجة من الهزل.

وراح يجول بناظريه بحثاً عن عربة جياد تحمله إلى منزله بأسرع ما يمكن. فهو مصرٌ على ألاّ يتأخر على عشائه ورفع يده مرتين أو ثلاثاً يومىء بها إلى عربة، غير أن الحوذيين ما كانوا ليتوقفوا، إما لأنهم لم يسمعوه أو كانوا مشغولين عنه. واتفق أن مارك ـ عالم لم يكن من

أولئك الذين يجرؤون على الصراخ من حافة قارعة الطريق: هيبْ، أيها الحوذي! وهو يؤثر أن يمضي مشياً تحت المطر أو الثلج، على أن يثير الانتباه إليه. ولحسن الحظ أن المارة على الأرصفة كانوا أندر من المعهود، مما يمكنه من التقدم أسرع. ولو أن الطريق كله حتى منزله كان على هذا النحو، نصف مقفر، لكان تسنّى له أن يبدّل ثيابه، لا بل أن يستحم قبل العشاء.

بينما كان مستغرقاً في أفكاره، حتى أنه كاد ينسى مخاوفه السابقة، حتى حدث شيء لم يستطع هو نفسه أن يتحقق منه على الفور. صرخة صغيرة مفاجئة، خطوة سريعة، وشوشة إلى جانبه؟ - جعلته يرفع رأسه وينظر باتجاه المنعطف. كانت دوريتان متركزتان في الوسط يتفحص عناصرها المارّة بنظرة مرتابة. ماذا يجري؟ ولم يتسنَّ له أن يعدّ أدنى فرضية عن الأمر، إذْ لمح على مقربة دوريّة أخرى، ثم دورية أخرى أيضاً. وسرعان ما شاهد جنوداً أنَّى كان. فعاوده القلق الذي كان خيل إليه أنه تخلص منه لدى خروجه من قصر الأحلام. وراح المارة الآخرون ينظرون بدورهم شزراً إلى الدوريات. وبعضهم يلتفت وهو يمضي مبتعداً، من أجل أن يلحظهم للمرة الأخيرة.

وبعد مضي لحظات قليلة سار خلالها دون أن يلمح بزّات أخرى، قال في نفسه: ربّما كان الأمر صدفة! والناس لا يزالون يدخلون إلى الحانات المبعثرة على امتداد الشارع ويخرجون منها، غير أنه لم يلاحظ قط أدنى علامة على الإنذار أنَّى كان في المدينة. ذلك هو مقهى «ليالي رمضان» من حيث تصدر الموسيقى كالعادة. نعم، قال في نفسه للمرة العاشرة إنها لمصادفة بالتأكيد. ثم أنه ألم يرَ دوريات مرات سابقة. لدى ذلك المكان؟ وتذكر حتى أن عناصرها أخذوا يتحققون من هوية

المارّة. نعم، إنها لمصادفة بوضوح ردّد في نفسه. ولما كان المصرف المركزي قريباً جداً من موضع الدوريات: من يعلم، ربما كانوا يخشون هجوماً فردياً مسلحاً، أو كان الأمر مجرد إجراء احترازي...

أمام وزارة المالية خيل لمارك ـ عالم أنهم ضاعفوا عدد الحراس، غير أنه لم يجرؤ على الالتفات للتأكد من ذلك. كانت الفوانيس تبث ضوءاً باهتاً ودمدم قائلاً: ليمضوا إذن إلى الشيطان! دون أن يعرف هو ذاته إلى من يوجه هذه اللعنة. والارتجاف الذي كان جهد في ضبطه عاد إلى تملّكه. ولما وصل أمام قصر شيخ الإسلام أدرك أن شيئاً من هذا التحرك المستهجن لم يكن وليد الصدفة، وأن أمراً هو قيد الحدوث حقاً. إذْ رأى تجمعاً هاماً من الجنود والشرطة يقارب نصف كتيبة محتشداً أمام شِباك الحديد المطرّق وتمتم في نفسه: شيء ما يحدث. شيء... ولكن ماذا؟ مؤامرة؟ محاولة انقلاب؟ أحكام عرفية؟ وأراد أن يحثّ الخطى، لكنه ألفى نفسه عاجزاً عن ذلك. ولما كان القلق تملّكه، شعر بساقيه تتراخيان وكأنهما ريشتا نعام. وبادر إلى الترداد في نفسه: هيّا، هيّا. غير أنه لبث يشعر بعبث كل جهد يباشره. وتفكر في عشائه، وفي هذا التقليد العتيق الذي يحكى عنه حتى في النشيد الكوبريلي الخاص، والذي بحسبه لا يجوز أن يلغي أحد عشاءاً دُعيَ إليه.

ولمح من جديد لدى جسر الهلال، جنوداً يعتمرون خوذات، إلاّ أنه بات الآن في حالة لا يقوى شيء على مفاقمتها ولا على تلطيفها. وها قد بلغ أخيراً شارعه تحفّه أشجار الكستناء الداكنة، واستشف، من بعيد، الأضواء الصادرة من الطابق الأول في بيته، فتميز أمام منزله شكل عربة، وما أن تقدم منها حتى أمكنه أن يتبينّ الحرف «ك» محفوراً على بوابتها. أفرجه الأمر، فتنفس الصعداء ودخل.

الفصل السادس

العشاء

لما كان مارك ـ عالم حريصاً على عدم إقلاق والدته تجنّب في البدء إبلاغها عن شكوكه لكن بعد مضي ساعة، حين جعلا يصعدان كلاهما إلى العربة متجهين إلى دار الوزير، لم يتمالك نفسه عن القول:

ـ اليوم، خضع القصر لتحرك ما.

ـ كيف؟ قالت وتعلقت بيده. تحرك ولأيّ سبب؟

ـ لم يسعني الاطّلاع على أيّ أمر دقيق إلاّ أنني التقيت في طريقي عدداً كبيراً من الدوريات.

فشعر بيد والدته ترتجف فوق يده وسرعان ما ندم لكونه تكلم. . . لكنه أردف:

ـ ولكن لا يعدو الأمر كونه حادثاً غير ذي قيمة، قال لها مطمئناً. ولربما كانت تلك مجرّد شائعات.

ـ وماذا سمعت، ماذا يقولون؟ سألَتْ بصوت مخنوق.

ـ أوه، مجرد حماقات! قال ذلك جاهداً في اصطناع نبرة منطلقة. يبدو أن السلطان كان قد ردَّ الحلم الأقصى بالأمس. ولكن ربما لم يكن ذلك صحيحاً. أو قد يكون لهذا التحرك سبب آخر.

وبدت لها قرقعة العجلات التي خرقت الصمت لا تطاق.

ـ وإذا كان العاهل قد ردَّ الحلم الأقصى، فإن هذا لن يعدم أهمية، قالت الوالدة.

ـ ولكنني أطمئنك أنه ربما لم يكن في كل هذا أمر خطير.

ـ إذن، إنه لأسوأ. وهذا يعني أن ما يحدث هو أشد إقلاقاً مما بدا.

ما كان لي أن أحدثها عن شيء، قال مارك ـ عالم في نفسه.

ـ ولكن ما الذي يمكن أن يكون أكثر إقلاقاً؟ قال بذات النبرة المرتفعة.

تنهدت الأم وقالت:

ـ من أين لي أن أعلم؟ فأنا لا أعرف الشيء الكثير عن شؤونك، هنالك أنت نفسك حدثتني عن أخطاء في التأويل ممكنة، وعن حملات تفتيش مفاجئة. مارك قل لي الحقيقة أتكون خضت في مغامرة دنيئة؟

فجهد في الضحك.

ـ أنا؟ لست على معرفة بشيء حقاً، أقسم لك. اليوم أمضيت النهار كله في الطابق تحت الأرضي، في الوثائق. ولم أسمع بحدوث شيء إلّا حين صعدت منها فحسب.

وسمع أمه خلال قرقعة العجلات، ترسل تنهداً عميقاً ثم تلفظ هذه الكلمات بصوت خفيض: ليحمنا الله!

من خلف النوافذ، بالكاد أن يتميزا، على ضوء الفوانيس الشحيح، الأبنية القائمة على جانبي الشارع، وبعض المارّة النادرين هنا وهنالك. وماذا لو أن العشاء كان ملغى؟ قال مارك ـ عالم في نفسه. وكلما اقتربا من قصر الوزير صارت هذه الفكرة هاجسه.

ولكنه جعل يطمئن: إذ كان ذلك مستحيلاً لارتباطه بالملحمة العائلية، وبالتالي بأسس سلاسلة الكوپريلي نفسها. كلا، لم يكن بالإمكان تأجيل العشاء البتّة. على أيّ حال، حين لمح من بعيد المصابيح مشتعلة عند مدخل بوابة القصر، ثم عربات المدعوين مركونة على امتداد الرصيف، تولّاه شعور بالراحة. وخيِّل إليه أن والدته كذلك تتنهد بدورها. وكأنّما انزاح ثقل عن صدرها. هؤلاء هم حرّاس الوزير يقفون لدى شباك الحديد، والبقية منهم ملحقون به كما هي الحال في كل أمسيات الاستقبالات: الشمعدانات مشتعلة إلى جانبي الممر الواصل ما بين الشباك ودرج المدخل، كبير الخدم إلى المدخل وعطر نعناع منعش يطفو في الداخل.

على الفور، شعر الناس بأن قلق هذا النهار المنصرم ما كان له قِبَل على اختراق أبواب القصر.

ولج مارك ـ عالم ووالدته البهو الكبير وكانت وضعت في وسط الغرفة دفايتان من فضّة راحتا تشيعان حرارة لطيفة بدت تتزاوج بأحمر السجادات القاني وبهرير المحادثة الخفيف.

كان هنا بعض أبناء العم الأقارب، كلهم ذوي مراتب عليا، وعديد من أصدقاء العائلة العتاق، ابن قنصل النمسا، وهو فتى كبير أشقر طفق كورت كوپريلي يحادثه بالفرنسية، ومدعوان اثنان أو ثلاثة لم يكن مارك ـ عالم ليعرفهم. سمع والدته تسأل أحد الخدّام بصوت خفيض عن مكان تواجد الوزير، فيجيبها الأخير بأن سيده هو في الطابق الأعلى، إلّا أنه لن يتأخر عن النزول. حينئذٍ أدرك مارك ـ عالم الارتياح: فالقلق الجليدي الذي طالما أرجفه على امتداد آخر النهار هذا، أشبه برطوبة شريرة، ها هو يتبخّر من جسده.

كان الخدم يسكبون الراكي(*) في أقداح من فضّة. وجهد مارك ـ عالم أن يلتقط، عبر غوغاء المحادثات، ما يقوله خاله كورت والنمساوي باللغة الفرنسية. وبعد أن شرب قدح راكي جرعة واحدة، شعر بنفحة غبطة تجتاح كيانه. لبرهة التقى نظره بنظر والدته، فأمال عينيه. وكان يبدو عليها أنها تقول له: ما كانت هذه الترهات التي أذعتها عليّ لتوّك؟

ولكن. . . دخول الوزير إلى البهو جمّد الأجواء على الفور. ولم يكن بسبب مظهره المغتم. والذي بات يألفه أغلب الأشخاص الآخرين، بل بسبب هذا القدر من الغياب الذي بان على قسماته، وكأنما دهش لرؤيتهم جميعاً، ها هنا، وتوقع أن يطلعوه على سبب مجيئهم. وبعد أن حيّاهم ظل لحظة مركوزاً أمام إحدى الدفايتين مادّاً راحيته فوق الجمر كأن ليدفئهما. وبدت تهاجيجه(**) لمارك ـ عالم أشد غوراً وتأثيراً مما في المرة السابقة، إبّان عشائها المعهود.

وما أن شعر كورت، في الظاهر، أنه ينبغي له التدخل لإضفاء جوٍّ من الحميمية على بداية السهرة هذه، حتى مضى إلى أخيه يوشوش في أذنه بعض الكلمات التي شق على مارك ـ عالم أن يلتقطها، ولكن يفترض بها أن تتعلق بالنمساوي، ذلك أن الوزير أجابه مخاطباً الأخير في الآن نفسه، والذي راح يهز الرأس احتراماً في حين يترجم له كورت كلام أخيه البكر.

وهذا ما جعل الجو أقل انشداداً وعاد المدعوون إلى التحادث اثنين

(*) اسم المشروب الذي يشبه «العرق» في تحوله إلى الأبيض بعد مخالطته الماء.

(**) جمع تهجيج، دائرة مزرقة حول العين.

اثنين، في حين لبث النمساوي يحادث الوزير، وأبدا من خلال ترجمة كورت. وساورت نفس مارك ـ عالم أن يدنو لكي يستمع إلى أحاديثهما غير أن أحد أبناء خاله، الأصلع الذي كان مدعواً إلى تناول الحساء لديهم عشية دخوله إلى قصر الأحلام، سأله بصوت خافت:

ـ كيف حال عملك في التبير؟

ـ جيد، أجابه مارك ـ عالم لاوياً أطراف شفتيه يقصد به: بَيْنَ بَيْنْ.

ـ أنت تعمل في التأويل؟

أومأ موافقاً بحركة من رأسه. وظهر في ناظري ابن خاله يلتمع بريق متهكم، إلاّ أن هذا بدا له سواء بسواء، إذْ لم تبارح عيناه خاله المأثور كورت، وقد ألفاه أبهى مما عهده من قبل وآنق بياقته القاسية ذات البياض الناصع التي تلقي على جماع وجهه ضياء فاتناً. والحق يقال إنه باكر إلى التنبّه لكون كورت بالتحديد محور هذه السهرة. وكان هو من ارتأى هذه الدعوة الغريبة للاستماع إلى المنشدين الألبان. وكان نافد الصبر من تمكنه أخيراً سماع ملحمتهم بصيغتها الألبانية، وكانت لطالما ظلت مجهولة لهم، شأن الجهة اللامرئية من القمر.

دخل مدعوّ، كان آخر المنتظرين على ما يبدو، معتذراً عن تأخره.

ـ يسود الخارج تحرك ما، قال، والقوات النظامية تقوم بحملات تدقيق في الهوية.

راح بعضُ المدعوين يلاحقون بعيونهم ناظريّ الوزير، فبدا لهم أن هذه الكلمات لم تمسه بشيء. إنه يعرف تماماً ما يدور تفكر مارك ـ عالم في نفسه، وإلاّ لما كان ترك هذه الأقوال تمر دون أن تثير اهتمامه.

وبدا أنه لم يلمح ابن أخته قطّ، وكأنما نسي تماماً تلك المحادثة المتقطعة التي كانت جرت بينهما أثناء السهرة الآنفة، لأسابيع خلت.

وكان مارك ـ عالم يسائل نفسه منذ ما يقارب الساعة، عما إذا كان ينبغي أن يروي له ما حدث في التبير سراي. ألم يحن الوقت لكي يتخذ الوزير جانب الحذر؟ ولكنه إذْ رآه على حال من عدم الاكتراث، أشعره ذلك بالاطمئنان.

هدأ روعه، فراح يتأمل الرسوم في السجاد العجمي الكبير، السجاد الأكبر والأجمل مما رأت عيناه، هدية السلطان إلى الوزير في عيد مولده. وكان ذلك أندر الأشياء التي ظلت محتفظة بكامل جمالها في ناظريه اليوم، وقد أضحى العالم له شبه ذابل، منذ أن دخل قصر الأحلام.

لم يصرف نظره عنه، إلا لأن الصمت الذي كان استتب فجأة حوله قد أثار انتباهه. وتظاهر الوزير بأنه سوف يباشر الكلام. فأعلن على المدعوين أنهم سوف يستعمون قريباً إلى المنشدين الآتين من ألبانيا، ولسوف يغني المنشدون السلافيون أيضاً، أثناء العشاء وبعده بحسب التقليد، قِطَعاً عن مآثر آل الكوپريلي.

ـ إئتِ بهم، قال الوزير إلى كبير الخدم.

بعد برهة، دخل المنشدون وسط صمت مطبق؛ كانوا ثلاثة. يرتدون بزّات مميزة، اثنان منهما متوسطا العمر، ثالثهم أكثر فتوة، كل يمسك بآلته الموسيقية الخفيفة بين يديه. انصب اهتمام مارك ـ عالم كله على هذه الآلات بالدرجة الأولى، «لاهوتا»(*) كما يدعونها، وهي

(*) Lahutas آلة موسيقية شبيهة بالربابة ذات الوتر الواحد.

شديدة الشبه «بالغوسلا»، أي آلات الموسيقى التي يستخدمها المنشدون السلافيون. وعاوده شعور الدهشة ذاته، إن لم تكن الخيبة نفسها التي سبق وانتابته لدى رؤيته آلات «الغوسلا». ولفرط ما سمع عن نشيد الافتخار بالكوبريلي الشهير، خيل إليه بشكل ما، أن آلات الموسيقى المرافقة هذا الغناء قد تكون بدورها خارقة وثقيلة، جليلة ومرعبة مما يجعل المنشدين يجرُّونها خلفهم بصعوبة بالغة. غير أن الغوسلا إن هي إلّا آلة بسيطة من خشب عارٍ ذات وترٍ وحيد والتي يسهل حملها بيد واحدة.

وبدا له أمر غير قابل للتصديق أن تكون قطعة الخشب الخسيسة هذه والمجهزة بوتر واحد، قمينة ببعث الحياة في نشيد التعظيم المسهب، والبالغ القدم. والآن وبعد أن عاين آلة «اللاهوتا» تضاعفت حدة الخيبة في نفسه. ومنذ أن سمع كورت يحدّثه عن الصيغة الألبانية لملحمتهم كان يقول في سرّه، دون أن يدرك لذلك سببا، إن اللاهوتا الألبانية من خلال شكلها، لسوف يسعها أن تمحو الجرح الذي كانت الغوسلا قد أحدثته في مخيلته. إذْ لطالما توقع أن يجد اللاهوتا آلة ليست ثقيلة وضخمة فحسب بل أيضاً آلة مغمسة بالدم الذي يرتبط في ذهنه بقساوة ملحمتهم. في حين أنها كانت على قدر متساو من البدائية مع «الغوسلا»: القطعة الواحدة ذاتها من خشب مثقوب عبر فتحة في جهتها العليا ويجتازها الوتر اليتيم نفسه.

وقف الآن المنشدون بين الفريقين اللذين تكوّنا من المدعوين تلقائياً إذْ أحاط كل فريق بمنشده، من هذه الجهة أو تلك. وكانوا ذوي شعور شقراء وعيون زرقاء. وقد بدت عيونهم هذه أميل إلى إثارة الرفض في تقبل كل ما كان يطرح عليهم وردّه قطعياً أكثر من

إثارتهم الكره.

وجعل الخدم يسكبون الراكي للمنشدين في أقداح شبيهة بتـ
التي قدموها لتوّهم إلى المدعوين الآخرين، غير أن الألبانيين اكتفـ
بتقريبها من شفاههم فحسب.

- إذن بإمكانكم أن تبدأوا، قال الوزير بالألبانية.

جلس أحد المنشدين على مرقاة كان أتى له بها كبير الخدم، فوضـ
لاهوتاه على ركبتيه، ثم أثبت ناظريه على وتر آلته، وظل صا
برهة، وبعدئذ جعلت يده اليمنى ترفع القوس ثم تسوطئه واضعـة
على وتر الآلة. فشهدت أصوات الآلة الأولى الضعيفة والرتيبـة
نوع من الاصرار في العودة إلى نقطة انطلاقها. وكان ذلك أشـ
بأغنية مأساوية طويلة، بالغة الطول تثير الغصة في الحلق. حتى
مارك - عالم في نفسه إنه لو استمر الأخير في إصدار نغماته على
النحو، لما لبثوا أن انتهوا جميعهم إلى الاختناق ضيقاً. أيتأخر في إر
هذه الألحان القارضة بكلمات؟ وبات يقرأ السؤال في عيون الجمـ
إذ وجب أن ينمّي هذه الموسيقى كلام، وبعبارة أخرى فإن هذا الـ
بأنينه المتواصل لسوف يكشط لهم أرواحهم حتى يتركها دامية.

انفرجت شفتا المنشد أخيراً ليستهل غناءه، مما أشعر مارك -
ببعض الارتياح. غير أن صوت المنشد، كان له شأن آلته، صفـة
بشرية. حتى يقال إنها جُرِّدت من كل النبرات اليومية المعهودة، ـ
عملية فريدة، كي لا تحتفظ سوى بالنبرات الأبدية. كان صـ
ائتلفت فيه طويلاً حنجرة البشري وحنجرة الجبل حتى امّحى بينهما
تمايز. وكان عليهما أن تتوافقا أيضاً مع أصوات أخرى أبعد فأبعـ

إلى أن ينصهر الجميع في أغنية النجوم الحزينة. فضلاً عن ذلك فقد بدت الكلمات والأصوات وكأنها قمينة بأن تخرج من فم الأحياء والأموات على حدٍّ سواء.

وكان عقد اتفاق مع الظلال حتى غدا هذا التفاهم الأوثقَ والأكملَ.

ولم يسع مارك ـ عالم أن يبارح بعينيه الوتر الدقيق الوحيد الذي شُدَّ فوق خشبة الترجيع. كان ذلك الوتر يفرز التشكي في حين أن قطعة الترجيع في الأسفل، راحت تتلقّفه مضخمة إيّاه في نسب مرعبة. وفجأة أوحي له بأن هذا القفص الفارغ ليس إلا البطن الذي يحوي روح الأمة التي ينتمي إليها. ومن هنا يصعد التشكي العريق، مرتجّاً. ولئن كان سمع بعض المقاطع منها، فهو لم يتسنّ له الاستماع إليها بتمامها إلاّ اليوم. وخيل إليه أن قعر اللاهوتا هذا هو الآن في صدره بالذات.

شرع المنشد الآخر آنئذ في غناء موشح الجسر، وخيِل إلى مارك ـ عالم، وسط الصمت المطبق، أنه يسمع ضربات البنّائين الذين راحوا يبنون الجسر تحت شمس باردة، الجسر الملطخ بدم الأضاحي، هذا الجسر الذي لن يكتفي بإلصاق اسمه بآل كوپريلي، بل سوف يطبعهم بطابع لعنته أيضاً.

رغم أن الضّيق جعل يضغط على صدره، تولّته بغتة رغبة ملحاح في أن يرمي إلى نبات القرّيص بنصف اسمه الأول الآسيوي «عالم» والظهور بمظهر اسم آخر كذلك الذي يحمله المرء في مسقط رأسه: غيون غجرچي أو غيروچ.

مارك ـ غيون أورا، مارك ـ غجرجي أورا، أو مارك ـ غيوريج أورا. . . راح يردِّد في ذاته، وكأنما جهد في الاعتياد على نصف اسمه الأول المستبدل كلما تناهت إليه كلمة أورا، وهي الوحيدة التي أمكنه فهمها بين كلمات النشيد.

وفجأة، أشبه بحلم مستعاد، عبَر خياله حلم تاجر تظهر فيه آلة موسيقيَّة تتردّد أصداء أصواتها وسط أرض غامضة. وما كان ليتذكر تفاصيل عن ذلك، بل تذكَّر فحسب، أنه خطر له أن يرمي الحلم في سلة المهملات ثم تركه يمرّ. أما الآن فقد تولّاه الانطباع بأن آلة الموسيقى الموصوفة في الحلم تشبه إلى حد كبير آلة «اللاهوتا».

لبث هذا المنشد يغني بنفس الصوت المرجاف. ولم يكن كورت يبرحه بناظريه المشتعلين في ذروة الحمّى. وشرع يترجم من حين إلى آخر، مقطعاً خفيض وبعضاً من أبيات الأغنية الحزينة إلى النمساوي، الذي راح يصغي بدوره بغاية الاهتمام، في حين ظل الوزير ذو العينين المغشيَّتين بتهاجيج شديدة القتام، واقفاً أمامه مكتوف اليدين.

وأمكن مارك ـ عالم أن يلتقط من هنا وهنالك معنى بعض الأبيات، غير أن معاني أغلبها فاتته.

«وجدتَ القبر، أيا أنتَ، الملتزم بعقد البيسًا!»

شيئاً فشيئاً، اقترب من الزاوية، حيث كان يجلس خاله الشاب والنمساوي. وجهد كورت في أن يترجم له هذا البيت تحديداً، فأصاخ السمع مارك ـ عالم الذي لمّ بقليل من الفرنسية.

«ـ ليس صعباً على الترجمة فحسب، بل إنه يكاد يكون عصياً

عليها...»

جهد مارك ـ عالم في متابعة الملحمة، بفضل ما توصل إلى فهمه من جهة، ومن جهة أخرى مستعيناً بما كان يسمعه عن ترجمة كورت لها.

ـ تحكي الملحمة عن رجل حيّ راح يتحدّى للمبارزة عدوّاً له فوق قبره، شرح كورت للنمساوي. إن هذا الجنائزيّ، أليس كذلك؟

ـ رائع! أجاب الآخر.

ـ والميِّت، الحانق من كونه عاجزاً عن القيام، يروح يتخبط في قبره ويئن، تابع كورت. يا إلهي، قال مارك ـ عالم في نفسه فجأة كل شيء في غاية الوضوح؟ والواقع أن كل شيء بات منذ الآن ولا أوضح! فعلبة اللاهوتا هذه هي القبر حيث يتخبّط الميت. أما تأوّهاتها فلا تزال تصّاعد من الأسفل وتحدث في سامعيها إرجافاً كما لا يحسن فعله شيء آخر.

ـ وهاك الآن البُومُ، طيور الشؤم هذه، قال كورت في صوت خفيض فيهزّ النمساوي رأسه موافقاً كلما أراد التأكيد على جملة من جُمَل كورت.

ـ إنه الشهم زوك الذي فقأت عينيه أمه الخؤون وعشيقها، فطفق يجول أعمى في الجبال المثلجة على مطيَّته العمياء أيضاً.

ـ أعمته أمه! يا إلهي! قال النمساوي مندهشاً. ولكن ذلك يوحي بأوريستي! Das ist die orestiaden!.

بات مارك ـ عالم الآن منسلاً قربهما كي لا يفوِّت عليه لفظة مما كانا يقولانه، وكان كورت على وشك أن يتابع حديثه، لما تناهى إلى

الناس، في هذه اللحظة، ضجة مستهجنة. فالتفتت غالبية الناس، ينظر بعضهم إلى الباب، والبعض الآخر باتجاه النوافذ. تجدَّدت الضجة، مختلطة ببعض الصرخات الحادة، ثم سمع الحاضرون وسط الضوضاء، طرقات عنيفة على الباب.

ـ ما هذا، ماذا يجري؟ قالت بعض الأصوات القلقة ثم صمت الجميع. وكف المنشد عن غنائه فساد صمت مطبق. من جديد طرقات أعنف أيضاً.

ـ يا إلهي، ماذا يمكن أن يكون هذا؟ أطلق أحدهم القول في نفثة.

التفت الجميع ناحية الوزير الذي غدت سحنته فجأة شاحبة صفراء، وسمع باب ينفتح ثم صرخة مختصرة جداً، أعقبها وطء بالأقدام ثقيل آخذ بالتقدم. فتسمَّرت عيون المدعوين المرعوبين على الأبواب. وأخيراً دفعت هذه الأخيرة بفظاظة من الخارج، وأطلّ من العتبة فريق من الرجال المسلحين. وبدا أن شيئاً ما أمسكهم لحظة في أمكنتهم ربما كان أضواء القاعة، أو رؤية المدعوين أو صرخة لم يدرِ أحد من أيّ حنجرة أمكنها الصدور. وحده، واحد منهم تقدم، وبعينين بدتا خاويتيْ الرؤية طالما لم تجد في الظاهر ضالّتها، وقال دون أن ينظر إلى أحد:

ـ شرطة السلطان!

صمت الجميع.

ـ الوزير كوپريلي؟ قال الضابط الذي وجد أخيراً من كان يبحث عنه؛ وتقدم خطوتين بعد باتجاه الوزير وانحنى في بالغ الوقار: حضرة

السيادة، لقد تلقيت أمراً من السلطان. اسمح لي بتنفيذه. قال هذا وأخرج من عبّه المرسوم وسرعان ما بسطه أمام ناظري الوزير. ولئن بانت على قسمات هذا الأخير كل التحولات القمينة بتشويشها فإن اصفرار وجهه ظل على حاله من الجمود.

ولكن تعبير الذهول هذا كان للضابط دليل موافقة على ما قرأ.

ـ أوارقكم! صرخ وقد التفت بغتة باتجاه المدعوين، وأومأ بحركة من رأسه، إلى أحد رجاله بأن يدخل.

كانوا نصف دزينة من الرجال، كلهم مسلّحون، ويضعون على ياقاتهم وقبعاتهم شارات شرطةِ الامبراطورية.

ـ أنا أجنبي، قال النمساوي في بدء الفوضى التي راحت تسود.

عبثاً تعقب مارك ـ عالم والدته بعينه وراح صوت متصنِّع الصرامة، ولكنه مضبوط في شدته، يكرر من حين إلى آخر: من هنا؟ من هنا! وجعل هؤلاء يفتحون باباً جانبياً مؤدّياً إلى القاعة المجاورة، حيث دفعوا قسماً من المدعوين.

ـ كورت كوپريلي، قال أحد الشرطيين بصوت قوي دالاًّ قائده عليه. ذاك هو الرجل. فاتجه الضابط نحوه وتسنّى له أن يسحب الأصفاد من جيبه قبل أن يبلغه ورأى مارك ـ عالم الملازم، يضم بيد واحدة معصمي كورت، بحركات سريعة وواثقة، وباليد الأخرى يغلّهما بالأصفاد وبغرابة لم يأتِ كورت أدنى حركة للمقاومة. بل اكتفى بتأمل الأصفاد مندهشاً.

التفت مارك ـ عالم شأن قسم من المدعوين ناحية الوزير، متوقعاً منه أن يضع حدّاً لهذا المشهد العبثي الذي طال أمده. غير أن وجه

الوزير ظلّ على شحوبه. وقد يظن كل امرىء غريب أنّ السلبية التي أبداها الوزير حيال الإهانـة التي ترتكب تحت سقف بيتـه، تعزى إلى الخشية، أما مارك ـ عالم فقد حزر لرضوخه سبباً آخر مختلفاً. وكـان ذلك رد فعل آل الكوپريلي القديم المستعـاد عشرات وعشرات المرات في تاريخ عائلتهم، وبمقتضاه يُفرز قناع الانفصـال عن الواقـع حالما تعـترض الكوپـريلي ظـروف متشابهـة. فبدا عـلى قسماتـه القـدريَّـةُ، والغيابُ، التهالك. وانتابت مـارك ـ عالم رغبـة جامحـة في الصراخ: استيقظْ، عـدْ إلى رشدك يـا خالي، أتـراك لا تشاهـد ما يجـري إذن؟ ولكن في عيني الوزير التمعت نـظرة خضوع رغم أنهما جعلتـا تشيِّعان شأنَ عيون الآخـرين، خروج كـورت مقيداً. حتى خيـل للمـرء أن بصره الحق بات محمولاً إلى البعيـد، في أيّ بئـر سرّيـة، حيث كـانت أديـرت آلة حكـومية مـا ربما، وأفضت إلى هـذه المصيبـة.. يـا إلهي حسبي أن يكون الآن يفكر في كيفية إيقاف هـذه الآلة، قـال مارك ـ عالم في نفسه وهـو يقترب منـه كأن ليتثبت عن كثب مما هو حـاصل. وتـلاقت عيناه بعيني الـوزير خـطفاً، ربمـا لأنه كـان قد دنـا منـه حتى جـاوره، أو ربما بمحض الصـدفـة. وفي هـذه الـبرهـة الأخـيرة خيـل لمـارك ـ عـالم من تلك النـظرة التي انـدفعت صـاعقـة وكـأنها تمـزّق مفاجىء عبر جبين الوزير، أنه أدرك أخيراً معنى لقائه وإياه أثناء تلك السهرة المشهودة، وفجأة مرّ في خاطره مروراً أليماً، فكرة أن لهذا صلة بقصر الأحـلام وبه ذاتـه، مارك ـ عـالم، وأن آل الكوپـريـلي كـانـوا أُخذوا على حين غرة بلا شك...

شعر بيدين تدفعانه بفظاظة ناحية باب البهو المجاور. وفي اللحظة التي اجتـاز فيها عتبتـه، أثبت نظره لحظة على المنشدين الذين لبثـوا معزولين عن جمهرة المدعوين الضئيلة.

ـ مارك! قالت والدته بصوتها الناعم حالما دخل. وكان توقع أن تستقبله بصرخة أو بنحيب، إلّا أن صوتها كاد يكون ساكناً، بغرابة: ماذا يحدث في البهو الآخر؟

فهز كتفيه دون أن يجيب.

ـ كنت قلقة بشأنك، همست له في أذنه. يا إلهي! هذه المصيبة التي حلت بنا، بعد؟ وأمكنه أن يلاحظ غالبية المدعوين وقد تجمعوا في قاعة الاستقبال هذه، ومن حين إلى آخر كان يسمع صوت أحدهم سائلاً ماذا يحدث في الداخل؟ أيدوم الأمر طويلاً؟

ـ لقد أخذوا كورت؟ سألت الأم.

ـ أعتقد أنهم أخذوه.

إنها لمتهالكة نفسها، قال مارك ـ عالم في سره. إذْ ليس من العبث أن تكون امرأةٌ من سلالة الكويريلي. رغم ذلك، فقد لاحظ أنها في غاية الشحوب.

بغتة، تناهت إلى الحضور من خلف الأبواب الواصلة ما بين البهوين صرخات مرتجّة أعقبتها جلبة وأنين.

تحرك قسم من المدعوين ناحية الأبواب فخطا مارك ـ عالم خطوة واحدة موشكاً أن يسير، غير أن والدته أمسكت به من ذراعه.

ومن الجهة الأخرى، ظلت تسمع صرخات جديدة ثم صوت ارتطام جسد بالأرض.

ـ Was ist Los? قال النمساوي.

ـ الأبواب مغلقة.

كل الوجوه باتت شاحبة خوفاً.

وشعر مارك ـ عالم بأصابع والدته منغرزة في ساعده أشبه بالأظافر. انبجس من خلف الباب صراخ آخر مؤلم سرعان ما تلاشى.

ـ من كان الصارخ لتوّه؟ سأل أحدهم. هذا الصوت...

ـ ليس صوت الوزير.

وتناهت أيضاً، من الغرفة الأخرى ضجة جسد يهوي بتثاقل، ثم آهة، مرعبة.

ـ يا إلهي؟ ماذا يحدث؟

صمت الناس كلهم للحظات قليلة. ثم أعلن أحدهم خارقاً الصمت بصوته:

ـ إنهم يقتلون المنشدين.

أخذ مارك ـ عالم وجهه براحتيه. وراح يصدر من البهو الآخر فرقعة جزمات تبتعد. وطفق أحدهم يدير قبضات الأبواب قائلاً:

ـ افتحوا، بحق السماء.

ظل باب البهو الكبير مغلقاً. ولكن باباً آخر انفتح، مؤدياً إلى ممشى داخلي. وارتفع صوت: من هنا! من هنا! خرج المدعوون على التوالي، أشبه بالظلال ما عدا أحدهم وكان متهالكاً على مقعد مغمياً عليه. وامتلأ الممشى المضاء إضاءة ضعيفة، بوقع خطوات.

ـ ألا يكونون قتلوا كورت؟ قال أحدهم لا، بل إنهم اعتقلوه.

ـ من هنا أيها السيدات والسادة، قال أحد الخدم: المخرج من

هنا. Wo ist Kurt?.

وأفضى موكب المدعوين الضئيل إلى الرواق الرئيسي المحاذي للبهو الكبير والذي يُستشف من خلال زجاج أبوابه الخشن عن خيالات بشرية. وبحركة عنيفة، أو تكاد أن تكون فظّة، أفلت مارك ـ عالم من قبضة والدته واقترب ليرى ما كان يحدث هنالك خلفها. ولما كان أحد الأبواب مشقوقاً تطاول نظره إلى الداخل، فلمح زاوية من قاعة الجلوس. كل شيء كان رأساً على عقب. ثم وقع نظره على جثتَيْ المنشدَيْن الهامدتين ممدَّدتين أرضاً، وتكاد تتلاصقان الواحدة بالأخرى. وكانت جثة ثالثة ترقد أبعد منهما قليلاً قرب الدفّاية المقلوبة والوجه مغطى جزئياً بالرماد. كان رجال الشرطة قد رحلوا. ولم يبقَ إلاّ الخدم الذين طفقوا يمشون صامتين على السجاد المغطى بنثار الزجاج. ولمح إلى الجوار ظلّ الوزير الثابت، وكان يكفيه أن يدفع الباب بطرف إصبعه حتى يراه شخصياً، أبدا في وضعية الجمود نفسها التي كان عليها منذ فترة. يا إلهي! ها أنه شاهد بأم العين كل شيء! قال في نفسه ووجد في عيني الوزير شيئاً أشبه بنثار الزجاج المبعثر على الأرض.

بغتة شعر بيد والدته تمسك وتشد به نحوها بعناء. لم يقوَ على مقاومتها. وانتابته رغبة في التقيؤ. كان الرواق يكاد مقفراً. وأمكن أن يرى، عبر الباب الرئيسي الذي ترك مفتوحاً، المصابيح المضاءة في العربات وهي تتحرك الواحدة بعد الأخرى.

ـ كل الناس مضوا، قالت والدته بصوت يكاد يكون مسموعاً. ونحن ما عسانا نفعل؟

لم يجبها.

أحد الخدم أطفأ الثريات. كانت لا تزال حركة الذهاب والإياب الصامتة تجري خلف أبواب قاعة الجلوس الكبرى. وبعد مضي لحظات، أخذ الخدم يحملون جثث المنشدين ممسكين بها من الأذرع والسيقان. وكان وجه المنشد الثالث الذي غُطّي نصفه بالرماد في غاية من الشناعة لمرآه. إذْ أشاحت والدة مارك ـ عالم بنظرها عنه، وهو ذاته آلمه أن يتماسك عن التقيؤ، ولكن رغم كل شيء، شعر أنه لا يسعه الابتعاد عن هذا المكان. وخرج آخر الخدم حاملاً معه أدوات الموسيقى. وبعد قليل عاد الخدم جميعهم إلى قاعة الجلوس.

ـ ماذا يفعلون؟ سألته والدته متمتمة.

لم يجد ما يجيبها به. وباتت أبواب قاعة الاستقبال مفتوحة على مصاريعها وعاينا، هو ووالدته، الخدم يطوون السجاد الكبير الملطّخ ببقع الدم.

ـ لن يسعني أن أنظر إلى هذا طويلاً بعد، قالت. هذا يفوق طاقتي.

وفي قاعة الاستقبال أيضاً، جعلوا يطفئون الثريات. والتفت مارك ـ عالم يمينه ويساره، عاجزاً عن اتخاذ قرار ما. كان المدعوون قد رحلوا جميعهم بالتأكيد. ولربما يحسن به وبوالدته أن يمضيا بدورهما؟ أو ربما ينبغي لهما البقاء، على عادة ما يفعل أقرباء العائلة حين تحل المصيبة في بيت. ولئن شاءا العودة إلى منزلهما فإنهما صارا عاجزين عن ذلك. فهما يسكنان بعيداً ولا يسعهما أن يجتازا المسافة مشياً، وبالأخص في ليلة كهذه. أما أن يجد المرء عربة جياد فمن الأفضل الانصراف عن التفكير في ذلك.

كانت غالبية الثريات مطفأة. وبقيت بعض المصابيح فقط مشتعلة هنا وهنالك في الأدراج والأروقة الداخلية. وراح المنزل الوسيع يمتلىءُ بالتهامس والوشوشات. وبدت ندرة من الخدم تروح وتجيء أشبه بظلالٍ حاملة شموعاً ذات أضواء صفراء تنتشر ضعيفة حتى آخر الممرات.

- يا إلهي! راحت والدة مارك - عالم ترمي قائلة بين الحين والآخر. ولكن أيّ فظاعة كانت هذه إذن؟

في تلك اللحظات، صرّ أحد الأبواب وانبثق الوزير من ظُلَيّل القاعة الكبرى فتسلق الدرج الغارق في نصف عتمة بفشخات طويلة كأنّه مرويص.

- الوزير، قالت والدة مارك - عالم لامسة يد الأخير. أرأيتَه؟

بعد مضي لحظات، انحدر خادم الدرج هابطاً أربعاً في أربع ومر أمامها كالإعصار وخرج. وما لبثا أن سمعا ضجة سيارة تقلع إلى جهة لا يعلم بها أحد.

ظل مارك - عالم ووالدته زمناً طويلاً في الظليل يلاحقان بأعينهما الأنوار الضئيلة الصادرة عن شموع محمولة في هذا الاتجاه أو ذاك، وإلى هذه الزاوية من المنزل الفسيح أو تلك وما كان ليهتم لهما. فخرجا، بصمت من الباب المشقوق وتوجّها ناحية الشبك العالي. وكان الحراس لا يزالون هنا يؤدُّون خدمتهم. وتذكّر مارك - عالم الطريق إلى منزله بصعوبة. أما والدته، فبدت أقل قدرة على التذكر منه، ذلك أنها طالما اجتازت هذه المسافة في سيارة مغطاة.

راحا يمشيان ويمشيان، ولم يتساءلا عما إذا كانا تائهين، إلّا بعد أن

انقضت ساعة على مسيرهما. وما لبثا أن تميزا في البعيد طرطقة عجلات عربة تدنو منهما متسارعة. فتنحّيا لها بغتة حتى التصقا بالجدار، وحين كادت العربة تمسهما، ظن مارك ـ عالم أنه تميّز في الظل حرف «ك» محفوراً على إحدى بوابتيها.

ـ بدا لي أنها كانت سيارة الوزير، قال ذلك بصوت خافت. وربما كانت هي ذاتها التي رأيناها تمضي قبل قليل.

لم تجبه والدته. إذ أرجفها البرد والرطوبة والليل إرجافاً.

بعد قليل جانبتهما عربة أخرى باندفاع مماثل، ورغم أن الشارع لم يكن مضاء بالكامل فقد خيِّل لمارك ـ عالم أنه تميّز فيها، من جديد حرف الـ«ك». فقام وسط حلكة الليل، بحركة من يده لعلها تتوقف وتقودهما إلى منزلها. غير أن العربة مضت في طريقها وتاهت في الضباب. فأيقن مارك ـ عالم بأنه من العبث طلب المعونة من أيّ كان في ليلة القلق هذه التي تمخرها أحرف «ك» الكبرى وهي تئز أزيزاً كلما جانبتهما، وكأنّها طيور الشؤم بذاتها.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير حين بلغا منزلهما أخيراً. ولم تكن الخادمة لوك قد نامت بعد، لأن توجّساً كان تملكها فأخبراها بكلمات وجيزة، ما عايناه لتوهما ورجياها بأن تحضر لهما القهوة كي ينشّطا.

كان لا يزال في الدفاية قليل من الجمر، جعلت لوك تنثر فوقه الرماد، لكي تتمكن به من اشعال النار لصباح غد، كما هي عادتها، غير أن هذا الجمر لم يكن كافياً لتبديد الارتجافات التي راحت تخترق جسميهما.

لم يمضِ زمن حتى صعد مارك ـ عالم إلى غرفته ولكنه لم يجد إلى النوم سبيلا. وحين استيقظ فجراً، وجد والدته ولوك في الوضعية التي كان تركهما فيها، ملمومتين على نفسيهما فوق الدفاية التي تكاد تكون خامدة.

ـ إلى أين ذاهب، مارك؟ سألته والدته بصوت مرتعب؟
ـ إلى المكتب، أجاب إلى أين تريدينني أن أذهب؟
ـ يا إلهي، ولكن أتكون بكامل وعيك؟ في يوم كهذا؟

حاولت هي ولوك أن تقنعاه بالعدول عن الذهاب هذا اليوم ـ أقله هذا اليوم ـ إلى عمله اللعين، وبأن يدّعي حجة توعّك، وأن يتذرع بسبب أخطر من هذا ليسوّغ غيابه، بل أن يمتنع عن الذهاب إلى هناك بأيّ ثمن. وعبثاً جهدتا في إقناعه، وراحتا ترجوانه أيضاً، وبالأخص والدته، التي قبلت يديه، وأغرقته بدموعها زاعمة أنه في يوم كهذا، ربما لم يكن التبير سراي قد فتح أبوابه حتى. ولكن كلّما اصرّتْ، ازداد عناداً. وتوصل أخيراً إلى الإفلات من قبضتها، وأغلق الباب خلفه، وبلغ الشارع.

كان الصباح في غاية البرودة. انطلق بخطوة سريعة إلى الشارع الذي كان شبه مقفر، في مثل تلك الساعة. والمارة النادرون، متدثرو الوجوه بشالات، والنعاس لم يفارقهم... ورأسه لم يكن أقل خدراً من رؤوسهم. إذ لم يكن قد استعاد نشاطه بعد، منذ مشهد البارحة. وكما تفرز بعض الكائنات البحرية، لحماية نفسها، غيماً حولها، جعل دماغه يرتئي طريقة لحفظ نفسه من كل فكرة نيّرة. حتى يذهب به الظن أحياناً إلى الشك بحصول شيء حقاً. وبات يتخيل أن كل هذا لم يكن سوى هذيان

محض، من تلك الهذيانات التي تحفل بها ملفاته، هنالك في التبير سراي. غير أن الحقيقة كلما كانت تتوصل إلى خرق ذهنه كالإبرة، لا يلبث هذا الذهن أن يهوي في خدره. ثم يعاوده الوخز المؤلم بعد فترة خمود. وكان لاحظ أنه في مثل حالات الاضطراب تلك تكون يقظته بعد انقضاء الليلة الأولى على هذا النحو، في غاية الضنك. وهكذا ألفى نفسه في حالة من السيلان وسيطة ما بين الرقاد والأرق.

كان ذلك هو الانطباع الذي يخلفه فيه العالم من حوله وجدران الأبنية حيث نثرت بقع من الرطوبة، والمارة ذوو الوجوه الرمادية إذْ راحوا يتضاعفون كلما اقترب من قلب المدينة. وأمكنه أن يتميز بينهم مستخدمي الوزارات والإدارات المركزية، من الطريقة التي يباشرونها في حثهم الخطى ـ الطريقة التي باتت موحدة ربما بسبب مواقيتهم المشتركة.

وهاكه، أمام قصر شيخ الإسلام، يلمح جنود الحرس أكثر عدداً عمّا كانوا في العشية. وقد راحت تتلاعب انعكاسات عكرة، على قبعاتهم التي بللها الندى الليلي. وكان جنود قد تمركزوا لدى التقاطع أمام المصرف. وفي الظاهر لم تكن حالة الطوارىء قد رُفعت بعد. كلا، لم يكن شيء مما حدث من قبيل الهذيان. وكورت قد أودع الآن السجن... ولربما كان... إلاّ أن السجّاد المدمّى الذي طواه الخدم لبث يعاند في تغليف أفكاره نفسها. كيف يسعه بعد الآن أن يطأ بقدميه هذا السجاد دون أن يناله الدوار؟ واستشعر يصّاعد من عمق حنجرته ذلك الميل إلى التقيؤ...

أبواب قصر الأحلام مفتوحة، إذن، قال في نفسه، وقد لمح مداخله من بعيد. ورأى المستخدمين، بتجمعاتهم العديدة،

يتوافدون إلى أبـوابه. وغـالبيتهم لا تتعارف، ولا تتبـادل التحية، ولا تتحادث أقله. وفي الممشى الذي يجـاور شعبة التـأويل، لم يلتقِ أحـد من الوجوه الاليفة. ولحسن حظه كان زميله جالساً على طاولته.

ـ إذن، قـال بعد أن جلس مـارك ـ عالم إلى جـانبه. هـلاً علمت شيئاً؟

ـ كلا، لا أعرف شيئاً، انكر مارك ـ عالم. هـا أنا واصـل لتوّي. ما الذي جرى؟

ـ أنـا نفسي لا أعرف شيئـاً محدداً، ولكن من المحتمّ أن يكـون قد حدث أمر هام. أرأيت الجنود في الشارع؟

ـ نعم مساء أمس كما اليوم.

ودنا الآخر منه متظاهراً بالانكباب على ملفه، وهمس في أذنه:

ـ يبدو أن شيئاً ما حدث لآل الكـوپريـلي، ولكن لا نعلم بالضبط ما حصل لهم.

عندئذ شعر مارك ـ عالم بدقات قلبه تتباطأ.

إنـك لأحمق، قال في نفسـه. فأنت تعـرف كل شيء، لمـاذا يهـونُ عليك التأثر بأقوال امرىء؟ ولم يتمالك عن سؤاله:

ـ وماذا بعد؟

قـال ذلك بصـوت مخنوق، كـأنما خشي أن يعيـد إحياء مـا حدث بالكامل إن هو تكلم بنبرة طبيعية.

ـ لا أعرف شيئاً محدّداً. إذْ لا يعدو الأمر كونـه شائعـة، وربما هـو مجرّد احتمال.

ـ قد يكون ذلك، قال مـارك ـ عالم منكبـاً على ملفّـه، ويتمتم في

نفسه: إنك لأحمق ثلاثاً، أيخيّل إليك أن الأمور تستتب لك على هذا النحو.

كان بصره أعجز من أن يتبيّن الكتابة. وكان موضوعاً أمامه حلم آخرق، وأشد جنوناً من حلمه بعشر مرات، وعليه أن يشرحه. وكان بقية المستخدمين منثنين بدورهم على ملفاتهم. وراح يسمع من حين إلى آخر حفيف الأوراق المقلوبة.

- اليوم أيضاً يشعر الناس بأن جواً من القلق يخيِّم، وشوشه زميله. ولسوف يحدث شيء بالتأكيد.

ما الذي يمكن أن يحدث أكثر بعد؟ تفكّر مارك - عالم في نفسه. فقد ثقل عليه رأسه قلقاً، وكأنه حُشي رصاصاً. وانتابه شعور بأنه يلزمه القليل حتى يرقد ها هنا، فوق ملفه المفتوح، تاركاً حلمه مصنوعاً لتوه يهوي على الورق، أشبه ببيضة متفقسة طازجة. ترَّهاتٍ! قال في نفسه وهو يحك أعلى راحته. إنها مجرد ترهات، لا أكثر. كان يحسن بي لو أنني تغيبت عن المكتب، اليوم.

أبداً، لم يكن ليتمنى إعلان استراحة الفرصة القصيرة بمثل نفاذ الصبر هذا. إذ راحت عيناه تغمضان نصف إغماضة فوق حلم آخر، موصوف على هذه الوريقة من ملفه. قبل قليل، أوشك رقاده أن يذوب في رقاد الأخير حتى صارا كُلاً لا يتجزأ، مثلما يحدث أحياناً أن يجتمع في الأعمى مصيران بشريّان.

جعله جرس التوقف يرتجف. وبخطوات بطيئة، تبع موكب المستخدمين الذين يهبطون إلى الطابق السفلي. هناك راحت تسود تلك الضوضاء المعهودة، كان شيئاً لم يكن. والواقع أنه لم يكن قد

حدث شيء للآخرين. وجهد في أن يتلقف نتف الأحاديث المتبادلة من حوله، ولكنها لم يكن لها أي شأن البتة مع الحدث. في الصميم ما عساني أفعل بها؟ قال في نفسه. إذ لا أحد يعرف بما حدث أكثر منه. ولا يُجدي نفعاً ما يستمده من تعليقاتهم التافهة.

شرب قهوته، وأخذ يتسلق الدرج، بفشخات بطيئة. ولبث الناس، إلى جانبيه يثرثرون بأمور وبأخرى. وخيل إليه لمرتين أو ثلاث أنه سمع هؤلاء يلفظون كلمتي «حالة حصار»، ويسألونه:

ـ أرأيت الحراس مساء أمس؟

ولكنه سرعان ما يبتعد مكرراً في نفسه: وبماذا قد يفيدني الأمر؟

ألفى نفسه في الصميم خالي الرغبة في أن يعلم أيّ شيء، حتى ولو بمحض الحشرية، رغم ذلك أدرك، حين استقر على مكتبه، أنه بات ينتظر عودة زميله بفارغ الصبر.

ظهر الأخير لدى الباب أخيراً ومن طريقته في سيره، حزر مارك ـ عالم أنه كان لديه أخبار جديدة.

ـ يبدو أن حلماً كان في أساس كل هذا، أسرَّ له صديقه حالما دنا منه.

ـ في أساس ماذا؟
ـ كيف في أساس ماذا؟ في أساس المصيبة التي حلت بالكوپريلي.
ـ آه! أهذا حقاً؟

ـ نعم، إن ذلك لمؤكد ـ لقد ضربوا بقساوة يا إلهي، لطالما شككت بالأمر! وفيما عدا ذلك، فإن العاملين هنا كانوا يحدسون بالأمر منذ مساء أمس...

ـ وما كان الحلم؟

ـ حلم غريب، صنعه بائع جوّال. أوه للوهلة الأولى يظنّ المرء أنه يحكي عن أمور بريئة، خضار وسهول معشوشبة، ولكنه لا يلبث أن يكتشف أن مصيبة كبرى تكمن وراء كل هذا. وقد كان هذا الحلم، من هذا النوع، حلماً يخبر عن جسر وناي، أو كما أو لا أدري أيّ أداة من الموسيقى هي.

ـ جسر، أداة موسيقى؟ قال مارك ـ عالم نافثاً. وبعد؟ ماذا كان غير هذا؟

ـ وبهيمة كانت تدور على نفسها، ولكن الجوهري يكمن في الجسر والكمان أرأيت؟

شعر وكأن قائمة فيلَ تحطّم صدره. كان ذلك هو الحلم اللعين الذي وقع بين يديه مرتين.

ـ ولكن ما الذي حدث لك؟ لا تبدو على ما يرام...

ـ لا شيء لم أكن في صحة جيدة منذ مساء أمس إذْ انتابتني تقيؤات كل الليل.

ـ هذا ظاهر عليك. ولكن عما كنت أتحدث؟

ـ عن هذا الحلم...

ـ آ... نعم كان هذا الحلم إذاً ما اعتبر بمثابة الانذار. فقد حلَّل المؤوِّلون معناه.

وبدا لهم كل شيء واضحاً. إذْ رأوا إلى الجسر على أنه آل الكوبريلي، أتفهم؟: «كيپري» كلمة تعني الجسر، فأقاموا الصلة إذاً، وراحت تكرّ خيوط المكّوك بعدئذ من تلقائها.

ذاك هو ما كان من أمر الحلم: شعر بفمه يجف. إذْ جعل يتذكّر

أنه سعى عبثاً في اكتشاف الصلة ما بين الجسر والثور الهائج، الذي يرمز بالتأكيد إلى القوة المدمّرة، وأنه كان دسّ الحلم في ملف الأحلام غير المحللة.

اليوم، بعد أن أوضح مغازيه أحدهم ـ وبنجاح باهر! ـ أيمكن أن يسألوه عن السبب في عدم قيامه بشرحه، بذاته؟ ولربما ارتاب القيّمون في كونه امتنع قصداً عن تحليله، بغاية التضليل: ثم ألا يبدو الأمر طبيعياً للغاية، طالما كان سليل آل الكوپريلي؟ ويمكنه بالتأكيد أن يذكر لهم في دفاعه، أنه لما كان معيناً في شعبة الانتقاء، كان في وسعه أن يلغي هذا الحلم متى شاء، ولكنه آلى على نفسه أن ينقله إلى شعبة التأويل. ولكنه لم يتمالك عن التفكير أن هذه التبريرات قد تلقى آذاناً صمّاء.

ومن ثم، أضاف زميله:

ـ كان هناك الكمان، أو لا أدري أيّة آلة موسيقية، كان لها صلة ما بأغنية الافتخار التي كانت تنشد مدحاً بالكوپريلي، في بلاد البلقان. ولكن قل لي، ما الذي دهاك أيضاً؟ هل أصابك من سوء؟

فأومأ له بنعم، لعجزه عن التلفظ بأدنى كلمة. وكي لا يثير الريب لدى الآخر، أشار لَهُ بأن يتابع، ودون أن تكون له الرغبة الحقة في الاصغاء إليه. فعاد زميله إلى الكلام على الأغنية الخاصة بالكوپريلي، وشعر مارك ـ عالم أن كل أمل بات يتلاشى فيه حتى لكأنّ ذلك كله نتاج خيال مجنّح. اعتقال كورت، والمنشدون المغتالون وتلك شواهد دامغة على أن لنشيد المدح تعلقاً بهذه المسألة، وأن هذا الحلم كان حقاً السبب في كل ما حدث. الآن يبدو له هذا الحلم الآنف جلياً

كوضح النهار: فآل الكوپريلي (الجسر)، من خلال نشيد المدح الخاص بهم (آلة الموسيقى)، انصرفوا إلى القيام بعمل معادٍ للدولة (الثور الهائج). كيف لم يفكر بالأمر أبكر! وكان بمقدوره أن يجنّب عائلته مأساة، إلاّ أنه لم يقُم بشيء من هذا القبيل. عشاؤه مع الوزير، وتحذيرات الأخير الغامضة التي تحضّه على التنبُّه لم تكن عرَضيَّة، إلاّ أنه هو نفسه ألفى ذاته عاجزاً عن التقاط الإشارة الحقة المتضمَّنة فيها، بل جعل ينام فوق ملفّاته، حتى انقضّ سوء المصير على أقربائه.

ـ أتشعر بشيء من التحسن؟ سأله زميله.

ـ نعم، قليلاً.

ـ لحسن الحظ، لا تقلق سوف يزول هذا. كنت أقول إذاً أن هذا النشيد، كان منذ سالف الزمان السبب في الخلافات بين آل الكوپريلي والسلطان. وأنه لأمر غاية في الدلالة أن يطالبهم مؤيدوهم بالتخلي عن نشيدهم هذا، غير أن هؤلاء لبثوا يرفضون، على ما يبدو، رغم أنهم عانوا مرات كثيرة من جرائه. بل مما يزيد الطين بلّة، أنهم لم يكتفوا بإبراز الملحمة السلافية، بل دعوا أيضاً منشدين ألباناً، أتدرك ذلك؟ لقد حفروا قبورهم بأيديهم! وهذا ما أغضب السلطان. فقرر أن يضع حداً نهائياً لهذه الحكاية، بأن يستأصل هذا النشيد اللعين من شأفته. وقيل إن فريقاً من الضباط على ما يبدو، أُرسل على وجه السرعة إلى بلاد البلقان لتنفيذ هذه المهمة، بتصفية الملحمة الألبانية التي كانت بذرة هذا الشر المشؤوم.

آه نعم؟ راح يردّد مارك ـ عالم بين الحين والآخر قائلاً في قرارة نفسه: ولكن كيف وسعه أن يعرف كل هذا؟

ـ أتشعر بتحسن الآن؟ عاد زميله إلى سؤاله. لطالما قلت لك أنّ ذلك سوف يزول. عما كنت أتحدث؟

ـ آه نعم، وبفضل هذا، يُتوقع أن يؤدي الحدث إلى تدهور العلاقات مع النمسا. وبالعكس، إلى تقارب مع روسيا. إذ لم يقوَ السفير الروسي على إخفاء رضاه عن الأمر.

استحضر مارك ـ عالم في خياله وجه ابن قنصل النمسا المرتعب أثناء الخروج. يا إلهي، كم أن ذلك حقيقي! قال في نفسه. مع ذلك خاطب زميله هامساً في أذنه:

ـ ولكن ما شأن روسيا بهذه الملاحم التعسة؟

ـ روسيا؟ هِمْ، أنا نفسي تطارحت هذا السؤال، غير أن الأمور أكثر تعقيداً مما يظهر، يا أخيّ. ولا يتعلق الأمر، ها هنا بأشعار فحسب أو بأغانٍ، كما قد يبدو للوهلة الأولى. ولو كان الأمر لا يتعدّى ذلك لَمَا صرف سلطاننا الكبير أدنى اهتمام فيها. إنها قضية بالغة التعقيد. ولكل ذلك صلة بعمليات التوطين والنقل التي تمارس في حق شعوب البلقان، وبالعلاقات بين الشعوب السلافية وغير السلافية، كالألبان مثلاً، وباختصار فإن ذلك يهم مباشرة خارطة بلاد البلقان. إذْ أن النشيد الآنف يُغنّى كما أسلفت لك باللغتين: الألبانية والسلافية بحيث ترتبط مباشرة بمسائل الحدود الإثنية داخل الامبراطورية نفسها. أنا بدوري تساءلت في البداية ما شأن النمسا، وإلى ذلك روسيا بهذه الرواية؟ ويظهر أن الاثنتين معنيتان بالأمر. فالنمسا تساند الشعوب غير السلافية؛ في حين أن الأب الصغير القيصر، بحسب ما يسمّي السلافيون الامبراطور الروسي، غالباً ما يتدخل، بالعكس لدى سلطاننا لتحسين أوضاع الشعوب التي من

عِرقه. ولديه أنّ كان عيونٌ تُطلعه على ما يشاء. ولهذا النشيد صلة، بالتحديد بالعلاقات بين شعوب البلقان. ويبدو أن المنشدين الألبان قد اغتيلوا هنالك لدى آل الكوپريلي، وأن آلاتهم الموسيقية أُتلفت معهم. ألا زلت تشعر بسوء؟

فطرف مارك ـ عالم بعينيه.

ـ لا تهتم، سوف يزول ذلك. أنا بدوري اعترتني اضطرابات من هذا النوع. نعم يا صديقي العزيز، الأمور تكون أعقد دوماً مما تظهر. أما نحن، هنا فنظن أنفسنا أكثر الناس إلماماً، في حين أن كل ما نعلمه في الحقيقة لا يعدو كونه قبضَ أحلامٍ، بل بعضَ غيوم.

لبث يخطب زمناً طويلاً، خافضاً صوته بالتدريج إلى أن صار يبث همهمات محضة هي أدعى أن يخاطب بها نفسه، فشعر مارك ـ عالم أن ذهنه بات مسحوقاً سحقاً دقيقاً مما سمعه لتوه. آه لو كان أتلف هذا الحلم الذي كان بحوزته وتحت سلطته في شعبة الانتقاء، مثلما يسحق رأس الحية وهي بعد فرخة! إلّا أنه تركه يفلت من يديه، فيتزلق من ملف إلى ملف ومن شُعبة إلى أخرى، ينمو ويراكم فيه سماً، ليتحول أخيراً إلى حلم أقصى. وجعل الندم يتأكل جوفه. وأحياناً يحاولُ تهدئة روعه فلربما كان الحلم في جميع الأحوال، قد خطّ له طريقاً ليبلغ إلى حيث كان ينبغي له. ذلك أن جماعات بالغة القوة والسلطة بل إن دولاً بذاتها كان لها مصلحة في أن ترى الحلم الآنف يصير إلى صورته المرجوّة. ثم أنه، حتى لو أزاله حقاً، أما كان بإمكانهم أن يصطنعوا حلماً آخر؟ ألم يصرِّحْ له الوزير بأن هؤلاء يختلقون أحلاماً، بل أحلام قصوى؟ كلا، لقد أحسن صنيعاً مئة مرّة، إذ لم يتدخل في هذه الحكاية. وفيما بعد قد يكون بوسعهم القيام بتحقيق دقيق

فيكتشفون أنه أتلف هذه الشهادة، وحينئذ يكون العقاب (الذي بات يخشاه الآن بسبب عدم إقدامه على تحليل الحلم) رهيباً. ليس في حقه فحسب، بل في حق كل عائلته. ولهذا ربما لم يشأ الوزير أن يعطيه تفاصيل محدّدة عمّا يجب القيام به. في الظاهر كان تردّد هو ذاته، لمّا كان غير واثق بأفضل سلوك ينبغي اعتماده. أوه، أنَّ مارك ـ عالم في نفسه، لِمَ وجِدتُ إذاً هذا المنزلَ اللعين؟

ـ يتوقع اليوم أن تصدر ثناءات رسمية، قال زميله.

ـ ثناءات؟ ولماذا يا ترى؟

ـ كيف لماذا؟ بسبب هذا الحلم، طبعاً، الذي كان مصدر كل شيء. كم أنت ساهٍ! عمّ تحدثنا حتى الآن؟

ـ بالطبع أين كان يدور ذهني. .

ـ وأخيراً، لديك أعذارك: فأنت مريض. نعم لقد بوشر بالثناء على مستخدمي شعبة الانتقاء منذ هذا الصباح. وبقية الشُعَب أيضاً، بدءاً بالاستقبال، كان القيِّمون قد أثنوا على جهودها على الأرجح، ولربما أُسبغ الثناء الرسمي، مع المكافأة التي تلازمه على البائع الجوّال ذاك. . . ولكن أمراً واحداً ما زال يشغل بالي: لماذا تأخرت الثناءات الموجهة إلى شعبة التأويل عن الوصول.

ـ آه، نعم؟

ـ ألم أحدثك في شأن توتر ساد هذه الشعبة منذ الصباح. ذلك هو السبب على ما يبدو: إذا لم تكن الثناءات قد وصلت بعد.

ـ ولماذا إذن؟

ـ كيف لي أن أعلم؟ منذ مدة وأنا أعاين القائد قلقاً برماً بنفسه. أليس لديك نفس الانطباع؟

ـ نعم ذلك صحيح.

ـ إن لـه الحق، في الصميم. في مـا يتعلق بالثنـاءات، فإن شعبـة التأويل تستحقها قبل أيّ كان. إلاّ إذا...

ـ إلاّ إذا ماذا؟

ـ إلاّ إذا بان تأويلها مجافياً للحقيقة.

ـ ولكن قل لي كيف أمكن تصويب تأويل هذا الحلم؟ طالما لا توجد شعبـة أخرى تهتم بـذلك دون شعبـة التأويـل. في حين أن المـولجـين بالأحلام القصوى لا يهتمّون سوى باختيار هذه الأحلام، أليس ذلك صحيحاً؟

ـ لك الحق، قال زميله، وقد اعترته الدهشة لرؤية صديقـه ينشط قليلاً. إذْ يصعب على المرء أن يتخيل أمراً مماثلاً. ولكن ذلك لا يعني أن لا تعليل وراء تأخر الثناءات.

استغـرق الإثنان لحـظة في ملفاتهـما. ولم يحسن كلاهمـا تحليـل أيّ معمية في السطور التي كانت أمام ناظريهـا. وماذا لـو أدرك الصلات التي تربطني بآل الكوپريلي؟ تفكـر مارك ـ عـالم في نفسه. ولكنـه قد يعلم ذلـك عاجـلاً أم آجلاً، أبـداً كما ألمّ قـائده بـالأمـر على النحـو الأكيــد، حتى ولـو أخفى حتى الآن أن اللعنــة التي صبّت عــلى آل الكوپريلي تشكل حدث اليوم الأبرز. ولكن أليس لديه اليوم مشـاغله الخاصة؟ ثم تـابع مـارك ـ عالم يحـدِّث نفسه: إن المسؤولـين سوف ينظرون بالتأكيد، في الأيـام المقبلة، بعين مختلفـة، هذا إن لم يعمـدوا إلى طرده ببساطة من العمل.

ـ إنهم يستدعون القـائد لتـوّهم، أسرّ زميله في أذنه. إنـه شاحب كالزعفران، أرأيت؟

ـ نعم، نعم . . .

ـ لقد أصبت في ما قلت. فتأخير الثناءات ليس علامة طيبة. على أي حال، فإنه من الواضح ان لن تقدم أي ثناءات، في هذه الساعة ولكن شرط أن لا يكون ثمة . . .

ـ ماذا إذاً؟ سأل مارك ـ عالم في صوت مخنوق.

ـ . . . أن لا يكون ثمة عقوبات.

ـ عقوبات؟ ولكن لماذا . . . لماذا إذاً؟ وشعر ينبعث في قرارة نفسه أمل دقيق. واعترى سحنته شحوب، وبدا على وشك أن يغمى عليه.

ـ كيف لي أن أعرف لماذا؟ أجابه زميله إنه لأمر عصي على الفهم . . .

في ظاهر الأمر بدا الآخر مطرد الإثارة. فهو لا يقوى على احتمال أن يحدث شيء دون أن يدرك فحواه. وراح يلتفت بنفاد صبره، تارة نحو الباب الداخلي، وتارة أخرى نحو الباب من حيث توارى القائد، وطوراً نحو الباب المفضي إلى الممشى.

ـ إن أمراً ما يحدث . . . تمتم بذلك. ولا أدنى شك في ذلك. إنه لأمر رهيب، رهيب . . .

وجعل يظهر غيظه على نحوٍ من المهارة بحيث يحار المرء في تخيّل المرعب قيد الحدوث أم في ما يعجز عن إدراكه.

وراح مارك ـ عالم يلحّ في قرارة نفسه إلحاحاً على أن يكون كلام زميله ذا صلة بالحقيقة. هو من بات يرتجف لسماعه أمراً ما حدث أو يحدث، ها هو يصلي الآن من صميمه كي يحدث شيء في الواقع. فإذا كانت المكافآت عن هذا الحلم اللعين لم تصل بعد، وإذا ما باتوا

يتوقعون، على العكس، عقوبات، فإن ذلك يعني أن القوم يشهدون تبدلاً في المواقف في الساعات الأخيرة. . .

ومن فرط تطيره، طرد من ذهنه أوضاعه الملائمة خشية أن لا يسيء مجرد ذكرها إلى تحقيقها. وصحيح أن هذا يُعدُّ من قبيل الخارق. . .

ـ إن هذا ليفقيء العينين، ينبغي أن يكون المرء أعمى حتى يجد أن. . . راح زميله يتمتم بصوت صافر على وشك الغضب، كما لو أن مارك ـ عالم نفسه من وقف عثرة أمام تحقق فرضياته الخاصة.

أما المستخدمون فكانوا هنا وهنالك، خلف الطاولات يتهامسون فيما بينهم، ومن كانوا جالسين بجوار النوافذ جعلوا يمطون رقابهم للنظر إلى الخارج. ذلك أن قَدَراً مما كان يحصل نجح، ظاهراً، في النفاذ إلى هنا.

وراح مارك ـ عالم يتخيل العربات الممهورة بالحرف «ك» وهي تذرع الليل بسرعة جنونية فتنبَّه للمرة الأولى إلى أنّ أمراً حدث منذ العشية رغم كل شيء. فالوزير ما كان ليقف مكتوف اليدين. إذ أنه استشاط غيظاً، وهو يغادر قاعة الاستقبال بعد أن تم كل شيء، وجعل يصعد الدرج على هيئة المروبص، مما حمل المرء على توقع ردة فعل من قبله. ثم إن هذه العربة التي راحت تجري الليل وهذه العربات التي لمحها ووالدته في الظلام الدامس دون أن يعرفا وجهتها ولا مصدرها. . . يا إلهي، لو كان ذلك صحيحاً!

ـ لم أعد أطيق صبراً، قال زميله، سوف أذهب لتلقط الأخبار. وإذا ما سعوا في أثري، قل إنني نزلت إلى دار الوثائق.

وسرعان ما انسلّ كالظلّ باتجاه المخرج، بخطى متخفّفة، كي لا يثير الانتباه ولاحقه مارك ـ عالم بناظريه فشعر يصّاعد في ذاته فورة ارتياح. الآن سوف يسعه أن يطلع على أمر ما على الأقل.

وظلّ زمناً طويلاً مطرفاً عينيه على ملفه، دون أن يفقه تحليل شيء فيه واستعاض عن رغبته الملحاح في الاستماع إلى أنباء جديدة بشيء من الرضى عن مسعى زميله في التقاط معلومات أكثر جوهرية، حتى وإن طالت عودته. ولم يتوان عن بذل جهود في سبيل أن يقمع فيه بروز أمل غير مبنيّ. إذ شعر أن خيبة جديدة قد تحطمه وتودي به بالكامل.

والآن، ليس فقط من كانوا بجوار النوافذ راحوا يلتفتون مراراً إليها لينظروا خارجاً، بل ـ ما لم يسبق حدوثه قط في هذه القاعة ـ جعل بعض المستخدمين إلى طاولات مجاورة أيضاً يقتربون من فتحات النوافذ ليفعلوا الشيء نفسه. إذ لا يمكن المرء إنكار أن شيئاً غريباً كان يحدث. وراح مارك ـ عالم يجيل نظره حيناً بعد حين باتجاه النوافذ، ثم باتجاه الباب من حيث يتوقع أن يبين زميله. أيكون السلطان قد رد الحلم الأقصى أبداً كالعروس الشابة التي انكشفت عن سوءٍ فأعيدت إلى أهلها في الصبيحة التي تَلَتْ زفافها؟

على أي حال، لم يشأ أن تداعبه آمال سابقة لأوانها، ولكن ما يجري كان عصياً على التخيل حقاً. الآن راح مستخدمون يغادرون، ليس فقط الطاولات الموضوعة في وسط القاعة، بل الطاولات المرتبة في عمق أعماقها أيضاً. وعاين بعضَ الناس يقومون، وهم لم يكونوا، على ما عهدهم، يجرؤون على التحرك من أمكنتهم حتى بدوا كُلّاً مع مكاتبهم، والذين لم يخطر لهم فقط بالدنو من النوافذ ليلقوا بنظرة

حشرية إلى الخارج، بل هم لم يتنبهوا قط إلى أن القاعة حيث يعملون كانت مجهزة بنوافذ.

شعر مارك ـ عالم بنفاد الصبر يتآكله. فقد انتظر، وانتظر، ثم قام بالحركة التي بدت له لساعة خلت، عبثية: اجتاز القاعة متجهاً بدوره صوب إحدى الفتحات الزجاجية العالية. وما كان قلبه لينبض أكثر لو أنه حُمل إلى أقصى طرف من هوّة سحيقة. إلى ذلك كان هذا ما أوحى به النهار القاتِمُ الهابط خلف النوافذ. هنا وهنالك، راح مستخدمون متكئون على حواف النوافذ، ينظرون إلى الخارج.

ـ ماذا يحدث؟ قال متمتماً. التفت أحدهم، وحدق به لحظة بدهشة، ثم قال نافخاً:

ـ ألا ترى شيئاً، هناك في الأسفل، في الحوش؟

صوّب مارك ـ عالم نظره باتجاه النقطة التي حددها له الأخير. فاكتشف أن هذه النوافذ تطل على أحد الأحواش الداخلية من قصر الأحلام. كان الحوش يعجّ بالجنود. ويبدون، من فوق، وكأنهم منبطحون ولكن لقبعاتهم التماعات غريبة.

ـ جنود، قال.

لم يجبه الأخير.

ـ ولكن لماذا؟ سأل مارك ـ عالم بعد لحظة.

التفت جانباً فوجد أنّ الآخر اختفى.

وحدق في الرجال المسلحين الذين بدوا وكأنهم قُدُّوا من حديد.

وعاود ذهنَهِ الخَدِرُ التفكير بالعربات المزدانة بحرف «ك» المحفور على بواباتها، هذه العربات التي تجعله يقارنها على الدوام بطيور الليل نذيرة الشؤم، دون أن يعرف سبباً لهذا. ولاضطراب ذهنه بلغ به الأمر أن ألفى طبيعياً أمر تمثل العربات، حيناً بمظهرها الحقيقي كعربات، وحيناً آخر باعتبارها بُوماً ترفرف في الظلمات.

ـ ماذا في الأمر؟ قال أحد إلى جانبه، في المهلة القصيرة ما بين سَعلتيْ مصاب بالربو.

ـ هناك، في الأسفل في الحوش، ألا ترى شيئاً؟ أجابه مارك ـ عالم.

وبدا لهاث الأخير على وشك أن يحجب النوافذ الزجاجية وظل مارك ـ عالم لحظات قليلة أشبه بالغائب، ثم جعله البرد الذي راح يشعّ من النافذة يرتجف. فعاد إلى مكانه، بفشخات قصيرة وكان زميله قد عاد بدوره.

ـ أين كنت؟ سأله الأخير. انتظرتك طويلاً.

فأومأ له مارك ـ عالم بإشارة من رأسه ناحية النوافذ.

ـ ترّهات ما عساك تعلم من الأماكن الشاهقة العلو؟ اصغِ إليّ بالأحرى لديّ أخبار مثيرة: يبدو أن نصف العاملين في الأحلام القصوى قد حُبسوا.

ـ آه!

ـ مهلاً ثمة أكثر من هذا: يحكى عن اعتقالات وشيكة بين الأفراد العاملين في شعبة التأويل، بدءاً من القائد.

فغصّ مارك ـ عالم بريقه.

ـ الحوش يعجّ بالجنود، تمتم قائلاً.

ـ نعم، ولكنهم ها هنا لغاية أخرى. يبدو أنهم يزمعون القبض على عدد من مدراء التبير.

ـ يا إلهي، ولكن ماذا يعني هذا الأمر؟

ـ لقد قام آل الكوپريلي بهجوم مضاد. ينبغي أن يتوقع المرء ذلك.

ـ قاموا بهجوم مضاد؟ غمغم مارك ـ عالم قائلاً. من هم؟ كيف؟ ضد من؟

ـ مهلاً، أراك نافد الصبر حقاً! سوف أشرح لك كل شيء، فقط اقتربْ قليلاً، وإلاّ انتهينا مثلهم. . . التبير سراي كله في غليان من أمره. أمس مساء، أو بالأحرى هذا الصباح فجراً، حدث أمر بالغ الغرابة. . .

فخطرت في ذهن مارك ـ عالم العربات على هيئة البُوم. وعاود ذهنه فكرة وجود طائر يدعى الدوق الأكبر. . .

ـ إذاً، وبعد أن تلقى الكوپريلي الضربة لم يقفوا مكتوفي الأيدي. بل إنهم نشطوا ليلاً بسرعة خاطفة، وبالطريقة التي لا يستطيع أحد، لا أنا ولا أنت أن يخمنها، على الأقل حتى الآن. إذ نجحوا على ما يبدو في أن يضربوا فجراً. ولكن كما قلت لك فإنه يخشى كل هذا سر عميق. وقد حدثت مواجهة، وتبادل ضربات رهيبة كانت على القدر نفسه من الصمم، وجرت في أعماق الدولة، وفي أركانها. أما نحن فلم نشعر إلا بتزعزعاتها على السطح، أشبه بزلزال أرضي تم في مركزه، في أعمق الأعماق القصية. لقد حصل الصدام العنيف أثناء الليل بين الفريقين المتنافسين، أو إذا شئت بين القوى المتوازنة داخل الدولة. العاصمة كلها في غاية الاضطراب، ولكن أحداً لا يعرف

شيئاً محدداً. إلى ذلك فنحن أنفسنا العاملون هنا، من حيث يستمد هذا السر جذوره لا نعرف المزيد.

وهمّ مارك ـ عالم أن يقول إن هذا الحلم اللعين وقع بين يديه بالذات مرتين على التوالي، غير أن لحظة تفكير قصيرة كانت تكفي لردعه عن ارتكاب حماقة.

ـ وقبل بزوغ الفجر تابع زميله بصوت رتيب، لمح الناس عربات تروح وتجيء بين السفارات ووزارة الخارجية. ولكن الأمر لم يقتصر على هذا. إذ تدخلت في الصراع مصارف الامبراطورية المركزية وكبريات مناجم النحاس، بدورها حتى أنه يحكى عن تقويم سلبي.

ـ عجباً إذاً! قال مارك ـ عالم.

ـ إليك الحالة التي بلغتها الأمور. متشابكة غاية التشابك ومختلفة كثيراً عما بدت عليه في السطح وكأنها طمرت في آبار بلا قرار. . . أما نحن كما أسلفت لك، من ليس بحوزتنا سوى قبضة من الأحلام، ونتف من الغيوم. . .

اتسم النهار كله في قصر الأحلام بالقلق العميق، ففي مستهل بعد الظهر، اعتقل فعلاً قائد شعبة التأويل بالإضافة إلى عدد من كبار موظفي التبير سراي، وبات متوقعاً أن تجري اعتقالات أخرى في أثناء بعد الظهر. وأقبل المساء دون أن يحدث شيء من هذا القبيل.

عاد مارك ـ عالم إلى منزله متحرقاً لرواية كل ما حدث إلى والدته. فأخبرها بإيجاز كل ما كان علمه. وقد اعترته الدهشة حين لم يتبينّ في نظرها أمارة الفرح الذي ظنّ أنّ الرواية قد تبثه فيها. وأرسلا أحداً من قبلهما إلى الوزير آملين أن يعود إليهما بأخبار

سارة عن كورت غير أن الرسول قال لدى عودته أن أمره مغفل تماماً.

ولئن أصاب مارك ـ عالم الأرقّ الليلة الفائتة، فهو لم يغمض لـه جفن هذه الليلة. وقد تولاه الانطباع حيناً بأنه يـرويص إلا أنَّ ضجة بعيدة سرعان ما أعادته إلى رشده. قام واقترب من النافذة، ولكنـه لم يرَ شيئاً يمكّنه من معرفـة ما يجـري، ثم تميَّز في الأفق احمـراراً لطيفـاً، وخطر له خاطر: لعل قصر الأحلام كان طعماً للنيران؟ ولكنه مـا لبث أن تحقق من أن موضع الحريق كان في جهة مغايرة تماماً. وإذ عاد إلى رقاده تقلقل طويلاً في فراشه قبـل أن يستسلم للنعاس. استيقظ قبـل مطلع الفجر، فسارع إلى القيام، وحلق بتـأن وتهيأ، أبكـر من العادة للذهاب إلى التبير سراي.

الفصل السابع

اقتراب الربيع

ينبغي ألاّ نغفل اطلاقاً كل ما حدث حقيقة في هذه الليلة. وعلى مرّ الأيام راح الضباب الذي لبث يغطي، ليس فقط تفاصيل الليلة، بل طبيعة الحادثة نفسها أيضاً، يزداد تلبداً بدل أن ينقشع عن الوقائع.

توالت الاعتقالات في قصر الأحلام على مدى أسبوع كامل. وتعرض العاملون في الأحلام القصوى لأقصى العقوبات ومن نجا من السجن لم ينجّ من الفصل من هذه الشعبة ليُقل إلى شعبة الانتقاء والاستقبال وحتى نقل البعض إلى مبنى النُّساخ. وبالعكس فإن المستخدمين في شُعَب الانتقاء والتأويل نقلوا إلى الشُعَب موضوع المناقلة ليملأوا فراغ قاعاتها المقفرة. وكان مارك ـ عالم بين أول من أصابهم التنقيل. وبعد مضي يومين، وهو لما يُشفَ بعد مما أحدثه فيه النقل استدعي إلى الإدارة (التي شتّتت الاعتقالات مكاتبها) وجعل المدير بشخصه يبلغه نبأ تعيينه قائداً على شعبة الحلم الأقصى. وهذا ما أذهل مارك ـ عالم. ذلك أن قفزة كهذه ما كانت لتخطر في باله. ومن المحتم أن آل الكوبريلي لبثوا يسعون إلى الأخذ بثأرهم. مع ذلك ظلت أخبار كورت منقطعة عنهم وكان لا يزال الوزير مهتماً بالأمر. ولم يدرك مارك ـ عالم البتة كيف لم يسع الوزير أن يخرج

أخـاه من السجن وهو صـاحب هذه السلطة التي تجنح به إلى ضرب أسس الدولة نفسها. ولكن ربما كانت له أسبابه التي تـدفعه إلى عـدم العجلة؟ قال في نفسه، وربمـا اعتبر أن كـل شيء على أحسن مـا يـرام هكذا؟

ولما كان هو نفسه مستغرقاً في العمل لم يجد وقتاً لأن يخلد لتأمـلات مديدة. إذ يجب إعادة تنظيم الشعبـة رأساً عـلى عقب. والملفات غـير المفحوصة لم تزل تتكدس. وسرعان ما يأتي نهار الجمعة، يـوم إرسال الحلم الأقصى إلى السلطان. وعـاد مـزاجـه إلى التكـدر ثـانيـة حتى صعبت خليقته. ورغم الجهود التي بـذلها ليحـافظ على اتـزانه، شعـر بأن شيئاً، في حركاته وأحاديثه وحتى في مشيته أصـابه التحـوّل وازداد تمـاهياً بهـذه الفئة من الأفـراد، الذين مـا كانـوا ليشعروه بـالـود عـلى الإطلاق: كبار الموظفين.

والواقع أنه راح يتنبه، عـلى مر الأيام، إلى أهمية مـركزه الجـديد في قصر الأحلام. الآن صار يمتلك عربة خيل مطليـة بالأزرق السـماوي تنتـظره كل يـوم خارجـاً أمام القصر. وتـولاه شعـور بـأن مـا يشيـع الاحترام والصمت والرهبة ازاءه لم يكن فقط عربة الخيل بـل شخصه أيضـاً. وخطر لـه أن يبتسم للأمر إذْ وجد من غـير المعقول أن يشيـع بـدوره الغموض نفسـه والخشية نفسهـا، اللذين طالمـا أقلقـاه وكـانـا يصـدران عن أركان الـدولة ذاتهـا. وقال في نفسـه أحيانـاً: كل هـذا يمكن أن ينشـأ من طبيعة الأشيـاء. ولا شك من صحـة تلك الأمـور طالما ظهرت جلية وملموسة، في حين أن ما خفي منها راكم فيها قدراً كبيراً من الأسرار، وقدراً عظيماً من القلق، راح يذيعهما فيما حولـه بما فاض منه.

وقد صرفه الانكباب على عمله عن أن يلاحظ بدء تلطف الشتاء.
وقد أَلْفَتْ ألبانيا نفسها بعد مقتل المنشدين مرتعاً لأرق عام ومعلن.
أما آلة قصر الأحلام فراحت تنشط بأقصى سرعتها! ولقد صار الآن أحد مديريها الرئيسيِّين ويتلقى كل صباح التقرير الخاص، البالغ السرية عن النهار. في حين أن منحنى الرقاد لدى الشعوب بات يميل لصالح الأحداث المستجدة على أرضها، مما سوغ تقريراً خاصاً حول الأرق الذي أصاب ألبانيا. أما البائع الجوال الذي كان بعث بالحلم المشؤوم فقد وضع في الإقامة الجبرية سراً منذ أيام عديدة ـ إذ سعى معتقلوه إلى أن ينتزعوا منه الإيضاحات الضرورية. وكان المحضر الرسمي عن شهاداته قد ملأ أربعمئة صفحة، وبالإجمال يتوقع الناس فترة رقاد مضطرب مع تصاعد وتيرة الهذيانات. وكان مارك ـ عالم في لحظات تعبه تطبَّع على أن يفرك عينيه طويلاً كأنما سعى إلى تبديد الحجاب الذي تلقيه القراءة عليهما.

ذات مساء وعندما كان عائداً إلى منزله كعادته، ألفى وجه لوك شاحباً كالزعفران. وسرعان ما شعر بفراغ القلق العتيق الأليف، الذي كاد ينساه لأسابيع خلت، يعود إلى سابق تكونه في معدته الخاوية.

ـ ماذا في الأمر؟ سألها بصوت خافت، كورت؟

فأومأت لوك برأسها موافقة.

ـ ألن يطلق سراحه؟ تمتم مارك ـ عالم كم من السنوات حكم عليه؟

فبدت له عينا لوك على وشك أن تفيضا بالدمع وكان البلل أصابها

فاحتفظت لوك بهيئتها الكئيبة.

ـ أسألك كم من السنوات حكم عليه. كـرر عليها مـارك ـ عالم ولكنه لم تجبه.

واكتفت بـأن حدقت بـه بنفس النظرة المـرتعبة. فـأمسـك بهـا من كتفيها، وهزها هزاً عنيفاً ثم، ما أن أدرك شيئاً فشيئاً طبيعة ما حدث حتى راح ينتحب نحيباً مراً. فكورت كان حكم عليه بالإعـدام وقطع رأسه. وقد تلقّت العائلة النبأ لتوها.

صعد مارك ـ عالم إلى غرفته حيث انزوى، في حين راحت والدته تبكي منفردة في غرفتها. ولم يكف عن التساؤل في نفسه: كيف يعقل هـذا؟ وكيف حدث إذاً، إنـه في الوقت الذي بدا فيـه تحريـر كورت مسألة أيـام محضة إذا بـه يحكم عليه بـالموت، وحتى ينفـذ فيه الحكم بالإعدام على الفور؟ فـراح يضغط رأسه بـين راحتيه. وهـذا يعني أن رد آل الكوپريـلي المضاد واستعـادتهم السلطة وارتقاءه المهني إلى هـذه الدرجة، لم تكن كلهـا سوى أوهـام، بل حجـة خادعـة تمهّد لضربـة جديدة؟ ولكن بعد هذا، صارت الأمور كلهـا سيان لـديه. ومـا عاد لأرباب الامبراطورية سوى أن يضربوا سريعاً، بأعنف صـورة ممكنة، كي يوضع حد نهائي لهذه الحكاية. وفي صبيحة الغد توجه إلى التبـير سراي في سحنـة كابيـة وهو عـلى يقين بـأنهم سوف يتلون عليـه أمـر إقالته، وإعادته إلى وظيفته القديمة في شعبة التأويل، أو في الانتقـاء ـ غير أن مرؤوسيـه استقبلوه بنفس الاحترام الـذي أبدوه ازاءه منـذ أن منح الترقية الأخيرة، ولم يفعل شحوب قسـماته سـوى أن ضاعف من مـودتهم له. ولمـا كانـوا يعرضـون عليه أوراقـاً شتى، حاول عبثـاً أن يستـدل من عيونهـم وأقـوالهم على بعض هـزء. وما أن أيقن من خلوّ

ذلك فيهم حتى عاودته بشاشته. غير أن هذا الشعور لم يدم. إذ خطر له أنه لو كان القرار بإقالته قد صدر، فلن يُخطر مرؤوسوه بالأمر بهذه السرعة. مما أثار قلقه ولم يصعب عليه أن يجد ذريعة للتوجه نحو المدير العام. وحين قيل له بأن الأخير لم يحضر إلى مكتبه اليوم بداعي المرض، خالطه اليقين بأن لذلك صلة بالملهاة التي تُدبَّر له.

وطال قلقه أياماً عديدة حتى هذا الصباح (حين لاحظ أن كل ما لا يتوقعه يحدث له)، إذ استدعاه باكراً المدير العام إلى مكتبه. ليس الوقت مبكراً جداً قال في سره وهو يقوم وبغرابة لم يَنْتَبْهُ أي نوع من الشعور. بل ألفى نفسه غارقاً في حال من الصمم لا تعكره سوى ضجة خطواته وهو يذرع الممر. وآن تقدم من المدير معرِّفاً نفسه صعقه تعبير الرصانة القصوى الذي اعترى وجهه.

وتفكر أنه من الطبيعي أن تبدر رصانة مماثلة طالما أن الأمر يتعلق بإقالة أحد من آل الكوپريلي. ففي عائلتهم، اتسمت الإقالات والتقديرات على السواء بسماتٍ من الاحتفالية. كان المدير يخاطبه ولكنه لم يصغ له، وفي نهاية المطاف، ما كان هذا الرجل عازماً على قوله لم يكن ليهتم له. وتمنى أن يخرج سريعاً من هذا المكتب ليتوجه إلى الشعبة التي يشاؤون تعيينه فيها، في شعبة الانتقاء أو حتى في قطاع النسّاخين، فيتخذ موضعاً ممحواً بين مئات من المستخدمين النكرين. وهَمَّ في لحظة أن يقاطع المدير قائلاً له: لما لا تضع حداً للأمر، ولِمَ السعي إلى غايتك مواربةً؟ فهذه المقدمات على غير نفع هي. ولكن المدير في الظاهر كان يستيسغ أن يلاعبه لعبة القط والفأرة. ومن يدري، ولربما كان مستاءاً من التخلص من سليل آل الكوپريلي؟ ولربما قال هو نفسه أن هذا أوشك مرة أن يسلبه مركزه؟ مع ذلك لم

يتوان الأخير عن الإيحاء بما أمَّرته به نفسه يوماً... وتغضن جبين مارك ـ عالم. كيف يسوّغ لنفسه تهكماً على هذا القدر من الابتذال؟ إن هذا ليفوق الحدّ! ولم يصدق مارك ـ عالم أذنيه: إذ كان المدير يوجه له تهانيه! وتفكر: إنك حاولت عبثاً أن تنال مني! وفي اللحظة التالية قال في نفسه: لسوف أُجنُّ...

ـ مارك ـ عالم ألستَ على ما يرام؟ سأله المدير برفق...

ـ أنا أصغي إليك سيدي، قال له ببرودة.

والآن جاء دور المدير في أن يتفحصه في ذهول. وابتسم له بحياء.

ـ اعترف لك بأنني ما كنتُ لأتوقع أن تتلقى إبلاغي بهذه الطريقة...

ـ كيف ذلك؟ قال مارك ـ عام بنبرة لا تزال جافة.

مدَّ المدير ذراعيه وقال:

ـ من الطبيعي أن يكون لكل امرىء الحق في أن يتلقى ترقيات مماثلة بالطريقة الأنسب له. كيف وأنت نفسك المتحدر من العائلة الشهيرة التي أخرجت من لدنها رؤساء وزارات...

ـ أكون ممتناً لك لو توجز، قال مارك ـ عالم وراح يعرو جبينه عرق بجلد.

وجعل المدير يحدق فيه بعينين جاحظتين.

ـ مع ذلك أظن أنني كنت في غاية الوضوح، رمى الكلام بصوت خفيض. والحق يقال إنني لم أتوصل بعد إلى إدراك السبب الذي جعلني استدعي امرءاً إلى مكتبي وأبلغه...

كان في أذني مارك ـ عالم طنين قوي، وما طفق يسمعه كان عصياً على التصديق تماماً. وأمكن نُتَفاً منْ تعابير محدثه أن تشق طريقها بصعوبة إلى سمعه. وكلمات تعيين وإقالة، ونقل مدير، ومركز مدير كانت قد لفظت حقاً ولكن في معنى آخر مختلف كل الاختلاف عما ظنه بادىء الأمر. وها قد مضى ربع ساعة بالتمام راح يشرح خلاله مدير التبير سراي العام، له أنه أي مارك ـ عالم سوف يُعين، بأوامر مباشرة منَ الأعلى، المدير المساعد الأول في قصر الأحلام مع احتفاظه بمركز قائد الحلم الأقصى. وبالتالي فإن مساعده الخاص المدير العام سوف يظل متغيباً في الغالب، لأسباب صحيَّة ما كانت لتفوت مارك ـ عالم.

وإذ جهد المدير العام وهو يكرر له ببطء ما قاله لتوه في أن يتبين السبب الذي من أجله أحدثت هذه الملحوظة في محدثه قدراً من الفتور، لبث يتفحصه بنفس الدهشة التي بات يخالطها ظل من الشك.

فرك مارك ـ عالم عينيه وقال في صوت خافت دون أن يخفض يده:

ـ أرجوك، اعذرني فأنا لست على ما يرام اليوم. أستمحيك عذراً.

ـ هيا، هيا، لا تهتم بهذا، قال المدير. والحق يقال إنني تنبَّهتُ إلى حالك منذ أن دخلت. يجب أن تعتني بنفسك أكثر، خصوصاً وقد أُثقلت اليوم بالأعمال. عجباً، أنابدوري ألفيتُني مهملاً في هذا السياق وها أنا أدفع ثمن خطأي أيضاً. لك تهاني الخالصة! من صميم قلبي! حظاً سعيداً!

في الأيام التالية، وكلما تذكر هذا اللقاء الثنائي مع المدير انتاب مارك ـ عالم توجع يكاد يكون جسمانياً. ومما زاد الطين بلّة أنه بات مغموراً بالعمل. ولما كان المدير العام متغيباً على الدوام لأسباب صحيّة، توجب عليه أن يخلفه لأيام عديدة برمتها. ولما تناهبته اهتماماته بات أكثر عبوساً مما عُهد عليه. وصارت الآلية الهائلة التي يقودها تعمل ليلاً بمثل عملها نهاراً. اليوم فقط جعل يدرك الحجم الحقيقي للتبير سراي. إذ عاين كبار موظفي الدولة يدخلون إلى مكتبه بحياء غريب. حتى أن نائب وزير الداخلية بعينه، كلما أتى لرؤيته كان يتحاشى أن يقاطعه حين يتكلم. ففي عيني الأخير كما في عيون الموظفين الكبار الآخرين، وخلف ابتسامتهم المهذبة، كانت تلتمع نقطة ثابتة من حيث يصدر السؤال نفسه: أيكون ثمة حلم بخصوصي؟ لكم كان عبثاً تنفُّذهم وعلوّ شأنهم وتنكّبهم أعلى المراكز وحيازتهم على أقوى دعم، هذا كله لم يكن كافياً. فالأهم لم يكن فقط ما كانوه في الحياة، كلا، بل إن ما يرجح كفة الأهمية كان دورهم في أحلام الآخرين، تلك العربات الملغزة وهم على متنها يجرون، وتلك الإشارات أو العلامات السفلية(*) التي تزينها...

كل صباح حين يتلقى مارك ـ عالم التقرير اليومي يخيل إليه أنه يمسك بين يديه ليلة ملايين وملايين من الأفراد، وقد انصرمت لتوها. إذ أن من يَسُدْ على الحيِّز المظلم في حياة البشر يحُزْ على سلطة واسعة دون منازع. ومن أسبوع إلى أسبوع راح مارك ـ عالم يزداد تبصراً بهذا الأمر.

ذات يوم وقد حثه وازع مفاجىء قام عن طاولة عمله وهبط

(*) الكبَّالية.

بخطى بطيئة إلى دار الوثائق. فوجد فيه نفس رائحة الفحم المستهلك المتثاقلة التي طالما استنشقها فيها مضى. وبدا المستخدمون لناظريه ممحوين يقفون ظلالاً أمامه مستعدين لخدمته. وطلب منهم ملف الأحلام القصوى للشهور الأخيرة. ولما جلبوه له أمرَ العاملين هناك أن يتركوه وشأنه يعمل، فراح يقلّب فيه برزانة. وكلما مضى في تقليب صفحاته راحت أصابعه تعبر عن اضطرابه المتعاظم وتباطأت دقات قلبه حتى أقصاها. ففي أعلى الصفحات إلى اليمين كانت قد سجلت التواريخ إلى بعض المراجع. آخر جمعة من شهر أيلول أول جمعة من شباط. ثاني جمعة من شباط. وألفى أخيراً الحلم الذي كان يبحث عنه، الحلم الأقصى المشؤوم الذي آل بخاله إلى القبر والذي كان رفعه بنفسه إلى إدارة التبير. قرأه بصعوبة كما لو أن عينيه كانتا مغشيتين بعصابة بيضاء لا تنفذ منها سوى شرائح من الضوء. كان ذلك حقاً حلم بائع الخضرة الجوّال في العاصمة الذي وقع مرتين بين يديه مرفقاً بالتأويل المقارب الذي تعرّف فيه: الجسر وهو من كلمة كوپري - كوپريلي: آلة الموسيقى - النشيد الألباني؛ الثور ذو الوبر الأشقر، الذي أهاجته هذه الأصوات فانقضّ على الدولة. يا إلهي! نفث قائلاً. كل هذا كان قد نقش في ذهنه وفوق ذلك، أن يراه مُدَوَّناً بالأسود والأبيض، ما أرجفه من رأسه حتى أخمص قدميه. فأغلق الملف وابتعد بخطى بطيئة.

فمنذ تعيينه على رأس التبير سراي أمكنه أن يطلع على جمهرة من الأسرار المرعبة ولكنه لم يتوصَّلْ حتى حينه إلى جلاء لغز تلك الليلة آن وجهت الضربة إلى آل الكوپريلي متبوعة بردة فعلهم.

تلاحق استجواب البائع الجوال في زنزانته. وقد ملأت محاضر

توضيحاته حتى الآن أكثر من ثمانمئة صفحة ولم يبدُ أنهم قاربوا على وضع حد نهائي لها. وذات يوم سأل مارك ـ عالم بأن يأتوه بوقائع هذا المشهد وكرّس لدراستها ساعات عديدة. وكانت المرة الأولى التي يقع ناظراه فيها على ملف كهذا وكان يحتوي على مئات من الصفحات التي حشيَتْ تفاصيل دقيقة عن حياة البائع العادية. كل شيء أو يكاد كان قد ذكر فيها: أنواع الخضار والفاكهة التي كان يبيعها عادة، ملفوف وقرنبيط وتوابل وخضار وأنواع السلطة، وساعات تسليمها، وتفريغها وطزاجتها المتواترة، والمشاحنات بشأنها مع مورديها، وتقلبات أسعارها، والزبائن وأحاديثهم، والشواغل العائلية التي يُعبر عنها من خلالها، والصعوبات الاقتصادية والأمراض المخبوءة والصراعات والأزمات والارتباطات، وطائفة من الأقاويل الملتقطة نتفاً متناثرة، وجُمَلٌ قالها مخمورون آخر النهار، جُمَلُ الكنّاسين والمستغربين وكلمات لمارّة مجهولين ظلت محفورة في وعيه دون أن يعرف سبب لذلك، ومن جديد كثرة الخضار، نكهتها في بداية الموسم أو في نهايته أخضالها من أجل الحفاظ على مظهر من الطزاجة، بلاهة الفلاحين الذين يسلمونها والمساومات على الأسعار، والسقط ونقاط الندى على بقول السَّلطة حتى يزداد ثقلها، نزوات المدبرات والخصومات والثرثرات كل هذه مستعادة ومجترّة بلا توقف حتى لتبدو لامتناهية.

ولما أغلق مارك ـ عالم الملف الثخين خيّل إليه أنه يخرج من حقل من الندى فسيح لا يخطر في بال أحد أنه يخفي ثعباناً في طواياه. ورغم العياء الذي سبّبته له قراءة محاضر الدعوى، استشعر شيئاً من النداوة وبغرابة شفقةً إزاء البائع الجوال الذي لم تكن لديه بوجه الاحتمال أدنى فكرة عما كان سيجره إليه حلمه. غير أنه قبل أن

ينتقل المحقق إلى شرح الحلم الذي خصصت له مئات من الصفحات الأخرى في محاضر الدعوى هذه. طُرح السؤال عما إذا كان الرجل نفسه قد صنع حقاً هذا الحلم الآنف، ولكن الأمر في الصميم لم يرتدِ أهمية تُذكر: فما كان عليه أن يحصل قد حصل وبات من غير الممكن العودة إلى الوراء.

وفي الأيام التالية لم يعد مارك ـ عالم ليفكر بتاتاً في بائع الخضرة الجوّال وبانت بشائر الموسم الجديد. وظهر الموسم لقصر الأحلام مليئاً بتوترات إذ لم يكن ليضيّع وقته في ترّهات محضة. وكل التقارير التي جعلت ترده كانت ممتلئة بالمسائل المطلوب حلها. واستطال أرق ألبانيا مكتسباً أهمية لا نظير لها. وبالتأكيد فإنه ليس على عاتق قصر الأحلام أن يُحلّ الهدوء في ربوعها. ولكن كلما طال الوضع المتوتّر فيها، تضاعفت مسؤولياته إزاء الأمر. فبات عليه أن يكون في غاية التنبه من أجل إعداد الملفات الخاصة بهذا الرقاد الذي راح يصغر على الدوام. ومما زاد الطين بلة أن مدير المصرف الامبراطوري كان قد حدّثه في لقاء لهما مطوّل لأيام خلت، عن تناقص قيمة العملة كنتيجة محتملة للأزمة الاقتصادية التي تعانيها الامبراطورية. إذاً يعود لقصر الأحلام بعد أن يكون قد لحظ ذلك الواقع، في مدوناته، أن يضاعف اهتمامه بالأحلام التي تمس هذا الموضوع الذي يدرك مارك ـ عالم، من خلال خبرته القصيرة في شعبة الانتقاء، ثمّ في التأويل، أنه ثمة مئات من الأحلام مكدسة في الملفات. وأخذ بعض أركان الدولة يستثيرون فطنته بطريقة غير مباشرة ناحية القلق السائد في أوساط المثقفين اليهود والأرمن (يا إلهي: أيكون ذلك نذير مذبحة جديدة؟) حول شيء من تباعد الصلة بين كبرى الولايات وعاصمة

الامبراطورية: ولبث هؤلاء (أركان الـدولة) يجـدّدون تحذيـرهم للمرة المئة ربما من فتور المشاعر الدينية لدى الجيل الشاب، تحذيرات يعرف الناس جيداً أنها تصدر عن شيخ الإسلام.

ولما كان مـارك ـ عالم مستغـرقاً في كـل هذه الاهتـمامات فَـاتَهُ أن يلاحظ اقتراب الربيع. وكان الطقس قد دفىء قليلاً، وبـدت اللقالق في طريق عودتها، ولكنه نفسه لم يكن لاحظ شيئاً من ذلك.

ذات بعـد ظهـر، في نفس السـاعـة ويكـاد يكـون في نفس الممـر السابق، لمح أناساً يخرجون تابوتاً من إحدى الزنازن دون أدنى نـأمة. إنه البائع الجوال، قال في نفسه دون أن يستـدير نـاحيتهم ليتأكـد من الأمر وليحدق بهم متميزاً. وبعد قليل ولما كان يجري على متن عربتـه مهتزّاً من رجات العجلات، عاودت خاطره هذه الرؤية، وما لبث أن طردها منه. خلف النوافذ ووسط ضوء الشمس الأرجـواني الغاربـة، بدت له أول منـابت للعشب في بساتـين ذات أشجار لا زالت عـارية من أوراقها.

في منـزله، التقى ببكـر أخوالـه، الحـاكم، تـرافقـه امـرأتـه وبعض أنسبـائه الأقـربين. وهـو لم يعد إلى العـاصمـة منذ إعـدام كـورت. وطفقوا يتحادثون عن خطوبة الأخير. فاغرورقت عينا والدتـه كما لـو أن الربيع وسعه أن يتغلغل إلى أعماقها. ولبث شـارد الذهن، يصغي إلى أحاديثهم دون أن ينبس بكلمة.

وبشيء من المفاجأة وكأنما أُوحي له بذلك، قال في سره إنه صار له ثـمانية وعشرون عـاماً. ومنـذ دخولـه إلى قصر الأحـلام حيث يجـري الزمن بحسب قوانين أخرى، لم يفكر قط في عمره.

وإذا جرّأهم عليه صمته راحوا يتحدثون بمزيد من الارتياح عن الفتاة الشابة التي كانت موصودة له. تسعة عشرة عاماً، شقراء، كم أحبهم. . . وجعلوا يديرون المحادثة عن هذا الموضوع بكثير من التأني كأنما يقلبون بين أيديهم كأساً من الكريستال. ولم يقل نعم كما لم يلفظ لا. وفي الأيام التالية كفوا عن التكلم بشأن الخطوبة وكورت وكأنما ليتجنّبوا إفساد ما أنجزوه بحسب ظنهم.

وعدا العشاءين اللذين أعدتها والدته على شرف بكر أخوتها، مضى أسبوع في المنزل دون متاعب. وكان النحات المولج بزخرفة قبور العائلة قد أتى عارضاً عليهم نماذج من حروف النقش الجنائزي وزخارف البرونز التي سوف تزين ضريح كورت.

وفي الأسبوع التالي، عاد مارك ـ عالم في ساعة متأخرة من المساء. كان مثقلاً بالأعمال إذْ طلب السلطان أن يعد له تقريراً مستفيضاً عن الرقاد والأحلام على مستوى الامبراطورية كلها. فأُطيلت دوامات العمل في كل شُعَب التبير سراي وكان لا يزال المدير العام مريضاً وبات على مارك ـ عالم أن يخط بنفسه نص التقرير النهائي.

وكان يشعر وهو جالس إلى مكتبه، بين الحين والآخر بتثاقل في رأسه. وحدث له أن ينظر بدهشة إلى الأوراق التي سوّدها وهي موضوعة أمامه، وكأن يداً أخرى فعلت ذلك. وكان دُوِّن ها هنا، الحلم المفجع لأوسع امبراطوريات العالم أجمع، بحيث لا يتسع حلم بقية البشرية أن يضيف إليه شيئاً ذا قيمة. إذا كان هنا حلم الكوكب كله بشكل ما، ظلمات مرعبة ولا متناهية وقاع بلا قرار من حيث يجهد مارك ـ عالم في أن يقبس نتفاً من الحقيقة. هيبنوس بذاته إله الرقاد اليوناني ما كان أكثر إلماماً منه في ما خصّ فصل الأحلام.

ذات بعد ظهر سحب من مكتبة كتاب وقائع عائلته وكانت آخر مرة ألقى نظره عليه ترقى إلى ذلك الصباح القارس البرد حين كان عليه أن يتوجّه إليه حالماً عُينّ في هذا القصر الذي بات مضطلعاً بإدارته. وفي حين راحت أنامله تنزلق على الصفحات، ظلت تتولاه العجمة عما يبحث فيها.

ثم تنبّه إلى أنه لم يكن يبحث عن شيء فيها، وأن ليس فيه سوى الحاح واحد: أن يبلغ إلى الخاتمة، حيث تصبح الأوراق بيضاء. . . كانت تلك هي المرة الأولى التي يخطر له فيها أن يضيف شيئاً إلى تلك الوقائع الجلية.

وظلّ زمناً طويلاً بلا حراك لبثت عيناه مثبتتين إلى السجل.

كانت أحداث هامة قد جرت. الحرب ضد روسيا كانت شارفت على الانتهاء. وكانت اليونان قد انفصلت عن الامبراطورية، في حين ظلّ باقي دول البلقان على حال من الغليان.

أما ألبانيا فمن ناحيتها. . . وبانت له أشبه بكوكبة من النجوم باردة وبعيدة وتزداد احتجاباً وبعداً عنه، وساءل نفسه عما إذا أمكنه فقط أن يعلم ما يدور في خلدها. . . وظلّ هكذا لحظة، نهب ارتياب، في حين ثقلت ريشته في يده، حتى إذا انخفضت، ومالت إلى الورقة سجلت كلمة: «هنالك»، بدل ألبانيا. تأمل هذه العبارة التي حلّت بديلاً من اسم وطنه فأشعرته بغتةً بثِقل، أطلق عليه وعيُهُ، على الفور، صفة الحزن الكوپريلي. تعبير خلت منه كل لغة في الأرض، بيد أنه قمين بأن يحلّ في جميعها.

هنالك، الآن ينبغي أن يكون الطقس مثلجاً. . . ولم يضف شيئاً

آخر وبحركة فظة، رفع ريشته كأنما خشي أن تظلّ مجمدة هنا، مرتعاً للافتتان. وانبغى له أن يتجاوز اضطرابه لكي يسعه أن يروي من ثم بإيجاز، وبأسلوب مماثل لما في الوقائع، إعدام كورت كوپريلي وتعيينه على رأس قصر الأحلام. ثم اعترى الجمود ريشته ثانية وهي بين أصابعه وتفكر بجدّ أجداده المسمى «جيون» الذي كان يعمل لقرون خلت، في يوم شتاء في بناء جسر، فشيَّد، إلى ذلك الجسر، اسمَه الذي عُرف به لاحقاً. وقد خطّ في هذا اللقب مصير آل الكوپريلي الذي تعرّفوه جيلاً بعد جيل، وكأن رسالة سرية تنبأت بما هو مقدور لهم.

وقد ضحيّ برجل وزجّ بجثته تحت أسس الجسر لكي يشتد ويقوى على الدهر. وكان زمن لا يستهان به قد مضى منذئذ، ولا زالت آثار الدم المهراق ماثلة حتى عهدهم كي يظلّ آل الكوپريلي متماسكين. . .

ولربما كان لهذا السبب بالتحديد ـ أبداً مثل اليونانيين القدماء، الذين كلما اشتركوا في جنازة قصّوا شعورهم كي لا تتعرفهم روح الفقيد، ولا تسبب لهم الأذى إن هي غضبت غضباً مباغتاً ـ دُفع آل الكوپريلي إلى أن يبدلوا اسمهم إلى كوپرولو ليتجنبوا نسبتهم إلى الجسر.

هو نفسه لم يجهل ذلك، حتى لو أظهر في تلك السهرة المشؤومة رغبة متحرقة في رفع ذلك القناع الحامي، نصف القشرة الإسلامية عن اسمه «عالم»، ليتخذ اسماً من أسماء الماضي التي طالما اجتذبت الخطر واتّسمت بالقدر المحتوم. وراح يكرر في نفسه، أبداً كعهده: مارك جيرج أورا، مارك جيورج أورا. . . والريشة لا تزال في يده،

وكأنه متردد في أن يوقِّع بإمضائه أسفل الوقائع العتيقة.

وبعد ظهر أحد أيام آذار، اختتم تقريره، وأعطاه لينسخ في مكتب النّساخين. ثم اتجه نحو عربته وقد أنس من نفسه ارتياحاً نسبياً، قاصداً بها منزله. وكان اعتاد أن يتقوقع في صدر مقعد العربة، في الظل، حيث تعجز أعين الفضوليِّين عن بلوغه، من الشارع الذي غالباً ما يكون حافلاً بهم. هذا ما فعل، اليوم أيضاً. رغم ذلك، شعر بأن جاذباً غريباً يحمله على الالتفات ناحية الباب، هنا خلف النافذة راح يدعوه بإلحاح، وعلى غير عادته قرّب رأسه آخر الأمر، ولحظ عبر طبقة من البخار الذي عكسه بخره على الزجاج، أن عربة خيله باتت تعبر الحديقة المركزية. أشجار اللوز مزهرة، قال ذلك في نفسه بلهفة. وساورته نفسه بأن يعود إلى انزوائه سريعاً في قرارة عربته، كلما جذبه شيء من الخارج، إلا أنه ظل عاجزاً عن الحراك. هنالك خلف الزجاج وعلى مبعدة خطوتين منه يدرك تماماً أن الحياة آخذة بالتجدد، والغيوم الغائرة واللقالق والحُب، وكل ما تجاهل أن يكون انتُزع من قبضة قصر الأحلام، خشية منه عليه. وخطر له بأنه ما كان ليهنأ ها هنا، على فراش وثير، في قرارة العربة إلاّ . . . لكي يحتمي، وأنه في اللحظة التي ينقاد فيها للحياة، ويغادر هذا الملاذ، أي في لحظة الخيانة، يصير الافتتان إلى زوال. حينئذ وبعد ظهر يوم من الأيام، حين يكون الحظ إلى جانب آل الكوبريلي، سوف يأتون ويمضون به كما فعلوا مع كورت، وربما بكثير من الرعاية، إلى حيث لا أمل في العودة.

ورغم كل هذه الأفكار التي راحت تخطر له، لم يشِحْ بنظره عن الزجاج. لسوف أوصي ناقش قبري منذ الآن بأن يهيّء لي غصن لوز

مزهراً ليوضع على ضريحي، تفكر في نفسه وجعل يمسح براحة يده البخار العالق على النافذة، غير أن الرؤية التي عرضت له ما وَنيَتْ لا تتّضح عكس ما يشاء، وبدت له الصور متعاكسة، ومتقزّحة. فأدرك حينئذ أن عينيه تغشاهما الدموع.

تيرانا ـ ١٩٨١

قد يبدو من النافل الكلام على روائي (إسماعيل كاداره)، بعد أن يكون حاز صيته (كلاسيكيته)، على مدى الثلاثين سنة الأخيرة، منذ أن ترجمت روايته الأولى «جنرال الجيوش الميتة» إلى الفرنسية، وأعدَّت فيلماً ناجحاً، وتوالت ترجمات رواياته ناقلةً عوالم ألبانية حميمة ولكن في حبكات مختلفة كُلَّ مرة.

ولعل طاقة كاداره تكمن في اختياراته ووجهات نظره البالغة التنوع والفرادة في آن، تلك التي يقارب بها موضوعات رواياته الواحد تلو الآخر. وكأنما هي المنافذ التي ينبغي له إحداثها، كلما أراد الاطلالة على نفس المادة الألبانية، ذات الملاحم التائهة، والأساطير المغمورة والشخصية الاثنية التي استحقت هويتها بالقتال الملحمي المتواصل من أجلها.

إن روايات إسماعيل كاداره في مجملها بحث دؤوب عن الروح الألبانية في تمثلاتها ومراحل انكسارها وانتصارها، ووقوعها في أسس أمبراطوريات، وصراعها مع دول حديثة وتوتاليتاريات نازعة إلى الغلبة والضم. ولكن لا يظنن اسماعيل كاداره روائياً تاريخياً فحسب، لا تجوز كتابته برَّ الوقائع والأيام، ولا تتعدى رؤيته مشارف الماضي السحيق. بل قل هي الحساسية الألبانية المحلية التي أمكن الروائي نقلها إلى الغرب ما صنع ألقه الأول والخاص، يعينه في ذلك لغة دفّاقة يزاوج فيها الشعريّ بالمتخيل، والواقعي بالدرامي، والآني بالغابر والمستقبل على حد سواء.

تمثل رواية «قصر الأحلام»، أوجاً آخر لمسعى كاداره في تنمية المنحى الدرامي المعاصر، حيث التاريخ والتغريب سيِّدان لهما مطلق الصلاحية.